الإمام
علي بن أبي طالب

الجزء الثاني

تأليف
عبد الفتاح عبد المقصود

منشورات مكتبة العرفان
بيروت

٣

صيحة رافعة . . . تسمع الصم ولا تستطيع دفعها أذن نائم . لها في السمع دوى مجلجل ، وفي القلوب أصداء ، وعلى الشفاه همسات تلثم حديثاً بيناً يطير في الآفاق .

هي في أصلها شعور قلب : رقيق كالنسمة السابحة مع الفجر ، صاف كالنبع المتفجر من صخر . . . استوعب مشاعر فقراء قومه وما زخرت به قلوبهم من عذاب الحرمان ، ووعى في ذهنه خواطرهم التي كتموها حينا ثم راح يبثها بلسانه في كل مكان .

وكانت رهيبة كصوت القدر ، قاطعة كالسيف لأنها حق ، رنانة الجرس كقصف الرعود أو صليل السلاح . . . ما سمعها أحد ينكرها إلا تلفت حواليه من خشية . ثم انطلق يفر من جزع وقد اضطرب فؤاده كالجناح بين جنبيه ، وود لو ردها عنه أن يضع أصابعه في أذنيه .

وكانت أيضاً شجية كأغاريد ، رقيقة حانية ، قد تسكر السامع وتحرك المدامع . . . إذا رددها الليل هفت إليها قلوب من ولعوا بها قبل الآذان ، وإن حملها الصبح تلمسوا مصدرها ، مشوقين خفافا ، كما يلبي العابد نداء الأذان .

جاءت كنسمة الصبا من الشمال ، طيبة ريانة . . . ثم انطلقت سباقة إلى الوادى الأجرد ، تقطع الصحراء — بغير ونى — من الشام إلى قلب الجزيرة حتى حاضرة الإسلام . . . لم تقف بها في مسراها أودية وشعاب ، ولم يخفت من حدة صوتها حجاب أو باب . . . بل مشت في أعقاب صاحبها — الهاتف بها من قلبه — كما يتبعه ظله .

حتى المدينة أيضاً سار فيها ظله . . . فحين دلف بهيكله الضامر ، وخطت قدماه الناحلتان على دروبها ، وتطلع ببصره النفاذ إلى معالمها ، رمقت وجهه

المروق غبرة حزن ... أهذه حقاً مدينة رسول الله ؟ .. الأرض الطيبة المحيا والممات ؟ .. البلدة التي خلفها منذ أعوام عالماً وحدها من الإيمان ؟ .. لكم لعب بها الزمن إذن وأحال معدنها الحر إلى مظاهر وقشور ، ومشت عليه شراهة النفوس حتى صدئ وغاب لمعانه ! .

أضحت بلدة غير البلدة ، كأنها استعارت ثوب أختها في الشمال ... كذلك بدت في عينيه لأول وهلة حتى حسب أنه في دمشق لم يبرحها ولم يخرجه منها عاهلها العاتي ... ولكن ذهنه ثاب إليه في لحظات وقد وخزته آلام تخذيه . ألا غفر الله لمعاوية وأوسع له في عفوه بقدر ما أساء إليه ... وعفا أيضاً عن صقالبته الخمسة : أولئك الذين وكلهم بهذا الشيخ الذاوي النحيل يطيرون به الطريق كلها من الشام ، خلال سمير الصحراء ، على بعير عار ولا يتريثون به مرة واحدة ليستريح ... ومع ذلك فقد حاول أبو ذر طوال الرحلة الشاقة أن ينسى آلامه ، وأن يهيء نفسه لمقام — خير من مقامه ذاك على حدود الروم — تطيب نفسه فيه .. فماذا لقي بعد أن انتهى به المسير ؟.

كاد الشيخ أن يطالع صورة ثانية من حاضرة الشام في حاضرة الإسلام .. أما البلدة الفاضلة – مدينة محمد القديمة — فقد كادت أن تختنق خلف البذخ الصارخ . أين ما هي فيه اليوم من رفاهة ولين مظهر مما نشأها عليه الإسلام من خشونة وصلابة عود ... وكيف غلبت عليها سريعاً هذه الميوعة المنتقلة إليها كالوباء من أرض الروم خلال بلاد ابن أبي سفيان ؟ .. يا ترى هل آثرت أن تستبدل بمسوح الزهد والوقار غلائل الترف والاستهتار لتعرض نفسها سلعة في سوق الدنيا ؟ .

واعتصرت يد الأسى قلبه الكبير وعصفت به . ما كان أحب هذه الأرض إليه وما أشد ما أصابها عليه ... إن تربها الذي طهرته أقدام الهادي ، وبللته دماء الشهداء ، وذكت فيه دوحة دين الفطرة يهم اليوم أن يطلع نباتاً خبيثاً . فأينما ولى الشيخ بصره في نواحي البلدة رأى رفاهة

وترفاً وجدة حتى لأوشك أن يحسب نفسه الشيء الفقير القديم الوحيد فى المدينة! حتى مسجد الرسول زالت عنه بساطته السالفة وحشدت على حيطانه النقوش والزخارف فبدا اليوم على غير ما كان. وهذه الدور، التى كان عهده بها مساكن صغيرة لا تكاد أن تمنع عن أربابها لفح الهجير وقر الزمهرير، مالها ذهبت الآن قصوراً شامخة تطاول السماء؟ ... أرقت الأجسام فوهنت القلوب التى قومتها قوة الإسلام؟ .. إنه ليقلب كفيه أسفاً وبصره يتنقل حائراً بين هذه المظاهر التى لا ريب تنبئ عن خور وجنوح إلى الرخاوة والضعف. وما كان له إلا أن يأسف وهذا أمير المؤمنين نفسه — الرجل الذى صاحب نبيه الزاهد العزوف، قد أقام له قصراً كالعروس المجلوة بين هذه القصور، له شرفات وأبراج على عمد من مرمر شفاف كالعاج.

هذه المعالم الفاخرة لم تكن فى ذاتها ما ملأ قلبه أسى وحسرة، بل دلالتها ... إنها العنوان البغيض لسفر الأخلاق الذى سطرته حديثاً شهوات الأنفس الزائغة عن بساطة الدين إلى زخرف الحياه! ... إنها الرده ثانية إلى متع جوفاء كادت دعوة محمد أن تغيبها فى قبر الغابر. وكان أبو ذر دواماً يؤمن بالجوهر ويكفر بالمظهر: يعلم أن قوه المرء فى قلبه لا فى ثوبه، وحدة الحسام بحده لا بغمده.

كذلك بدت المدينة — غب نفيه إليها — فى ثوب دمشق. متبرجة كالصنم فى يوم عيده ... لم يكد يحس فيها براحة النفس التى عناها، بل سريعاً عاوده شعور الاستنكار وهو يجوس دروبها تماماً كما كانت حاله من قبل وهو يذرع طرقات حاضرة الشام ويجأر فيها بصيحاته. ما ترك الجنوب إذن للشمال منقصة لم يباره فيها، لا ولا مذمة! .. وهؤلاء الرجال الذين طالما شد آباؤهم على بطونهم حجارة — تأسياً برسول الله — لقهر الجوع، قد أصبحوا يخطرون الآن فى مصبغات الديباج، مصعرين الخدود شامخين بالأنف، ولا يأبه أحدهم أن يطأ فى خيلاته أخاً له فى الدين ألقاه الطوى على الثرى وآذاه الجوع .. يا رحمة الله! هذه أمة، بفضل إيمانها النبى

على نـكران الذات ، دان لها العالم المترف ورجالها فى أسمال ، فـالها اليوم تدين بشريعة المال وتعنو لسلطان المال ؟ .

ويمثل دوى الرعود القاصفة ، وصليل السيوف ساعة الجلاد ، عادت كرة أخرى إلى الظهور دعوة هذا الشيخ الذى نذر حياته لإنصاف الفقراء من ذوى اليسار :

« . . . وبشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله بمكاو من نار » .

٢

. أهى زلة عصية على الغفران أن يملك عثمان المال ويبنى فيعلى فى البناء ؟ . . من عجيب أن النفوس التى ثارت عليه ، وصلت إلى حد كانت لا تستطيع معه أن تنفر ، لأنها رأته — وقد جاءت الخلافة الأمر له — كمن أراد أن تـكون الدنيا أيضاً له وما أحسبه إلا قد زودها من مقومات الثورة وأسبابهـا بأدسم زاد .

هذه هى نقطة التحول فى حياة الخليفة المنـكود . أو — على التحقيق — فى الأثر النفسى الذى انضمت عليه جوانح شعبه حيـاله ... أما الواقـع فلا ينـكر على الرجل أنه كان مترفاً طول عمره من قبل الإسلام . وكان غنياً مسماحاً ، سخى الـكف والقلب ، له فوق هـذا من السجايا الخلقية ما يجذب إليه الناس ويؤلفهم حوله . ولـكن الشعوب دائماً تحصى حركات قادتها ، وتمنى بتصيد هنات حاضرهم بغير اعتبار لـما أولوها فى غوابر أيامهم من أفضـال . وقد نظرت الأمة الإسلامية إلى عثمان من خلال نفس المنظار الذى كانت ترقب به سالفيه ، فهالها أن تجده من طراز آخر : معنياً بمظاهر دنيا لم يقبلا مطلقاً عليها وزهد فيها قبلهما رسول الله ... وكـذلك كانت الحال حين تفتحت العيون على الترف السابغ الذى خاضت فيه الدولة الناشئة

وخاض فيه الخاصة . واستطاع كل عاتب مغرق فى الاتهام ، أو عاتب مستلهم بساطة الإسلام أن يرى الرجل بالتشبث بالجانب الباطل من الحياة : هذه الرفاهة وهذا الولع بكنز المال ... فما كان — فى رأيهم — إلا مثلا لسواه من عماله وذوى قرباه والكثرة الغالبة من صحابة رسول الله ؛ ساروا جميعاً على شاكلته ونهجوا نهجه . أو كان — بأعدل الآراء — الحاكم الذى له القدرة على الحد من غلواء أولئك المترفين ولكنه أغضى عن هذه الغلواء .

على أن المنصف يمكنه أن يمد عنه اللوم قليلا . فلم يكن هو الذى أغرى الناس بالترف وحب الثراء ، بل هى طبيعتهم البشرية التى حضتهم على التملك ، وظروف الدولة الفتية التى انفسحت رقعتها فى أعوام معدودة فضمت تحت جناحها نصف العالم الخصيب . وما أحسب بدوياً نبت خلال جدوبة الصحراء ، وعانى مرارة الحرمان فى رمالها المستعرة ، إلا يعمل قدر وسعه — وقد تفتحت أمامه الأبواب — على جمع المال الذى يجنبه الفاقة والشظف وسوء الحال .

بهذا قضى منطق الحوادث قضاء لامعدى عنه ، فاستجابت له طبيعة الإنسان ، وله اتسع فهم عثمان ، كما اتسعت موارد دولته الآخذة فى النماء ، فزاد عطاء الناس مائة درهم منذ اليوم الذى امتلك فيه مقاليد الحكم . وهكذا أبدى الرغبة الصادقة فى أن تعمل الدولة جاهدة لمصلحة الفرد . وخط عنواناً أنيقاً لسياسة حسنة — لو أنه احتذاها طوال أيام عهده — لكان تغير تاريخه المعروف .

وفى الحق لسنا نملك إلا أن نحكم له بحسن نواياه حيال الشعب كلما تتبعنا عن كثب الخطوط التى رسمها لعماله فى البلاد وأمرهم فيها بتقديم خير رعاياه على كل ما عداه ... كان أول كتاب بعث إليهم به .

« ... إن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة ، ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة . . »

وأوضح النهج الذى يسير عليه عمال الخراج بقوله :

« . . . إن الله خلق الخلق بالحق فلا يقبل إلا الحق . خذوا الحق ، وأعطوا الحق به . . . والأمانة الأمانة ! . . قوموا عليها ، ولا تكونوا أول من يسلبها فتكونوا شركاء من بعدكم إلى ما اكتسبتم . . . والوفاء الوفاء ! . . لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد فإن الله خصم لمن ظلمهم . . . »

ولكن هذه السياسة لم تكن كفيلة وحدها باقتلاع البذرة التى أثمرت على الأيام دوحة السخط فى نفوس الناس . ولم يكن عثمان غارس هذه البذرة بل كان — لسوء طالعه — ذلك الذى انفرد بالحصاد . . . أما الباذر فكان عمر . وضعها نواة صغيرة فى مبدأ عهده ، ثم تركها تنمو ليجنى منها خلفه ثمرتها المرة .

هذه حقيقة واقعة ليس إلى نكرانها سبيل . ولعل عمر لو امتد به أجله كل هذه الأعوام التى حكم فيها عثمان بلاد الإسلام ، للقى مصرعه بغير خنجر ذلك المجوسى الحاقد . ولمن حسب أن هيبة ابن الخطاب كانت قمينة بأن تحميه من ثورة النفوس فإنه إذن أخطأ جانب الصواب . ذلك أن التذمر نار آكلة ، لا تفتأ تدب فى الخفاء ، تحت الرماد ، حتى يتاح لها ما يكشف عنها الغطاء فتنبعث سعيراً ذاكى الضرام . ولقد أشعل عمر الجذوة حقاً ثم لم يمهله العمر ليصلى حريقها المشبوب .

أشعل عمر الجذوة وتركها تتقد وتأكل النفوس . . . وتلفت الناس بعد مضيه عن الدنيا بأعوام ليروا عالماً غير ذاك الذى ابتناه لهم الإسلام . فلقد أوشكت المساواة بين الأفراد أن تكون معدومة ، بل إنها امحت أصلا مادام قد قر فى أذهان الجمهور أنه لامساواة إلا بتكافؤ الفرص أمام الجميع للرزق الميسور .

ولكن هذه الفرص كانت انطوت مع الماضى . وانقضى أجلها بانقضاء أجل ابن الخطاب . فهذا الرجل الذى كان مثالا تحتذيه العدالة القضائية لم يكن كذلك فى نظر العدالة الاجتماعية — أم خانه التوفيق حينما أمر بتنفيذ طريقته فى تقسيم العطاء بين الناس ؟ إنه لابد قد حضرته إذ ذاك

عوامل رجحت لديه رأيه . ولـكن مما لاريب فيه أن عوامل أخرى أقوى من السالفة قد غابت عنه وكان أحرى به — لو استشفها من وراء حجب الغد القريب — أن يعـدل عما حزم عليه أمره واستقر فى باله . ولـكنه رأى رأيا فالتزمه . لم يحد به عنه علمه أن سلفه قبله لم يقبله ، وأن رسول الله ، صاحب خير الآراء ، كان يسير على نقيضه .

وكذلك نحا عمر نحوه الخاص فلم يجعل الناس سواسية عند التقسيم ، فبينا نسمع الصديق يأبى أن يفضل أهل السابقة إلى الإسلام على غيرهم ويقول :

« . . . إنمـا أسلموا لله وعليه أجرهم ، يوفيهم ذلك يوم القيامة . . . »

إذا بابن الخطاب من بعده يخالفه ، ويجمل سياسته الجديدة فى كلمات :

« . . . إنا على منازلنا من كتاب الله وقسمنا من رسول الله . فالرجل وبلاؤه فى الإسلام ، والرجل وقدمه فى الإسلام ، والرجل وغناؤه فى الإسلام . والرجل وحاجته . . . » .

وبهذا الأساس الذى وضعه عمر للتقسيم لم يجعل المسلمين كلهم على سواء بل رتبهم درجات ومنازل لـكل درجـة حظ من العطاء معـلوم . . . ولعلنا نستطيع أن نفهم كيف رأى أن يخالف شرعة صاحبيه التى التزمت المساواة ، وكيف آثر عليها هذه التفرقة فى القسم حين نسمعه يقول : —

« . . . لا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه . . . »

وإنها حقـاً لفـكرة جميلة ، ولـكنها أيضاً غير سديدة . . . وهى هكذا تـكشف عن عمر رجـلا تسرع به دائماً عاطفته . غير أننا نبخسه حقه إن تركناه قائماً بصحة رأيه حتى ساعة حينه . . . ذلك أنه فى آخر عهده ود لو ثاب ثانية إلى نظام التسوية ، بل قد أعد العدة للعود إليه ، ورسم الخطة المثلى التى هدته إليها التجربة وتداول الأحداث .

وقال فى آخر عام من أعوام حكمه :

« . . . والله لئن بقيت إلى هذا العام المقبل لألحقن آخر الناس بأولهم ، ولأجعلنهم رجلا واحداً . . . »

ولكنها رغبة أبت أن تحققها له الأيام . ومضى الرجل عن الدنيا إلى مثواه وقد خلف أمته طبقات ، تختلف — على مر الزمن — بين ذروة الغنى والثراء وحضيض الحرمان والفاقة . فلما انعدمت بين أفرادها المساواة ، واتسعت هوة الفوارق الاجتماعية ، كانت ثمرة السخط قد نضجت وحان قطافها بيد خلفه النكود .

٣

كانت صيحة أبى ذر صدى النتائج اللازمة التى تولدت عن اختلاف التقسيم . وكانت النتائج هذه الفوارق التى نمت مع الزمن حتى لم تعد تستطيع هضمها نفوس الفقراء . . بل تبدلت حسداً ، وسرت إنكاراً ، وانقلبت حقداً على أولئك الأشراف ، الذين نبتت طبقتهم من بين أوائل المسلمين ، وبدأوا حياتهم — أيام رسول الله — مثالا يحتذى فى البذل والإيثار ونكران الذات ، ثم ختموها — أو كادوا — بالترف المغرق والغنى والدأب على جمع المال . . . أى المحرومين إذن كان يرى كيف اجتمع لزيد بن ثابت من الذهب والفضة ما كانت الفؤوس وحدها أداة تكسيره ثم لا يلتهب الحسد فى جوانب صدره ؟ . . وأين محتاج يستطيع أن يرد طرفه راضياً بعد أن يشهد ماشية ابن عوف وما اقتناه من أباعر وأفراس عديدها الآلاف ؟ . . وهل من معوز يسمع عن مئات العبيد والإماء عند طلحة ، وعن قصور الزبير بمصر والبصرة والكوفة وسواها من البلدان ، لا ينكر هذا أشد استنكار ؟ . . يا عجباً من أولئك الذين آزروا نبيهم فى دعوته لدين المساواة تجمع بهم مطايا الثروة والترف والرفاهة بعيداً عن المساواة ! . .

هكذا جرت خواطر الناس فى أذهانهم وهم يرمقون السادة الجدد بعين حاسدة ، وكان عهدهم أنه لا سيد ولا مسود فى الاسلام . وبه اعتملت

عواطفهم كالنار فى قلوبهم ، تأكل وشائج الاخاء فيها وتميت الرحمة . ولم يكن أولئك الذين حف بهم الاستهكار هم وحدهم أصحاب المطايا الجامحة نحو نعيم الدنيا ، بل كانوا أمثلة معدودة للبقية الباقية من صحب محمد ، الذين أقبلوا على الحياة وقد استهواهم منها جانبها البراق بعد أن كانوا من قبل يميلون تعففاً عن مظاهر الحياة . . ولكن الفراغ والمال آفتا النسك والزهادة ، وهذا عطـــاء عمر لا تكاد حاجاتهم أن تأكل منه ، والأعطية المتوالية فى عهد خلفه تتكدس لديهم العام بعد العام كلما امتدت رقعة الدولة ووسعتها الفتوح بين قرنى الشمس . . . ثم دع عنك بعد هذا ما أفاءه عليهم الاتجار بمختلف الأمصار من خير سابغ وقد خلى عثمان بينهم وبين بلاد الدولة جميعها يذرعونها وفق هواهم وأباح لهم منها ما منعته سياسة ابن الخطاب .

نمروا إذن فائض أموالهم حتى بلغت إلى ما يكل عنه الاحصاء . وانبسط أمامهم عيشهم ليناً وحياتهم ناعمة رخية غاية الرخاء ... إنهم فى الواقع لم يبخسوا الناس حقاً ولا جاروا على فريضة الزكاة للفقير المحروم . ولكن الزكاة لم تكن وحدها مجزية تسد حاجة الطبقات الفقيرة فى زمن بيعت فيه النخلة — وثمرها خبز العربى — بألف دينار . ولئن كان الدين قد ضربها على أصحاب المال ؛ فلأنها وسيلة للتخفيف عن أثقالهم أعباء الحياة وليس لأنها غاية الغايات فى النظم السماوية التى جىء بها لوضع الفـــاقة عن كاهل البشرية ... وما من امرىء أشرب قلبه روح الاسلام إلا عرفه دين إخاء ، وما من إخاء بغير مساواة إن لم يكن بالتقديم والايثار ... وهل كان لغير طائل قول رسول الله حين قال :

« إخوانكم خولكم ، جعلهم الله قنية تحت أيديكم ، فن كان أخوه تحت يده فليطعمه من طعامه ؛ وليلبسه من لباسه ؛ ولا يكلفه ما يغلبه ... فإن كلفه ما يغلبه فايعنه . » .

هـذه هى الناحية الانسانية فى الدعوة الاسلامية ما أحسب إلا أخفتها عن عيون القوم أكداس النضار الوهاج . ولو أن الناس عنوا بانتهاجها حق

عناية لوسعهم أن يجتثوا شجرة البؤس من الأصول والجذور . ولكن الانسان هو الانسان فى كل عصوره ، منهوم أبداً ، لا يشبع من مال . اما صحب محمد فقد عسر عليهم بعده أن ينظروا إلى الدنيا بمثل نظرته ، وأن يعالجوا شهوة النفوس بالصبر والرياضة ، وأن يجعلوا متع الحياة تحت مواطئ الأقدام . . . كان عصياً بلا ريب على طبائعهم البشرية — أمام إغراء الذهب — حتى أن يقولوا كما قال :

« ما يسرنى أن لى مثل أحد أنفقه فى سبيل الله أموت وأترك منه قيراطين . . . »

قيل :

« أو قنطارين يا رسول الله ؟ »

« بل قيراطين ! »

* * *

هكذا كانت نفوس الخاصة والأشراف فى تلك الفترة من تاريخ الاسلام . . . ولم تكن صيحة أبى ذر هى الصوت الأوحد الذى ارتفع يحارب هذا النهم ويحاول أن يردهم عنه ، بل سمعت هاهنا وهناك همسات تنكر الترف ، وأصوات تدعو جاهدة إلى السبيل الواضح السليم ، ليست كلها على ألسنة ذوى الحاجات . وكان طبيعياً أن يتململ فى عزلته معلم الناس الأول ؛ وحكيمهم بعد رسول الله . وأن يتحرك قلقاً كما يفعل أسد حبيس قفصه إذ يلمح ما يهيج ثائرته من خلال القضبان . . . كان دائماً يشعر أن هذه المظاهر البراقة التى جنح إليها أصحاب محمد ، رجال كتائب الايمان الأولى ، إن هى إلا جراح فى قلبه تدميه لأنها خدوش أحدثتها شراهة النفوس فى كيان الدين . ولكنه لم يكن يملك غير لسانه يفيض بجوامع كلمه — تماماً كالأسد إذ يلعق به دماء كلمه . كم من يوم مشى على إلى أولئك المترفين من الصحاب ، تارة بالنصح وتارة بالعتاب ! . . وكم من مرة واجه فيها عثمان برأيه فى سياسته المبنية على التهاون واللين إزاء تهالك

هؤلاء السادة على زخرف الحياة دون بساطة الزهادة ! .. وكلما عاد من حديث ملامة عجب لهذا المال كيف يستعبد الرجال ، ويشترى منهم قلوبهم رخيصة . . إنه هو واحد منهم ، نهل كمثلهم من نبع هاديه وبدأ وإياهم السير على سننه . . فما لهم توقفوا من دونه عن إتمام الرحلة ؟ . . وإنه أيضاً واحد منهم ، له عطاء كمثل عطائهم أو يزيد قليلا ، فما له لو أراد شبعا لأعوزه أن يجد فى بيته ما يملأ بطنه من دقيق الشعير ؟.

ولكن أمن المستطاع حقاً أن نقرن به غيره ، هو الذى ولى الدنيا ظهره ، وزهدها مقبلة أو مدبرة ، وقرن فيها البذل وإنفاق المال بالايمان فقال :
« لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون بما فى يد الله أوثق منه بما فى يده . »

٤

غلبت فتنة البذخ على نفوس الكثرة من كبار رجال الإسلام ، واستهواهم الثراء وحب الاقتناء . وكان عثمان كأحدهم ، لولا أنه يملك مفاتيح بيت المال فيستطيع متى شاء أن يهب بيمين وشمال . وكان سخياً حيياً ، ما قصد إليه امرؤ إلا أطلق له كفه ... غير أن الحياء والسخاء كليهما كانا عون أهله عليه ، ووسيلتهم إلى قلبه الرقيق ... وهل يسعه أن يرفض لهم حاجة وقد اتخذهم من دون المسلمين بطانة وأعواناً يسندون ملكه ؟ .

إنما وسعه أن يغدق عليهم من الأموال ما جادت به أريحيته وتسامى إليه كرمه . ولكنه فى البذل لهم لم يكن مسوقاً بسجيته السخية بقدر ما دفعته ظروف الأحوال . . . كان يعلم حق العلم أى الرجال بين الناس كان ذووه ، وأى المنازل نزلوها فى قلوب شعبه ؛ وبأى النظرات كانت تراهم عيون الأمة . . . ما من واحد منهم إلا تهامست به الألسن اللاغطة أو اقتحمته الأبصار وثارت به القلوب النقية الصافية والعقول الذاكرة الواعية . . . كانوا فى الناس ذوى ماض مشوب السيرة

معتكر السريرة . وحتى الذين كانوا من بينهم أنتى صحيفة ، لم تكن الأذهان قد نسيت أنهم أرغموا على اعتناق دين الله فدخلوه وأعناقهم تحت ظل السيف ، وأن قلوبهم لم يعمرها الايمان أو يعلق بها إلا بعد أن تألفها رسول الله بالأعطية والهبات حتى لايحملهم ضعف نياتهم على أن يمالئوا عليه الكفار . وكان محمد — العارف بطوايا الأنفس وأهوائها — يقول فيهم ، وفيمن كانوا على غير غرارهم ممن آمنوا ابتغاء مرضاة الله :

« إنى لأعطى قوماً أتألف ظلعهم وجزعهم ، وأكل قوماً إلى ما جعل الله فى قلوبهم من الخير والغنى . »

ولعلنا فى هذا المقام يحضرنا كيف وجدت الأنصار أن رسول الله يعطى بعض قريش — وفيهم ابو سفيان بن حرب وابناه معاوية ويزيد — ما غنمه فى حنين ، فتقدم إلى أنصاره معاتباً يقول :

« أوجدتم يامعشر الأنصار فى العلالة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا؟. »

هؤلاء المؤلفة قلوبهم كانوا خير بنى بيت عثمان وكلهم تأخر عن الإسلام إلى أن وضحت فى الأفق شمس نصره . وإن منهم لمن تخلف عنه — حتى بعد أن فتحت مكة أبوابها لمحمد بغير أداة حرب — وقام تدفعه الجهالة وسوء تبصره بالأمور إلى إشهار سيفه فى عصبة من موتورى الكفار . ذاك كان يزيد بن أبى سفيان : حسب أن قد آن له أن يمنع بلدته ، فما وقف حتى وقع فى الإسار .

وكانت هناك أيضاً بقية منهم فيها عمه الحكم بن أبى العاص الذى خاض فى رسول الله من فحش القول والإشارة بما لم يغفر له بعد إسلامه ونفى من أجله إلى الطائف لا يبرحها بأمر رسول الله . وظل عنفاه بعهدا فى عهد أبى بكر وإن شفع له لديه عثمان . فلما استخلف عمر ، ومشى إليه عثمان ثانية بالرجاء ، نهره وقال :

« يخرجه رسول الله وتأمرنى أن أرده ؟ ... إياك يابن عفان أن تعاودنى فيه بعد اليوم ! . »

ولكنه ما كاد يعتلى مقاليد السلطان حتى أكرم طريد رسول الله ورده معززاً إلى المدينة ومنحه مائة ألف .

وكان فيهم ذلك الفتى ابن أبى سرح الذى أسلم — فيما يبدو — نكاية فى الإسلام ، حتى إذا وكل إليه محمد كتابة بعض الوحى خان الأمانة وحاول أن يبدل ويغير فى التنزيل ، فأهدر الرسول دمه ، ثم عفا عنه عام الفتح واتسع له حلمه .

وكان أيضاً فيهم الوليد بن عقبة الذى عاد إلى رسول الله — وقد كان بعثه إلى بنى قريظة بعد إسلامهم — فزعم أنهم هموا أن يفتكوا به . . . وغضب له المسلمون ، وكادوا أن يشعلوها حرباً من أجله لولا أن تداركتهم آية من عند الله قالت فيه :

« يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » .

واقد حقت فعلا كلمة الله عليه ، لأنا لانلبث إلا قليلا حتى تطالعنا من تاريخ هذا الفتى صفحة ملطخة ، هى الصورة الواضحة لنفسه التى كشف عنها القرآن الكريم قبل كثير من الأعوام .

* * *

هذه ألوان من أسرة عثمان انعكست عليها عواطف شعبه منذ اليوم الذى تملك فيه أمور الناس . . . وكان رجلا يجتمع فى قلبه إلى جوار طيبته حبة بيته ومنه كل أولئك الذين أبت عليهم أقدارهم إلا أن يذهبوا فى التاريخ مثلا حية لعداوة الإسلام قبل أن تقهر نفوسهم على الولاء له . ولم يكن هذا بالعجيب منهم وهم أمويون . ولكن العجيب أن ينشأ من بينهم عثمان السمح ذو النورين . . . فلما استطاع أن يوليهم منة لم يحجم أبداً ، وتقدم راضياً بمنحهم من خيره وفضله . وما أحسبه قد خالف طبيعته البشرية إذ فعل ، ولكنه استجاب لها . ولمن كان مثله ، تقدم به العمر ووهن قوى ، وأوشك أن ينوء بمظم الأمر الموكول إليه ، أن يؤلف حوله بطانة تشدد

عزمه وتحمل عنه بعض وقره . . . وأوفى الناس له بلا ريب هم أدنى الناس إليه . فلما علمهم موسومين بشبهات ماضيهم ، رأى أن يعوضهم عن حسن السيرة بحسن المظهر امله مستطيع بهذا أن يبهر النظرات الشزراء التي عهدها تقتحمهم من قبل . ولقد يكون المجد العارض مغنياً عن نقاوة السمعة بعض غناء ، والثروة السابغة مدعاة للتوقير والاحترام .

غير أنه نسى فى هذا أن الشعب الحانق على تفضيل السابقين إلى الإسلام فى العطاء لا يستطيع أن يغفر تفضيل من لهم تاريخ معلوم فى عداء الإسلام وإن كانوا أهل بيت عثمان . . . ولكنه كان رجلا كلفاً بذويه . لا يقدر — لفرط حبه إياهم — أن يتبين خطأ فى منة يعدهم بها ويرفع من مقامهم بين الناس . وكانت نفسه السخية تحبذ لديه الكرم حيثما اختلف وضعه . ولوصله قرابته بر يقبله الله ! .

كذلك كانت نظرته كلما اغترف من المال فغمر به ذوى قرباه . وبهذا جرى فى خاطره رأيه فاقتنع به أشد اقتناع . وكان عسيراً عليه أن يقلع عنه وإن عاتبه فيه صحبه ولاموه عليه . . . مشى إليه ذات يوم على بن أبى طالب ومعه نفر علموا أنه وهب أحد ذويه مائة ألف فعاتبوه فأجاب .

« إن له قرابة ورحماً » .

فأنكروا عليه حجته وسألوه :

« فما كان لأبى بكر وعمر قرابة وذوو رحم ؟ . »

قال :

« إن أبا بكر وعمر كانا يحتسبان فى منع قرابتهما ، وأنا أحتسب فى إعطاء قرابتى » .

فقاموا عنه غاضبين وهم يقولون :

« فهديهما والله أحب إلينا من هديك ! . »

٥

بدا عثمان كمن حرص على أن يعمل جاهداً لتزيد هوة الفوارق بين الطبقات اتساعا فى وقت دعت الحكمة فيه إلى محوها أو تضييقها فى القليل . ولكنه كان يحمل فى صدره قلباً لا تنعكس عليه مشاعر شعبه ، قد ملأه حب ذويه حتى لم تبق فيه سعة لغير الكلف بهم ، والفناء من أجلهم وفيهم . وكانت له عين تقصر عن الرؤية إلا لمدى معلوم ، لأن آله وقفوا يحجبون عنها بأشخاصهم وهيا كلهم ما وراءهم من أبعاد ومسافات . وكان عقله بعد هذا عقل شيخ . فقد مزية الصبر على معالجة ما يعرض له من أمور ، وكل فآثر أن يستعير منهم الرأى والفكرة .

وفى الحق لم يكن الرجل فى ثانى شطرى عهده إلا ثوب عثمان وذهن مروان ... أينما خطر أمام الناس رأوا الأمير الشيخ ، فإذا عمل بدت فى العمل آثار المشير الشاب .. حتى الكلام لم تكن له سبيل إلى اختيار ألفاظه كأنما كان يلقنه قبل النهوض له . أو كأنه الستر الذى يتحدث من خلفه مروان . وإنه لمن الإجحاف بحق الخليفة الثالث أن يؤخذ بجريرة كل ما نسب إليه إلا إن تركت اليد الجانية وحوسب عنها القفاز .

كان مروان بن الحكم بن أبى العاص هو الحاكم الحقيقى للدولة ، والحاكم أيضاً لحاكم الدولة ! . وكان ابن عمه فى يده ملهاة ، أضرت به طيبة قلبه وسلاسة قياده . ولكن الشيخوخة تقتل العزم ، وتطفىء جذوة التوقد فى العقل والحمية فى القلب . وعسير على من بلغ سن عثمان أن يظل معافى فى كلا الذهن والبدن ، وأن يملك نفسه أن تلين لضغط من كان أشد مراساً منه .

ولقد عرف مروان من قلب الشيخ طوية سليمة ، فلم يعجزه أن ينفذ منه كما ينفذ شيطان ... ولعله ظل طوال النصف الأول من عهد عثمان يحيك خيط شباكه فبقى هكذا فى الخفاء لا يسمع بسطوته الناس . ولكنه كان

متربصاً لوقته ، متحيناً للفرصة التي آمن أن لا بد سيثمرها دأبه . وما دام أمير المؤمنين كلفاً بأهل بيته ، قد أوسع في قلبه لهم ، وغمرت مكارمه البعيد والقريب منهم ، فليكن إذن مروان من الأدنى أدناهم . وليتقدم إلى ابن عمه بما يقدمه على كل أولئك الرهط المتهافتين على ابن الشيخ تهافت الفراش على النور والنحل على الزهر . . . وهل هناك أجدى عليه من زواج يزيده بأمير المؤمنين توثق صلة وعلو منزلة ؟

ومن اليوم الذي زف فيه إلى أم أبان ابنة عثمان أخذ نجم ابن طريد الرسول يعلو في حكم الدولة . وراح الناس يتطلعون إليه تطلعهم إلى مالك أقدارها المتحكم في مصايرها . ولو كان كيساً لم يركب شططه ، لوسعه أن يصلح ما أفسد الزمن من سلطان صهره . ولكنه كان مفتوناً بالصلف ، مستبد النزعة ، يثيره النقد حتى الحاقة ، ولا يدفعه إلى معالجة الخطأ بقدر ما يدفعه إلى الإصرار عليه . وهذه صفة كانت علماً على سياسته التي أغرى بها عثمان حتى أورده حتفه .

وكأنما كان الرجلان كفتي ميزان ، رجحان الواحدة على حساب الأخرى ... فكلما زادت شوكة المشير ، وهنت هيبة الأمير ، وأخذ ما بقي له من إجلال في نفوس شعبه يذهب بدداً ... ولو أن عثمان كان أنفذ بصيرة وأقوى على اكتناه نتائج الأمور لاستطاع منذ هذا الزواج أن يأخذ حذره ويتبين موقع قدميه . ولكنه كان ينظر بغير عينيه . وكان كلفاً بمروان مفتوناً أشد افتتان ، لا يطيق أن يسمع فيه كلمة حق وإن جاءت على لسان من لا تعلق به شبهة .

وكان قد منح زوج ابنته يوم عرسه مائتي ألف من بيت المـــال سوى ما كان قد أقطعه إياه من قطائع . فلما أصبح ، جاءه مع الصباح زيد بن أرقم خازنه ، حزيناً يشرق بدمعه يرجوه أن يقيله .

استغرب عثمان غاية استغراب من البكاء والرجاء وراح يحدس في ذهنه الدافع الذي حدا بعامله أن يترك عمله ، ويتوسل إلى الإقالة باعتصار عينيه .

فلما أعيي ذهنه أن يقع على سبب واضح معقول ، واستوضح الرجل وعلم سره، بلغ به العجب مداه .

وقال أخيراً محيراً ، بعد أن ألقى زيد إليه بما فى نفسه :

« أتبكى يا ابن أرقم أن وصلت رحمى » ؟ .

فأجابه خازن بيت المال بلا موارية ولا إخفاء :

« لا يا أمير المؤمنين . . ولكن أبكى لأنى أظنك أخذت هذا المال عوضاً عما كنت أنفقته فى سبيل الله فى حياة رسول الله . . . والله لو أعطيت مروان مائة درهم لكان كثيراً » !

فأغضبته هذه البادرة أيما غضب وصاح محنقاً بالناصح الأمين :

« ألق المفاتيح يا ابن أرقم فإنا سنجد غيرك » ! .

* * *

على أن هذه الواقعة لم تكن إلا حلقة من حلقات سخاء عثمان ، وحرصه على أن يتخم آله بأسباب الجاه . . فحيثما جرت العين فى سطور تاريخه رأت إغراقاً فى البذل تكاد أن تحسبه من خيالات الأوهام . حتى فى بدء حكمه — فى ذات اليوم الأول لخلافته ، منح أبا سفيان شيخ بنى أمية مائتى ألف درهم ... ففيم هذا الكرم المغرق العجيب ؟.. وهل كان أداؤه لسبب معلوم؟.. لعل الرجل كان يلبى نفسه المطبوعة على الأريحية ! . . لعله — على حد قوله — آتى المال ذوى قرباه زلفى إلى الله ! .. لعله كان يستجيب لهذا أو لذاك من الدوافع الشخصية . ولكن المنافح من أجله ، المدافع عنه ، سيعييه لا بد أن يقع فى حياته على جواب واحد يشفع له ويقوم مقام أوهى الأعذار .

أما الناقد المناهض فيسير عليه أن يثبت له . وأن يجبهه بكل صنوف الاتهام . ألم يكن هذا الإنفاق فى غير وجوه الاصلاح العامة إلا عبثاً كاملا بالأموال ؟ .. وهذه الآلاف المبذولة — إن عرف جدواها على بنى أمية فما جدواها على الأمة الإسلامية ؟ .. وما للشعب ولأم أبان يتزوجها مروان —

ولعائشة أختها يتزوجها الحرث أخوه فيجزل الأمير للرجلين العطاء ويمهرها كأغلى ما تمهر النساء ؟ . قد كان عثمان غنياً حقاً يسعه أن يبذل العون لأهله ، ولكن أى ثروة هذه التى تحتمل توزيع مائة ألف دينار على الحكم بن أبى العاص ورجال بيته ، ومائة ألف ثانية على بنى عثمان ، ومائة ألف ثالثة على بنى أمية وآل أبى سفيان .. ثم غير هذه المئات المؤلفة على البقية الباقية من أسرته الوفيرة الفروع والأفراد ؟ .

هذا الإغراق فى السخاء كان حرياً بأن يشكك فى الأمير شعبه الفقير ، ويضعه من العيون الفاحصة فى نطاق الشبهات ، فما كان للطبقات المتربصة لأخطائه أن تصدق أن نصف هذه المنح المبذولة — فى القليل — لم يكن من بيت المال ، وأن ثروته القديمة ، التى أنفق جانبها الأكبر فى الكفاح لنشر الاسلام ، تحتمل أن تبقى فيها بقية تفى بكل هباته الجديدة .. ولعل أولئك المستريبين فيه لم ينسوا أن عطاءه طوال حكم عمر ، وكان لا يزيد على خمسة آلاف درهم فى العام ، لا يمكن بحال أن يبلغ جزءاً واحداً من مائة جزء مما وسعه إنفاقه على ذويه .

ولكنها سياسة اختطها الرجل لنفسه والتزمها أشد التزام . إذا وزنها الفاحص المتريث أعوزه أن يتلمس لها المعاذير وإن كان لا يعوزه أن يقدر دوافعها ونتائجها فلا يخطىء فى التقدير .. ولئن غابت عنه دعوة أبى سفيان لذويه — يوم استخلاف عثمان — أن يجعلوا الإمرة ملكا تتوارثه الأسرة ، فليذكر إذن هذه الدعوة الآن .. وليعجب أكانت إيحاء خفياً من شيخ بنى أمية رسب بواعية الخليفة الثالث ، ثم طفا آونة فى صورة جود يزرى بكل جود ، وثانية فى مظهر جاه يعز على النظائر والأشباه ! .. ثم ليسأل من بعد هلا يفىء المال منعة وقوة ، وهلا تفىء القوة سلطانا وسطوة ؟ .

٦

إنه الأمس فقط .. الأمس القريب الذى لم يكد ينطوى فى ألفاف الماضى إلا من قليل وإن بقى ذكره حاضراً فى أذهان الناس لا تغب آثاره .. وإنها الدعوة أيضا .. الدعوة السافرة الجريئة التى حاولت كلمات الخليفة المستنكرة أن تلفها فى غلالة تخفيها ، فجاءت الغلالة رقيقة رقة نفسه ، شفافة أبدتها على هيئتها الأولى ، كما أرادها صاحبها الداعى بها : شيخ قريش .

أجل إنه الأمس الماثل والدعوة السافرة . كلاهما له فى نفوس الناس أثر عالق لم يعد الزمن إليه يداً لتمحوه بقدر ما كان يعدها لتثبته أو تضيف إليه . فما من رجل فى الأمة كان يرى الخليفة مرة إلا ذكر الواحد وذكر الثانية . . الأمس يتجدد فى كل نهار ، والدعوة يعلو صوتها كأنها تخرج لتوها من بين شفتى أبى سفيان كلما رأى الناس جديدا من فعال عثمان .

كان العصر كله يوما واحدا ، هو اليوم الأول لخلافة الشيخ الأموى ، يتكرر مع الصباح ولا يتغير ، كالصور الشتى لأصل معلوم ، وكان موسوما بسمات طبعها عليه الماضى قبل أن يطبعها الحاضر . ولو استعان المرء بخياله لهل حواسه على استخلاص صورة جامعة عنه ، لوسعه أن يراها فى ذلك المنظر الماثل فى الذهن وإن غاب عن العين ، بدار عثمان يوم استخلافه ، وقد اجتمعت شرذمة من أسرته يهيب بها شيخها وبالخليفة الجديد :

« يا بنى أمية .. تلقفوها تلقف الكرة . فوالذى يحلف به أبو سفيان ، ما زلت أرجوها لكم ، ولتصيرن إلى صبيانكم وراثة ! .. »

هذا المنظر القديم هو الصورة التى تحمل فى معالمها كل دقائق العصر . بل هو — فى الحق — الصورة المتكررة لكل أيامه حتى لكأن أبا سفيان كان يقف نفس موقفه هذا فى كل صباح ليدعو بدعوته .. بهذا تحدثت الوقائع من بعد كأنما لسان ابن حرب كان لها لسان حال . وبه تكلمت

الأحداث التي تلاحقت دراكا . فمـا مر يوم واحد من حكم السليل الأموى إلا وفى ثناياه دليل بالغ على التزامه النهج الذى رسمه سيد قومه . ولا جاءت لحظة إلا حملت منه الولاء لدعوة شيخه غاية الولاء .

ضرير بنى أمية دعا ، وأمير بنى أمية لبى .. ولا عبرة بعد هذا بما كان من استنكار الثانى بادىء الأمر للدعوة .. وإنما العبرة بأنه احتذاها خطوة خطوة ! .

* * *

بدأ عثمان — أول أمره — كمن أنكر على أبى سفيان دعوته السافرة إلى احتلاب السلطان ، وإلى تبديله من خلافة شورية إلى ملك متوارث فى بنى أمية .. ثم فعل كمن غلبته تلك الدعوة على عزمه .. قد كان حقا رجلا رخواً لا يملك أن يسوس نفسه ، ولكن عوامل كثيرة أخرى تضافرت عليه فسلبته حتى القدرة على الاستمساك بإنكاره . وقهرته — حتفت أنفه بغير افتراض — على سلوك الطريق المؤدية إلى تحقيق مطامع الأمويين .. هذه الأسرة الحالمة بالمجد منذ عبد شمس ، الطامئة إلى السيادة فى شخص أمية ، الساعية بسيف أبى سفيان وحقده لهدم كل سلطان يبزها ولو كان سلطان الدين ، قد آن لها أخيراً أن تشبع نهمها من السطوة والسيطرة والنفاذ .

فى كل فعاله كان عثمان يسير على غرار معلوم .. لكأنما كانت تدفعه دائما تلك الكلمات القلائل التى نطق بها يوم الاستخلاف شيخ الأمويين .. أو لكأنما كان أبو سفيان على أذنه يوسوس له قبل كل عمل يأتيه .. أم هو يا ترى نداء الماضى أيضا كان ينفذ إليه من خلال الأجيال ؟ .. إن الوراثة أخيراً قد قهره سلطانها الغلاب ، وإن الدم الأموى قد اقتضاه ضريبته الواجبة الأداء .

ولقد استجاب الرجل لنداء الماضى ، ولان لسطوة الوراثة ، ودفع ضريبة الدم .. إنه أموى المولد أموى التكوين ، موصول قلبه بأهواء

أسلافه ... وإذا كانوا جروا من قبله أشواطاً فى طريق السيادة ، ووقفوا طويلا ينافسون المجلين عليهم فى الميدان ، وأمعنوا فى منافستهم حتى ناجزوا فى محمد نفسه ســـلطان السماء ... إن كانت قد ركبت بهم تقوسهم كل هذه المراكب ثم قهرهم زمانهم على النكوص والتخلف ، فإنهم إذن اليــوم قد أوشكت شمسهم على البزوغ . وأوشكت أحلامهم العريضة الموءودة أن تجد لها منفذا إلى الحياة بعد أن أصبحت فى يد أحدهم دولة عريضة تكاد ألا تحـدها حدود .

عثمان أمير المؤمنين قد استتب له أمره ، وانقاد له الناس ، وألقت إليــه بطاعتها الأمصار . . . هذا الأموى أصبح الآن أمامه حقيقة ما كان أمية يرنو إلى بعضها بعين الخيال . تجمعت بين أصابعه خيوط يحرك بها دولا وشعوباً كيفما يشاء .. دانت له الرقاب ، وعنت الوجوه ، وسالت تحت قدميه الأموال .. إنه ليس بالطامع الذى يستذله الشره ، ولا بالمفتون بالجاه ، ولا بالنهم إلى عرض الحياة . إنه كان تقى القلب ، صافى السريرة ، نفسه غير مشوبة بسواد الأحقاد . إنه لم يكن مغرقاً فى الأموية كبقية الأمويين ! .. ولـكنه مع ذلك إنسان كغيره من الناس ، له طبيعة بشرية ، ودم حنان ، وعرق دساس .

هذه كانت وحدها أداة عثمان إلى تحقيق أهـداف أسرته . هذه الحوافز النفسية كانت هى الأداة . . أما هو فلعله أنكر دائماً بظاهر عقله — كما أنكر بلسانه — أن يقر لهم بحق واحد فى بلوغ هذه الأهداف . ولـكن العقل الظاهر فى مثل هذه الحالات جدواه قليلة . . معدوم الحيلة . والـكلمة النافذة فى النهاية ليست لمنطق اللسان ، بل لتلك القوة الدافقة الدافعة . . للعقل الباطن والواعية التى ليس لصاحبها عليها سلطان .

الحوافز النفسية دفعت عثمان للسير على غرار معلوم . وتحت ضوئها الساطع يستطاع فهم كل أخطائه . . هو لم يعرف مطلقاً أنه أخطأ ، ولم يقر على نفسه

بوزر ارتكبه لعمل أتاه . . ذلك لأنه كان يعمل دائما بحسن نية . أو كان حقا لا يعمل بنية مبيتة — على الإطلاق .

كذلك سار الرجل طريقه ، مقودا بزمام نزعة قديمة كالغريزة ، انتقلت مع الأجيال الأموية المتعاقبة فى عروقه وجرت دما قانيا لا يغيض . وراح بإملاء هذه النزعة يسود أهله ويرفعهم عاليا فوق رقاب الناس ، ثم لا يعدم — لو وقف موقف لوم أو موقف حساب — أن يتلمس لنفسه المعاذير فلا يعييه أن يقع عليها فى حسن اضطلاع بالأمور فضلا عن صلة الرحم وقرب الأنساب .

وكما سبق أبو سفيان بقية أهله إلى سخاء الخليفة وبره حتى فاز منه بأول هبة أخرجها يوم الاستخلاف ، كذلك كان هو أول من أفاد من أسباب النفوذ حين شاء عثمان أن يمكن لآله فى السطوة بعد الثروة . . فلم يكد يمضى عامان من حكمه حتى ارتفع نجم معاوية بن أبى سفيان فى الأفق ولمع . . وغدا ، بعد عامل لعمر على دمشق والأردن ، أميرا للخليفة الشيخ عليهما وحمص وقنسرين وفلسطين . واجتمع له بهذا حكم الشام كخطوة ثابتة إلى امتلاكها وامتلاك الدولة كلها بعد أعوام .

ثم سار الخليفة يذرع بواعيته البلاد فيقيم عليها هنا وهناك عمالا من ذويه ، ويضع فى أكفهم صوالج السلطة . وأخذ أفراد الأسرة الكبيرة ينتشرون فى الآفاق أمراء من لدنه على الرعية والجند ، يمسكون بالزمام فى البصرة والكوفة ومصر وغير هذه من بلدان . ولم يمض سوى قليل حتى قفز إلى أماكن الصدارة أمثال ابن عقبة وابن عامر وابن أبى سرح وسعيد ومروان ممن كانوا إلى عهد قريب بين صوف الأحلاس ومغمورى الناس .

وكذلك مكن عثمان لأهله فى الدولة ، ومكن بهذا لدعوة شيخه الضرير أن تتحقق . . وأصبحت البلاد فى أكفهم كذبابة أوقعها سوء الطالع فى نسيج عنكبوت ! . .

٨

كيف مضى الزمن والرجل حبيس هكذا بين أسوار تفكيره الخاص ؟ كيف ظلت غشاوة الأثرة على بصيرته لا تنجاب أبدا ؟ . . كيف عاش أيام حكمه كلها فى عالم لا يكاد أن يسمع فيه سوى رغبات أقربائه ؟ .

ليس عجبا أن يبقى عثمان طوال عهده مفصولا بينه وبين شعبه لا يتبين شيئا من مشاعره نحوه ما دام أفراد أسرته كانوا الترجمان غير الأمين لتلك المشاعر . هذه الشرذمة لم تصدقه مطلقا القول ، ولم تنفرج شفاهها المتحدثة عن كلمة واحدة تنبه ذهنه ، ولم تشر أصابعها مرة إلى موطن الداء . . . كل ما أخذوا به نفوسهم كان إخفاء الحقيقة عنه ، وتغطيتها بستار كثيف من التمويه والزور . وكان الرجل ، وقد أولاهم ثقته ، يسمع بآذانهم ، وينظر فلا يرى بعينيه ! .

وكانت صوالحهم هى وحدها أسمى الأهداف . وكانت غاياتهم ركوب هام الناس والنفوذ إلى المآرب من أى سبيل . . أما هو فكان ساذج القلب ، بريئا كالزهرة ، يعيش فى نطاق مضروب حوله من النحل ! . . وكان أيضا له سن شيخ وسريرة طفل . يلهبه الغضب ثم يرده الترضى إلى طبيعة اللين والاسترخاء . فإذا أوشكت تيارات العواصف الشعبية أن تهددهم فى أغراضهم أحيوا فيه حدة الشيخ وغضبته الفوارة على كل قائم أمامهم بالمناجزة والكفاح. وإذا هدأت العاصفة ومرت فوق رءوسهم بسلام فالطفل الكامن فى نفسه كفيل بأن يؤتيهم من الخير كل ما يطمعون فيه ما استطاعوا أن يمسحوا على شعره بكف الملاينة والاسترضاء .

هذه هى الخطة التى التزمتها الأسرة ، والتزمها — أشد التزام — مروان ابن الحكم حيال عثمان . وبها استطاع ابن الطريد أن يملك وحده نواصى السياسة فى الدولة ، وأن يتحلب حكمها ويفرض نفسه فرضا على فكر الحاكم .

لم يكن فحسب مشيرا للأمير ، ولا وزيرا ينصاع لإرادته ويعمل وفق أمره ، ولا أداة يستعين بها عثمان على إنجاز ما يريد ، ولكنه كان أولئك جميعا فى حساب المظاهر ، وكان أيضا الأمير فى حساب الواقع الصريح السافر ! .

وكان امرأ لم يعوزه الخبث إلى جوار الشره وبعد الأهواء ، يحرك بأصابعه الخيط فى الناحية التى تمليها عليه شهوته ، ويعمل دائما وهو محجوب عن الناس بهيكل الخليفة الشهخ فيبدو العمل ويبدو عثمان فى آن . مثله بلا ريب كتلك الهوام تخفى النور وتدب فى الظلام . الخفاء كان ميدانه ، والدس سلاحه ، والتمويه مركبه إلى هواه . أفلا يشى كل هذا بجبن طبعه ؟ .

بلى قد وشى وانحسر الستر ! . . . ولكنه استنهض خبثه وراح يجيش كل ما استبطن من خبيء نفسه ليستعين به على المحنة . . فى بادىء الأمر قبل أن يدلهم الخطب كانت الكلمة الواحدة يوسوس بها للخليفة كفيلة بما يريد . ولم يكن التذمر إذ ذاك يعدو تهامس الناس ببعض أخطاء عثمان، أو تناولهم — فى كثير من الحرص والتحرز — فماله النابية ببعض الاستنكار . . ولو أن مروان كان حقا وزير صدق لوسعه أن يتدارك الفتنة ، وأن يكشف مخلصا عن مكمنها ثم يشير على ولى نعمته بالعلاج الحاسم . ولكنه كان امرأ جبان الطبع، لا يستطيع أن يواجه الحقائق فاستمان دائما على الأزمات بأسلحة الظلام .

سل الدس والخداع والوقيعة ، ومشى بين الخليفة وبين شعبه ، يرسم الحوادث وفق هواه ثم يثير كافة العوامل النفسية التى تضطرم بها دماء الرجل. استغل فى عثمان بره بأهله فصور له كل ناقد فى صورة ناقم عليه هذا البر ، حاسد أهله ما أصابوا من خير . واستغل فيه ضيق الخلق الذى يلازم الشيخوخة فأوغر صدره على كل من مشى إليه يرجو الإصلاح أو يطلب الإنصاف. واستغل فيه تشبث الشيخ المهيض بما فى يده من سلطان — وطبائع الشيوخ أدنى إلى طبائع الأطفال — فلون له من عارضه من الناس بلون الساخط الملول ، يتعجل

نهايته أن تحين وحكمه أن يزول . حتى طيبة نفس عثمان وحلمه استغلهما هذا الباغي وجعلهما في عين الشيخ ذريعة الناس إلى الاستهانة به والجرأة عليه .

كذلك لم يبق في الأمة رجل مشى إلى الخليفة بكلمة نقد إلا ألبسها مروان ثوب باطل . ولا دعوة تحدثت بها الشفاه إلا حاول خنقها قبل أن تذيع . وكان يستلهم دائماً نفسه فيسعفه خبثها بالذرائع والأسباب ، ويمده جبنه بألف وسيلة للمناهضة والكفاح . . . ولم يكن في هذا بحامي الخليفة ولا بالذائد عنه بقدر ما كان ذائداً عن جاهه هو وعن سلطانه . قد علم في قرارته فيم كان تذمر الشعب وإلى أين تؤدى به استجابة رغباته وأساس الاستنكار دائماً كان الترف الذي غرق فيه أهل بيت عثمان ومن لف لفهم ، وما جره الترف على بقية الأمة من الفاقة والحرمان .

حارب مروان النقد ليدافع بهذه الحرب عن نفسه ، وحاول خنق حرية الرأى لأن حياته الناعمة وحياة آله لا تكون إلا في ظلام الاستبداد . ولو استطاع لقطع ألسنة الناس ليأمن سماع ما فاضت نفوسهم به من الشكوى المرة . غير أنه بقليل جهد أمكنه أن يجعل الأمير مؤمناً أشد الإيمان بأساليبه يقره على انتهاجها بغير توان . . هو حقاً لم يبد للعيان في صورة المناجز . ولكنه اتخذ من عثمان ستاراً توارى خلفه . وما أحسب خطأ واحداً من أخطاء الشيخ إلا وفيه آثار واضحة من أصابع ابن الطريد .

وهكذا مضت الأيام والخليفة الشيخ غافل ، لا يستطيع أن يمد بصره لأكثر من نطاق داره ، ولا أن يرهف أذنه للصيحات التي جاءت تترى من هنا ومن هناك . فإذا رأى فحديث آله أصدق عنده من رؤية عينه ، وإن سمع فتفسيرهم لما صك سمعه هو إذن محور السماع . . . خشي معاوية أن تفسد عليه دعوة أبي ذر شعبه وتبتزه ما هو فيه من رفاهة واستبداد بأموال الناس يحتجنها أو يصرفها كما يشاء فكتب إلى الخليفة يقول :

« إن أبا ذر أعضل بي . . . وقد اجتمعت إليه الجموع ولا آمن أن يفسدهم

عليك . فإن كان لك فى القوم حاجة فاحمله إليك » .

فكأنه لم يخش من الداعية الزاهد إلا أن يفسد الأمر على عثمان . وكأن خوفه هو منه على نفسه لم يطف له ببال .

ومع ذلك فإلى أين أدى به هذا الصوت الداوى الذى ملأ كل الأسماع؟.. وكيف تلقى الدعوة التى جاءته من الشام عبر الصحراء ؟ . . ولأى مدى استوعبها قلبه وتفكر فى قيمتها ذهنه هو العالم بأن صاحبها ما كان لينطق عن هوى أو ليدعو بها لغير وجه الحق الواضح المبين ؟ .. عجب أن ينسى عثمان كل هذا ويذكر فحسب — كما ألهمه معاوية — أن أبا ذر أراد أن يفسد عليه الناس ! .

ولكنه كان قد أولى آله ثقته . يسمع بآذانهم . وينظر فلا يرى بعينيه .. ولو مشى إليه بالشكوى آلاف الناس لأصم عن شكواهم سمعه ولتناولهم بأغلظ العقاب كما يشير عليه ذووه . . . لا يشفع للشاكى عنده شفيع من حقيقة ماثلة فى شكواه ، ولا من إخلاص وأمانة تنم عنهما كل مراحل ماضيه . وبهذه الروح التى جانبت الإنصاف وواجب الحاكم حيال رعيته ، تناول عثمان كل ما عرض له من نقد أو دعوة إلى إصلاح .

وكذلك راح يناجز المصلحين والدعاة ويقمعهم بسلاح أظلم الطغاة ، لايدع وسيلة من وسائل النكال إلا ركبهم بها عسى أن يقهرهم بالظلم على الإقرار بالظلم . . . حتى ذلك الصحابى الجليل لم يسلم من يده . لكأنما نسى له عثمان ماضيه وصحبته وعزوفه عن الحياة .. بلى قد نسى — فيما يبدو — لأنه أراد أن يذكر فحسب أن أبا ذر — ولمعاوية فى هذا القول الفصل — جأر بدعوته ليفسد عليه الناس .. ألا فأين الصواب إذن إن لم يكن فى دعوة هذا الشيخ ، وحضه الموسر على أن يرحم الفقير ولا يكتنز مالا يسعه أن ينفقه من أجل أخ له، وفى سبيل الله ، وعملا بهدى القرآن .

ومع ذلك فلن يعيى طاغية أن يقمع داعية . . . ولن يعجز صاحب طول وسلطان أن يقهر من يريد على ما يريد . . . وإن السلاح فى يديه حاضر ،

وإن البطش لكثير الألوان والأساليب . وبحسب هذا الهزيل أبي ذر أن تبعد داره ويشق مزاره ويوارى وجهه عن الخليفة بأرض فلاة . . . بحسبه أن ينفى إلى الربذة فلا يلقاه الناس عساه أن يموت فيها وتسكن عن ذكره ألسنة الناس !

٨

فيما حدثتنا به الآثار ، أوصى عمر الخليفة من بعده بالمهاجرين الأولين خيراً ، يعرف لهم سابقتهم . وبالأنصار خيراً يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم . وبأهل الأمصار خيرا فإنهم ردء العدو وحياة الفيء .

وأوصاه بفقراء الأمة يأخذ من حواشى أموال الأغنياء فيرده عليهم . وبالعدل فى الرعية لا يؤثر غنيهم على فقيرهم . وبالشدة فى أمر الله وحدوده ومعاصيه على القريب إليه من الناس والبعيد عنه .

ثم أوصاه بجماعة المسلمين أن يجل الكبير ، ويرحم الصغير ، ويوقر العالم . وأن لا يضربهم فيذلوا ، ولا يستأثر عليهم بالفيء فيغضبهم ، ولا يحرمهم عطاياهم عند محلها فيفقرهم ، ولا يجعل المال دولة بين الأغنياء منهم .

ولقد كانت حياة عمر فى ذاتها سفرا كاملا لهذه الوصايا لمن أراد أن يستعين بالأمثال النابضة بالحياة ، ولكننا لا نستطيع — كلما امتد الزمن — أن نرى فى خليفته رجلا يحسن قراءة الوصايا المكتوبة فضلا عن التزامه النهج الذى دعت إليه ، لأن عهد عثمان كله لا يكاد ينبئنا عن هذا بقليل ولا كثير !

خلف الرجل فنأى بجانبه عن المهاجرين والأنصار . وانحاز تحت ضغط عوامل خاصة إلى فئة من أهله مكانهم فى الذيول والأعقاب إذا ذكرت منازل ذوى الفضل من المسلمين السابقين إلى الإسلام . وترك صوالج السلطة بأيدى شرذمة مفتونة من غلمة بيته ينفذون بها إلى استعباد أهل الأمصار . وأوسع

للأثرياء فى رحابه يستظلون بآلائه ويغرفون من نعمائه ، والفقير المحروم مقطوع بينه وبين ماله فى تراث الغنى من حق معلوم . وأرهف الشدة فكانت سلاحاً ذا حدين : واحد قاطع قمع به شكوى المظلوم ، وآخر مثلوم داعب به بغى الظالم، ولا مقياس له عند الحساب غير شريعة الأنساب . . . ثم بدا فى نهاية الأمر كمن آلى على نفسه أن يقرأ وصية عمر فيأتى من بعد بكل نقيض لها ، فآثر الاضطهاد والنكال عند محاسبته ناقديه : يستذلهم وينفيهم ويضربهم ويقطع عنهم موارد عيشهم من الفىء والعطاء كلما جاؤه بنقد أو أرادوه على التزام إصلاح.

كذلك فعل الرجال وكذلك رأيناه . . تحدث أبو ذر بما فاض بذهنه من آراء بادىء الأمر فى المدينة فنبذه إلى الشام . وارتفع صوته هناك لحق الفقراء فى أموال الأغنياء فرده للمدينة شر ردة . وأعضلت به الدعوة من بعد فنفاه بفلاة وفى ظنه أن النفى والتشريد هو السلاح القاطع لألسنة المصلحين ودعوة الدعاة .

وأنكرت فئة من خيرة صحب رسول الله عليه بعض أخطائه فناب عنها لديه عمار بن ياسر يحضه على الإقلاع عما وقع فيه ، ويبصره بالخير فى النزوع والرجوع فلم يلق منه سوى الغضب الذى غلب كل روية والعنف الذى بلغت حدته أقسى التنكيل والإيذاء .

وخالفه ابن مسعود فى رأيه عن جمع القرآن فلم يعالجه بالإقناع أو يصرفه بالمعروف والإحسان ، بل أمر به أن يؤدب لاجترائه فضربه بعض عبيده وضربوا به الأرض إمعاناً منهم فى الشدة عليه حتى كسروا أضلاعه ، ثم لم تقر عين الخليفة حتى أتبع هذا التعذيب بقطع العطاء عنه .

ومع ذلك فإن شبح مروان بدا جلياً فى هذه الوقائع ومثيلاتها من الأخطاء التى علقت بذيل أمير المؤمنين . كان هو القائم على تنفيذ مشيئة الخليفة إذا أخذنا بظاهر الأمور ، ولكنه حقاً كان صاحب المشيئة الغالبة أو منفذ المشيئات على الصورة النابية التى ترضى خيلاءه . . اعترض سبيل

على بن أبى طالب وقد خرج فى جماعة من مريديه يشيعون أبا ذر حين تركه المدينة فى طريقه إلى منفاه ، وحاول بما ركب فى نفسه من طبائع الصلف والغرور أن يبدو فى عين الجمع كأ كبر مما يطيقه وسع ثوبه . . . جلس مزهواً على راحلته ، وركض بها يسبقهم إلى الرجل الذى جاءوا لوداعه ويسد عليهم طريقهم إليه . . . وتخير من بينهم أرفعهم قدراً يوجه إليه الحديث بنبرات جملتها الكبرياء كالإملاء .

قال :

« يا على . . . إن أمير المؤمنين قد نهى الناس أن يصحبوا أبا ذر فى مسيره أو يشيعوه ، فإن كنت لم تدر بذلك فقد أعلمتك ! »

فلم يطق منه على هذا التهديد الذى جمع إلى عنف التبليغ جفوة التنفيذ ، وبادره بالسوط يضرب به وجه الراحلة التى سدت عليه الطريق ، وهتف يقول :

« تنح . . . نحاك الله إلى النار ! »

وتذاكر عمار بن ياسر ونفر من الصحابة ما خالف فيه عثمان من سنة رسول الله فانتهى بهم الرأى إلى كتاب رفعوه إليه . . . فلما دخل به عليه عمار ، قال له الخليفة وهو لا يخفى الاستياء :

« أنت كتبت هذا ؟ »

« نعم » .

« ومن كان معك ؟ »

« نفر تفرقوا فرقاً منك » .

« فمن هم ؟ »

« لا أخبرك بهم » .

« فلم اجترأت على من بينهم ؟ »

قال مروان وقد وجد الفرصة مواتية لإشباع ناحية فى قلبه صديانة للشر والإيذاء :

« يا أمير المؤمنين ... إن هذا العبد الأسود قد جرأ عليك الناس ، وأنك وإنك إن قتلته نكلت به من وراءه » .

فما أسرع أن أقره عثمان على رأيه العجيب البغيض . وتناول عصاه فضرب بها الشاكى . وأعانه على الضرب أهل بيته ومن حضر مجلسه من بنى أمية حتى فتقوا بطن الرجل وألقوه على جانب الطريق — ذلك اليوم البارد المطير — وهو فاقد الرشد بين الموت والحياة . . . كذلك فعل عثمان بعمار الذى جاءه بالنصح فى ثوب شكاة لأنه رأى فى شكواه اجتراء من العبد على السيد يكشف نواحى الضعف فيه ، ولم ير جوانب الحق التى تنطوى عليه المظالم والشكايات فى أغلب الأحايين .

فى هذه الوقائع تبدو لنا من عثمان ناحية أصيلة فى طبعه هى القسوة البالغة التى دعته إلى الإمعان فى النكال : بالتشريد وفتق البطون وكسر الأضلاع وقطع الأرزاق ! .. ولم يكن العنف ديدنه من قبل . ولم تكن الشدة بعض ما جبل عليه . ولكنها كلها صفات مكتسبة وزلات أوقعته فيها مشورات شيطانه مروان — هذا المغرور الذى حفزه مركب النقص على الكيد لكل من هم خير منه وأعلى درجة عند الله وفى عيون الناس .

أما الخليفة فمن حقه على كل ناقد أن ينتصف له ، وأن يرد سهولة انقياده لشرور مروان إلى الشيخوخة التى زودته بفتور الهمة وضعف العزم وخور النفس أمام سطوة مشيره الشاب . . . وما أحسبه إلا كان يندم غاية الندم عقب كل خطأ قسره مروان على اقترافه ، ويود بجدع أنفه أن يعرف السبيل إلى إصلاحه . ولعل موقفه — فيما بعد — من ابن مسعود يلقى ضوءاً على رغبته فى التوبة والنزوع . .

. . . خف إلى الرجل يعوده فى مرضه ، وذابت نفسه عليه حسرات وهو يرى كف الموت تكاد أن تلقفه ، فقال له يواسيه :

« يا أبا عبد الرحمن ... ما تشتكى ؟ »

قال ابن مسعود هادئاً وعينه على السماء :

« ذنوبى » .

« فما تشتهى ؟ »

« رحمة ربى » .

« ألا أدعو لك طبيباً ؟ »

فلاحت على وجهه بسمةساخرة وأجاب :

« الطبيب أمرضنى ! ... » .

فغص عثمان بريقه . وذكر فى هذه الآونة التى تدنى غريمه من آخرته كم كان متجنياً عليه . متحاملا غاية التحامل ، ظالما له حين أتبع إيذاءه إياه بقطع نصيبه من العطاء إمعاناً فى النكال ...

وراح من بعد يحاول أن يصلح خطأه ، فقال :

« أفلا آمر لك بعطائك ؟ »

فرماهابن مسعود بنظرة ثابتة فيهاترفع وإباء وفيهااستنكار وازدراء ، وقال:

« منعتنيه وأنا محتاج إليه وتعطنيه وأنا مستغن عنه ! » .

« يكون لولدك » .

« رزقهم على الله » .

فلما أعيى الخليفة أن يذكر له ما يرضيه نهض عنه وهو يرجو منه العفو ويقول :

« فاستغفر لى يا أبا عبد الرحمن ... » .

ولكن المريض الموتور أباها أيضاً عليه ، وقال عوضاً عن المغفرة والرضا :

« أسأل الله أن يأخذ لى منك حقى ! » .

ومع ذلك فقد حز موته فى نفس عثمان . وآلمه أكثر الألم أن يشيعوه إلى قبره دون أن يؤذنوه بوفاته ليصلى عليه ... ومشى فى هذا إلى عمار بن ياسر يعنفه لأنه أخفى عنه نبأ الوفاة فقال له عمار :

« عهد إلى ألا أوذنك » .

فبان فى وجهه التأثر وغلبه الدمع ... ووقف هنيهة صامتاً بجوار القبر الذى خاف صاحبه الدنيا بقلب ملأ السخط جوانبه على الخليفة حتى أبى له أن يقوم على جدثه بالصلاة .

وتمالك أخيراً نفسه . فراح يترحم على الميت ، ويذكر مآثره بالحمد والثناء ، وقال للحضور :

« رفعتم والله أيديكم عن خير من بقى » .

قال الزبير ساخراً وقد وارى الخليفة عنهم وجهه وغادر المكان :

« لا ألفينك بعد الموت تندبنى وفى حياتى ما زودتنى زادى !... »

٩

لعل مدافعة على لمروان يوم تشييع أبى ذر كانت اليد التى أسدلت حجاباً كثيفاً بين ابن أبى طالب وبين نفس عثمان ... لعلها الواقعة التى ورّثت الأزمة ... لعلها القشة التى رزح تحتم البعير لما أضيفت إلى وسق ضخم كان — لولاها — لا ينوء به ... على أى حال قد بدأ بها العهد الذى انفصمت فيه بقايا عرى الثقة التى كانت تربط من قبل رفيق النبوة بسليل السادة الأمويين.

وكان مروان هو الشخص الذى قطع الخيط الموصل بين الرجلين . وكانت وقيعته هى السكين ذات النصل المرهف الجديد . فلم يكد يعود إلى أميره حتى مال على أذنه . وكدأبه فى أمثال هذه الحالات راح يموه وينمق . ويصب فيها من نزغ لسانه ما يرسم خصمه فى صورة باغ ويصوره هو فى هيئة شهيد . وكانت الوسوسة سلاحاً أعاره إياه الشيطان ، فاستطاع أن يثير به من نقمة الخليفة وسخطه ما رآه كفيلا بأن يأخذ له من على كل ما أقعده الجبن عن أخذه منه ساعة الملاحاة .

وطارت فى القوم غضبة عثمان التى أرثهـا مروان . وبلغهم السخط الذى فارت به نفسه على الغريم المرهوب وما عقد النية عليه من الثأر لصاحبه منه ، فاستقبلوا علياً يقولون :

« ... إن أمير المؤمنين عليك غضبان لتشييعك أبا ذر » .

فهز لهم رأسه وقد بان له هوان السبب ، وأجاب بلا مبالاة :

« غضب الخيل على اللجم ! »

غـير أن الغضب لم يكن — فيما يبدو — وليد الحرص وحده من عثمان على أوامره أن يطيعها الناس ، بل كان أيضاً نتيجـة حرصه على هيبة مروان أن يهدرها على . فما جاءت العشى حتى استقدمه إليه يحاوره فيما كان منه :

«ماحملك على ماصنعت بمروان . واجترأت على ، ورددت رسولى وأمرى؟»

قال على يبين له :

« أما مروان فإنه استقبلنى يردنى فرددته عن ردى ، وأما أمرك فلم أرده»

« أو لم يبلغك أنى قد نهيت الناس عن أبى ذر وعن تشييعه ؟ »

فأجابه وهو لا يخفى عنه الاستنكار :

« أوكل ما أمرتنا به من شىء يرى طاعة الله والحق فى خـلافه اتبعنا فيه أمرك ؟ ... بالله لا نفعل .. »

وكأنما رأى عثمان أن الطاعة التى فرضها لنفسه على الناس لا تكاد أن تثبت أمام حجة هذا المجادل القوى البرهان ، فسارع يسد الناحية الخطرة ويقول:

« فأقد مروان » .

« وما أقيده ؟ »

« ضربت بين أذنى راحلته ... »

فقاطعه وهو يعلم إلى أين يريد الخليفة أن يسير بالحديث :

« أما راحلتى فهى تلك ، فإن أراد أن يضربهـا كما ضربت راحلته

فليفعل . وأما أنا فوالله لئن شتمني لأشتمنك أنت مثلها بما لا أكذب فيه ، ولا أقول إلا حقاً » .

وأوضح بهذه الصراحة موقفه أجلى وضوح . وتخيرها رداً حاسماً على ما ساف به لسان عثمان حين تحدث للناس بأنه سيعطى مروان حقه من على وينصره عليه . وما نحسب امرأ بظن الخليفة كان من السذاجة بحيث عنى أن يكون القود ضربة سوط يسددها ابن عمه إلى بعير خصمه وينتهى بها الجزاء المطلوب .

هنا غلبت على عثمان حدته وضيق صدره فصاح كاشفاً عن مراميه :

« ولم لا يشتمك إذ شتمته ؟ فو الله ما أنت عندى بأفضل منه ! »

فثار به على :

« ألى تقول هذا القول ، وبمروان تعدلنى؟ ... فأنا والله أفضل منك ، وأبى أفضل من أبيك ، وأمى أفضل من أمك . وهذه نبلى قد نثلتها فهلم فاقبل بنبلك ! »

وكاد الأمران يصل لعقبي غير مأمونة لولا أن جرى الناس بينهما بالاصلاح . ولكنه كان إصلاحاً ظاهره الرضا والقبول وباطنه من جانب الخليفة التحفز للاسترابة أو إساءة التأويل ... عذر عثمان فى هذا ما يكون عادة بين الرجل وبين خصم له عزيز الجانب معدوم العثرات قد أحاطت به هالة من إكبار الناس ... وعذره أيضاً الحلقة المتصلة من ماضيهما يوم تأرجح السلطان بينهما وهمت كفة الغريم أن ترجح لولا عوامل شتى من الأهواء والميول . وللضعيف الغالب حذر دائم يحسه تجاه القوى المغلوب .

ثم شاء القدر أن يمد للخليفة فى حبال التوجس . كان كن وكل نفسه بإحصاء خطوات على بل خطرات أنفاسه . فلم يفته أن يجد فيها دائماً محوراً يدور حوله شكه . وكانت آفته ضيق أفقه عن أن يتسع لفهم مشاعر الناس حق الفهم . وعجزه عن ردها إلى أصولها المنبعثة عنها بعد أن أحالته شيخوخته سطحياً يقيس الأمور بظواهرها دون النفوذ إلى ما عساها قد تنبئ عنه .

أحصى إذن على منافسه القديم خطواته وخطراته . وحكم عليها كما استطاع ضيق خلقه وما أثارته حولها وسوسة مثيرة من شكوك وشبهات ؛ فلم يعدم أن يسيء الظن ويسيء التأويل . وكان يجنح دائماً إلى التفرد برأيه أو الرأى الذى إياه لقن . ويعتقد فيه الصواب بغير تمييز ، ويرى الخطأ فى كل ماعداه . لذلك نجده فى كل خلاف نجم بينه وبين على عن تباين فى وجهتى النظر لا يرى إلا حرباً موجهة نحوه . وفى كل نقد دار حول ما كان يفعله آله يحسب مرماه هدم أولئك الآل وقص جناحيه هو بهذا الهدم . وعسير على رجل هذه طريقته فى تناول النقد وتقبل الآراء أن يحسن الحكم على الأمور أو على الرجال .

ولقد زوده العصر بصنوف شتى من مثيرات الشكوك والمخاوف لأنه كان مليئاً بالكثير الجم من أخطاء آله وما ترتب عليها من استنكار لهجت به ألسنة الناس ومكان على منهم مكان الإمام . فلم تكن الشادة على تشييع أبى ذر ودفعه مروان آخر المشادات ولم تكن أولاها أيضاً . بل سبقتها وتبعتها أنواع تداولت حلقاتها حتى انقضى عهد الخليفة الشيخ على أسوأ انتهاء .

. . . قدم عليه من الكوفة وفد هم صورة لما انطوت عليه جوانح أهلها من السخط على واليهم : أخيه لأمه الوليد بن عقبة . ولم يكن مبعث نقمتهم اليوم ما أصابهم من سوء معاملة الوليد بقدر ما كان باعثه غضبهم فى حق الله . . . فلقد فسق الوالى ، وشرب الخمر بمجلس سمر بدار الإمارة . وخرج تتخبطه النشوة إلى المسجد فصلى الصبح بالناس أربع ركعات . . . كاد أن يتبعها بركعات ! . . .

هذا حدث خطر أنبأت عنه سيرة الأمير العربيد منذ اليوم الأول الذى وطئت فيه قدماه أرض الكوفة . وأنبأت عنه قبلها كلمات الله إذ نعته بالفسق فى آية من آيات الكتاب الكريم منذ قديم . وإن له لدلالته الواضحة أيضاً وضوح على سوء اختيار عثمان ولاته بغير استكناه نفوسهم ،

وكان له فى استكناه النفوس — لو شاء أن يفعل — ميزان سليم ،

ولكنه كان مفتوناً بأهله . معنياً برفعهم إلى النجوم وأن وجد فى ماضيهم ما كان يجب أن يعدل معه عن تفضيل شأنهم على كثيرين بل قليلين . وبحسبك أن تعجب إذ ينسى لكل ذى فضل فضله فى سبيل أن يرفع أهله . . . ولعلك من بعد مغرق فى العجب إن علمت أن هـذا « الوليد » جاء الكوفة بأمر الخليفة ليأخذ إمرتها من يد رجل من خير الناس هو سعد بن أبى وقاص . وليس للوليد عليه فضل معلوم إلا قرباه .

ما لامرىء يريد أن يجيش المعاذير لعثمان فى توليته أخاه يستطيع جاهداً أن يقع له على عـذر مقبول . حتى ولو تذرع عثمان إلى عزل سعد بما كان قد دب بينه وبين ابن مسعود من خـلاف ، فإن ذريعته تلك إن أوجبت العزل فليست توجب التعيين . . . وإنه ليسور عليه إذ ذاك أن يجـد من المسلمين مائة أو ألفاً يصلحون لإمرة الكوفة فلا يقع فى ذيل أسمائهم اسم ذلك الماجن الخليع . . . وإنها لحقيقة قرت فى أذهان الناس أجمعين إذ ذاك حتى قالوا وقد رأوا أميرهم الجديد :

« بئسما استقبلنا به ابن عفان . . . أمن عدله أن ينزع عنا ابن أبى وقاص الهين اللين القريب ويبعث بدله أخاه الوليد الأحمق الماجن الفاجر ! . »

ولم يسعهم إلا أن يقولوا ، وهم يبررون هذا الاختيار أسوأ تبرير :

« أراد عثمان كرامة أخيه بهوان أمة محمد » .

ولئن كان تنصيب الوليد والياً قد أصاب من أهل الكوفة النقمة فإنه قد أصاب أيضاً من نفس سعد غاية العجب والاستنكار .

قال يسأله إذ دخل عليه :

« يا أبا وهب أمير أم زائر ؟ »

فرد الوليد :

« بل أمير » .

فما أسرع أن عقب سعد بجواب تملأه الدهشة والاستغراب :

« ما أدرى أحمقت بعدك أم كيست بعدى » .

ولقد نهج الوليد بالكوفة منحى من الحياة الخاصة كله خلاعة . ولف حوله فئة من المفتونين بالمجون . يقضون الليالى على أشهى ما تستطيبه النفوس اللاهية . ولم يمن مطلقاً بأن يرعى حق المنصب وما يجدر من توفيره له من توقير . ولم يمن أيضاً بأن يرعى حق أخيه عليه . فكان للأمراء أضل مثال ، ولأسرته كلها أسوأ عنوان . وراح يجمع من ضروب اللهو والتسلية بدار الإمارة ما جر عليه السخط والإنكار . وهو أبداً سادر فى غيه ، لا يكبح نفسه ، ولا يحاول أن يستر مساوئه عن العيون . وانطلق يعب من الخلاعة حتى جرأ الناس على مجلسه فاستباحوه . دخل عليه ذات ليلة جندب بن عبدالله الأزدى فوجده قد أنس إلى ساحر اصطفاه ، يلعب بين يديه . ويغر الناس بمكره وخداعه ، فغضب جندب لهذا المجون المرذول ، ومضى بسيفه أمام الوليد فأطار رأس الساحر وقال :

« إن كنت صادقاً فأحى نفسك » .

وكانت هذه الجرأة علامة الانذار للوليد لو شاء أن يفيد منها ، ولكنه لم يرعو عما كان فيه ، ولم يتناول الأمر كله إلا من ناحيته الظاهرة ، فحبس الأزدى لاجترائه حتى فر فيما بعد فكان عليه أشد المؤلبين والمناهضين حتى اقتلع من مقعد الإمارة ومضى على الزمن مثلا ناطقاً لحمق الحكام .

غير أن الذى يدمغه الله لايهديه الإنسان ، بل يظل موسوماً أبداً بفسقه لا يتحرر منه ؛ وتبقى السبة عالقة به ما بقى القرآن الأبدى الخالد البقاء . وكفى بالوليد عاراً أن وسمه الله فى تنزيله ، ثم وسمه من بعد شعر تندرت به المحافل وتناقله السمار ، ونظمه الحطيئة سيد الهجائين فجاء فيه بأقذع الهجاء .

قال عربيد الشعراء فى عربيد الأمراء :

شهد الحطيئة يوم يلقى ربه ... أن الوليد أحق بالعذر
نادى وقد تمت صلاتهم : ... «أأزيدكم؟» ثملا وما يدرى
ليزيدهم أخرى . . . ولوقبلوا ... منه لقادهم على عشر

فأبوا ، أبا وهب ، ولو فعلوا لقرنت بين الشفع والوتر
حبسوا عنانك في الصلاة ولو خلوا عنانك لم تزل تجرى

ومع ما كان قد سبق إلى علم عثمان من سيرة أخيه ، ومن حكم الله عليه ومن خوض الناس فيه ، فإنه عز على نفسه أن يسمع من أهل الكوفة كلمة واحدة تؤنبه بخلاف رأيه الذى يأبى إلا أن يعتقد له الصواب دون جميع الآراء . وبلغ من تعصبه أن سبقت رحمته لأخيه وثقته به الغضبةُ على الرجلين اللذين حملا إليه شكوى الشاكين .

قال لهما — ولم تخف من كلماته رنة سخط مكتوم :

« وما يدريكما أنه شرب الخمر ؟ »

« هى الخمر التى كنا نشربها فى الجاهلية » .

وكأنما رأيا الريب فى عينى الخليفة فأتياه من لدنهما بالبرهان المبين الذى لا يقبل النقض : خاتم الوليد سلباه إياه وهو فى صرعة الخمر غارق لا يفيق .

ولكنه الدليل الذى يفقد قيمته إذا نظر إليه بعين المستريب فى كل ناقد ؛ المسىء تأويل المشاعر والشكايات . لأنها — فى ظنه — لا تزيد عن كيد أريد به أو أريد ذووه . وما دامت الشكوى تمس أهله ، وتعلق أدرانها بأذيالهم فإنها إذن حسد حاسد أو تبييت موتور .

وهم الخليفة من مكانه ؛ وتقدم إلى الشاهدين وعلى وجهه علامات نفور ، ثم دفع فى صدريهما محنقاً وصاح :

« تنحيا عنى » .

وكذلك آثر الشيخ ألا يقصد مقصد الحكم العدل ، وأن يكون سياجاً لأخيه دون القصاص المفروض .

وعجب الناس لموقفه ؛ ولغطت الألسن حتى سمع بالأمر على فأقبل يعاتب الخليفة ويستنهضه أن يؤول إلى الصواب .

قال له وهو يستنكر ماسمعه عنه :

« دفعت الشهود وأبطلت الحدود » .

فأغضى الرجل مهموماً محيراً ، ثم رفع بصره وهو يسأل فى استحياء :
« فما ترى؟ »

« أرى أن تبعث إلى صاحبك ، فإن أقاما الشهادة عليه فى وجهه ولم يدل بحجة أقمت عليه الحد »

فلم ير الخليفة بداً من الأخذ بهذا الرأى . واستحضر الوليد فلزمته شهادة الشهود ، ولم يبق إلا أن يؤخذ منه حق الله .

فى هذه الآونة غلبت هيبة الخليفة شجاعة الحضور فلم يتقدم واحد منهم إلى السوط يجلد به السكير ويقيم عليه الحد . وغلبهم أيضاً حياؤهم أن يضربوا أمام أمير المؤمنين أخاه المذنب ، وغلبهم ثالثة مارأوا فيه الوليد من مذلة وهوان ... حتى الحسين بن على ، حين أمره أبوه أن يقيم على الرجل ما أوجب تلكأ وقال:
« يكفيه بعض ماترى » .

ولكن ابن أبى طالب لم يكن بالذى يعرف الهوادة فى حق الله ، فأقبل والسوط فى يده على الجانى يهم أن يحده . ورأى الوليد الجد فى عين على والتصميم فى محياه ، فساءه منه عزمه ومسارعته لما أحجم الآخرون عنه ، وركبت نفسه ثورة عنيفة من السخط جعلته يسب جلاده ويروغ منه فى أرجاء المكان ، غير أن السقم لم يكن شفيعاً له ولا حائلا دون القصاص لأن ابن أبى طالب ما لبث أن تمكن منه ، وحاول جهده أن يتخلص من القبضة القوية فأعيته المحاولة . وراح يناضل عن نفسه ما وسعه النضال ويضرب بيديه ورجليه كما يفعل طائر أطبقت عليه الشراك ... ولكن ما هى إلا جذبة حتى وقع طريحاً على الأرض وعلاه بالسوط .

وأخذت الشفقة عثمان بأخيه ، وأحنقه هوانه وخزيه قبل أن يوجعه عناؤه وألمه ، فقال بلهجة غضب كأنها عتاب :
« ليس لك أن تفعل به هذا » .
قال على والسوط فى يده يتحرك على جسد الجانى فى صعود وهبوط :
« بلى ... وشر من هذا . إذا فسق ومنع حق الله أن يؤخذ منه » .

١٠

لولا ما انطوت عليه نفس عثمان من تحفز للغضب على منافسه القـديم والنفور منه لأعيى المرء أن يقع فى حياتهما على سبب واحد يوجب المخاصمة والنفور . فنى الواقع لم تكن مثيرات الخلاف بينهما سوى هنات يسع الحليم أن يفسح لهـا فى صدره ، ويسع المنصف أن يراها على هيئتها التى لا تنطوى إلا على الرغبة فى الإصلاح . ولـكن عثمان لم يكن حليما ، أو هو كانه فى زمان مضى قبل استخلافه ثم انتهى أجله بوقيعة الأمويين الذين أجادوا اللعب على أوتار شيخوخته الحادة المزاج . ولم يكن منصفاً أيضاً لأنه آثر أن يسيء الظن فى كل ناقد لم تربطه به من قبل منافسة ، فوسعه أن يسيء الظن فى على آلاف المرات . ولو استقصينا كل خـلاف نشأ بين الرجلين لرأينا الخليفة متجنياً على خصمه فى الاتهام ، جانحاً عن عقله إلى عاطفته ، ميالا عن نهـاه إلى هواه .

لم يكن على وحـده ناقد عثمان ، ولا مخالفه فى النظرة إلى الأمر الواحد ، ولا بالراغب — منفرداً — فى الميـل به عن السياسة التى جرت عليه سخط الأمة . ولـكننا — مع ذلك — نشهد الخليفة يلقاه بحذر ويودعه بحذر ، ثم لا نحسب إلا أنه اتخذ لنفسه شماراً نم عن مدى الضيق الذى خالج نفسه حياله ووضح غاية الوضوح فى كلماته القليلات :

« إنه يعيبنى ، ويظاهر من يعيبنى » .

أجل هذا هو جماع الشعور الذى كانت تنطوى عليه جوانح عثمان . وهو نتاج سوء ظنه الذى أفسد العـلائق بينه وبين على فى وقت كانت أحوج فيه إلى النقاوة والصفاء . ولئن كان أمـير المؤمنين قال قولته تلك حين سعى إليه مروان بالوقيعة يوم تسيير أبى ذر ، فإنها بقيت من بعد علماً على شعوره نحو على واستراتيته فيه . ولـكننا لا نجد علياً جاء الخليفة بغـير ما يجىء به الناصح

الأمين ولا نقده إلا استهدافا لصلاحه فى حكم الناس . لم يجاوز نقده مطلقاً العيب فيه أو الطعن عليه كما جاوز كلام غيره عنه . وبحسبنا أن نراه أقصى عابا فيه من الآخرين الذين كان عثمان يظن انحيازهم له وعطفهم عليه . وليس أبلغ فى هذا المقام من أن نورد هاهنا ما قاله فيه عبد الرحمن بن عوف وقد رأى منه ما أنكره وأنكره الناس .

قال نادما على ما سلف من إدلائه بالبيعة إلى عثمان :

« لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما وليت عثمان شسع نعلى » .

وقال ثانية وهو على فراش الموت وقد شهده يوطد سلطانه بتولية ذويه :

« عاجلوه ... عاجلوه قبل أن يتمادى فى ملكه » .

ولكن عثمان — فيما يبدو — كان حقيقاً به أن يغفر لمخالفيه أجمعين مالم يسعه أن يغفر بعضه لمنافسه القديم وإن كانت محاور الخلاف بينهما لا تعدو — من جانب على — التزويد بالنصيحة أو إزجاء النقد النزيه . ففيم كان شك هذا الشيخ إذن ، واسترابته ، وجريه وراء نفوره لأقصى الحدود ؟ .

لغير سبب معلوم سوى التوجس الذى يملأ قلب الغالب الضعيف من خصمه المرهوب المغلوب ، ولغير ذريعة إلا ما جبلت عليه طبيعة إنسان يخشى على ما فاز به أن يسلبه إياه عزيز مكين . وإن الشك للسياج الوحيد الذى تتحصن خلفه نفوس الضعفاء من قوة الأقوياء .

بهذا يفهم سلوك عثمان ، وعلى ضوئه نرى على أية صورة من الصور كان يتقبل نصح على أو نقده الذى كانت غايته خير الأمة وخير أميرها المستريب فى آن . كان يأتيه بالرأى القويم فى الأمر من الأمور فيرفضه الخليفة ويأباه . وكان يبصره ثانية بالنهج الواضح السليم فلايقره إلا ريثما يستطيع بعد قليل أن يتذرع بتوافه الذرائع التى تحله من هذا الإقرار . وهو فى الأولى قد حفزه على الرفض إباؤه أن يعترف لغريمه بالتفوق ، وفى الثانية يلين هنيهة لضغط الظروف ثم لا يلبث أن تستبد به طبيعة الأهواء والعناد ، وكلا السلوكين فى نهاية الأمر يلتقيان .

وكانت له أيضاً حال وسط بين الحالين ، تلزمه الحجة ، ويقهره المنطق القوى السليم فيصبح نهباً مقسما بين الرغبة فى الاستمساك بمناد غايته خطل ، والنزول على رأى ليس له فى ابتكاره فضل ، فلا يلبث أن يؤثر الأولى ليجنب نفسه الظهور أمام خصمه على هيئتها الملومة من الافتقار إلى استنباط الرأى الراشد الحكيم ... عاب الناس عليه إتمامه الصلاة بمنى أثناء الموسم فجاء بعدها على — فيمن جاءه من صحب رسول الله — فقال :

« ... والله ما حدث أمر ، ولا قدم عهد ، ولقد عهدت نبيك يصلى ركعتين ، ثم أبا بكر ، ثم عمر .. وأنت صدراً من ولايتك ، فما أدرى ما يرجع إليه » .

فلم يحمله السؤال الذى جاءه فى صورة استفسار على محاولة تبرير الخطأ إن لم يكن حافزاً له على الإقلاع عنه أو الوعد — على الأقل — بالعودة إلى الصواب ، بل رده محرجا يرد بجواب هو لا جواب :

« رأى رأيته ! . »

شخصيته جمعت عجباً من النقائض التى طبعت سلوك صاحبها بألوان شتى تنافرت وتجاورت بغير اتساق . بدا فيها اللين الأصيل البالغ إلى الرخاوة متصلا بالعنف المكتسب الجانح إلى القسوة . والحلم الذى منشؤه الطبع بالحدة التى اغرى بها التطبع . والخضوع الذى يلازم النفس الضعيفة بالصلابة التى يولدها الافتتان بالتزام قوة كانت من قبل عزيزة ممنوعة . وإنها جميعاً لصفات مجزئة بأغراضها لو أحسن وضعها فيما يصلح بها ، ولكنها كفيلة أيضاً بأن تقصر دون الأهداف وتجر إلى العثرات إذا لم يستوح المرء — عند استعمالها — الكياسة والتبصر ودقة التقدير .

لقد كان عثمان — أمام مسائل عهده — طبيباً غير بارع . توافرت بلا ريب فى جعبته الأدوية ولكن أشكل عليه التميز بين الأدواء ، فوصف الدواء لغير دائه وعالج المريض بغير دوائه ... وكان كلما أخطأ وتزايد حوله اللغط وكثر فيه العائب والناصح ، سارع إلى الإرهاب والقمع دون الانتصاح

وإلقاء السمع ، حتى أصبحت كل مسألة تتبعها مشكلة ، وكل مشكلة تجر في أعقابها مشكلات أثارت عليه نقمة الغريب وسخط القريب .

أجل . . حتى بين أهله لم يعدم أن يجد مناجزاً يؤلب الناس عليه ويدعوهم إلى خلافه والانفضاض عنه . . ولكن مرد التأليب في هذه الحالة لم يكن غيرة محمد بن أبي حذيفة على مصير الأمة الإسلامية بقدر ما كانت الغضبة لمصلحته الشخصية . فهذا الفتى المفتون بالسلطان افتتان بقية أقارب عثمان ، آذاه أن يؤثر الخليفة عليه سواه من أهله فيهبهم الولايات والمناصب ترفع من شأنهم بين الناس ، وتحيلهم — من دونه — أمراء ذوي سطوة على العباد والبلاد . ولم يكن هو — في عين نفسه — أقصر باعاً منهم أو أقل كفاية وقدرة ، فامتلأ قلبه مرارة على الخليفة . . كان يلقى الرجل عائداً من غزو الروم فيتخابث ويسأل .

« . . أمن الجهاد ؟ » .

« نعم » .

فيشير بإبهامه إلى ناحية الحجاز ويقول :

« أما والله لقد تركنا خلفنا الجهاد حقاً » .

« فأي جهاد ؟ » .

« عثمان ! » .

ثم لا يني يبث سمومه في نفوس الناس واحدا بعد واحد حتى مضى ، وحقده رائده إلى مصر يلوذ بجماعات المخالفين ، ويضم صفوفهم ، ويرفع صوته بدعوتهم حتى آن له أوان الثأر من سيد بيته الذي منعه ما أباحه الفتية الآخرين.

هذه الصور المتواترة من المخاصمة والخلاف كانت جديرة بأن تملأ نفس الخليفة الشيخ بالريبة في أغلب الناس إن لم يكن في كل الناس ، وأن تدفعه ضيق الصدر على كل ناقد أو حاقد ثم ترمي به إلى أحضان فئة قليلة من أهله وجد عندهم الرضا عن أعماله بغير نقد ولا مراجعة ، يمعنون له في إظهار الرضا

فيمن هو فى الميل إليهم والثقة بهم إلى غير حدود . كانوا يمسحون بأكف المراءاة على رأسه فيهدأ لهم كالطفل بين ذراعى أمه حتى ينام ويغمض عينيه عما حوله من أحداث .

ولقد نام الرجل بعد أن فترت أجفانه ألفاظ التدليل والتمويه التى حرص مشيروه أن يسمعوه أياها . ومضت أمامه الحوادث تترى فما رآها إلا بعينى غافل ، ولا تلقاها بجد أو احتفال . حتى إذا بلغ خطرها حدا أعيى فيه إخفاؤها أولئك الذين كان ديدنهم الإخفاء عنه ، أصبح شأنه كمن سار وهو نائم ثم استيقظ وقدمه فى النار ! .

ثم فتح عينيه أخيرا ، وانتبه فى آونة تساوت فيها اليقظة وإغماض الجفون. فإذا المسألة ليست نقد ناقد أراد أن يتصيد الهنات والأخطاء ، ولا حقد حاقد أعياه أن يستر غل قلبه ، ولا بشنآن موتور غلب على أمره فى ميدان المنافسة فاستطاع من بعد أن يتأهب للثأر . . كلا ، بل أمحى كل هذا فى لحظة واحدة ، وتوارى فى ارفة عين كأنما بقوة ساحرة ليبدو بدله النتاج الحقيق لثورة النفوس على الشيخ الغافل .. الحصاد السام الذى وضعت بذرته عوامل شتى ، وأنبتته كل أرض وسعتها الدولة المريضة التى قام عليها عثمان فأظلها منه الحكم ولم ترعها الحكمة .

١١

لم يكن التذمر فردياً نشب بنفوس بضعة من الناس دون بقية الرعية ، ولا طائفياً نضحت به قلوب طبقة دون غيرها من طبقات ، ولا قومياً ألم بأحد الأجناس الكثيرة التى انضمت عليها الدولة الإسلامية المترامية الأطراف . ولكنه كان جامعاً ، شمل الأمة أفرادا ، وعمها جماعات ، ولقى صداه لديها شعوباً عديدة النحل والألوان .

غير أن الذى لم يكن فى الحسبان أن تكون قريش نفسها من بين أولئك

المتذمرين . وأن تتقدم الصفوف أمامها مناهضة رجالها ، داعية عليه مخذلة عنه ، كأنما فاتها أنه أحدها يسيء إلى هيبتها ما يأخذ منه . ويضعه بفشله مثالا ناطقاً على فشلها هي وعدم إحسانها القيام على أمر الناس .

قد كانت حقاً في الخليفة نواحي ضعف لا تدع لمنصف قادر على كبح لسانه ألا يخوض فيه أو ينقد عمله . ولكن قريشاً في الأغلب لم تتوخ في النقد الإصلاح لذاته ، بل اتخذته ذريعة إلى أغراضها أو التزمته ثأراً منها لهذه الأغراض التي فوتها عليها عثمان . وكلما جرى المرء وراء الأسباب التي أثارت نقمتها وسعه أن يرى خلف أكثرها أسباباً شخصية هي الطمع في المال أو الجاه أو النفوذ . وما من رجل في العالمين كان يستطيع أن يرضى نزوات كل هذه النفوس الظمأى إلى أنواع متباينة من عروض الحياة مادام قد سار سيرة عثمان ولم يلتزم شرعة المساواة عند معاملته الناس .

أجل كان تفريقه في المعاملة هو أس البلاء . وهب فأنقم عليه من لم يساوهم بغيرهم من المحظوظين والمحسوبين عليه . ونصب الحكام والولاة فباء بغضب الأثيرين عنده بالمال ، لأن الحكم متعة تفوق متعة الغنى والثراء . ولو أنه جعل العدل أساساً للبذل ، والكفاية مؤهلا للولاية لجنب نفسه سخط كل طامع في مال أو منصب . ولكنه وكل لهواه وحده توزيع الهبات والولايات ، والهوى دائماً خداع .

وكذلك وسع قريشاً أن تضج من شيخها — هي أسرته الكبرى — لأنه آلى بمعظم خيره أسرته الصغرى آل أمية والحكم وأبي معيط . ولم يكن الشعب ، النافر حتى الآن بغير إظهار ، الطاوى في قلبه تذمره ، يهمه أن ينتصر أحد الفريقين على الثاني ، أو يغضب لمن آل منهما بالصفقة الخاسرة . ولكنه كان متفتح النفس للتبرم فأمدته قريش بمادة جديدة للسخط على الخليفة الشيخ. واستطاعت — وهي في عين الناس السادة والقادة — أن ترسم للرأى العام طريق النفور الذى أدى إلى الثورة ، وأن تحمل علم العصيان فتسير خلفها العامة. ولم يبق من بعد أحد كان يتحرز من البوح بسخطه على عثمان إلا قد أكسبه

موقف قريش جرأة على الرجل ، فسارع بإظهار سخطه بعد أن رأى قادة الرأى فيه لا يستطيعون ستر نفورهم من صاحبهم ولا يحاولون تخفيف الملام عنه.

بهذه النظرة حكم الرجل فاستطاع أن يرفع من شأن دولته على حساب أمته . عقد الألوية وسير الجنود ووسع الحدود ، ولكنه لم يكن حريصاً على الارتفاع بشعبه إلى مستوى من الحياة الاجتماعية أجدى عليه من تلك الفتوح، وغلب دائماً صالح الوحدة السياسية التى ضمت شعوبه على صالح هذه الشعوب نفسها ، وأولى بالحكومة الرشيدة أن تستهدف أولا خير رعاياها .

لكن عثمان لم يكن يعتنق هذا المبدأ ، أو — على القاول — أجبرته ظروف الأحوال التى أحاطت به على ألا يسير عليه . أما هدفه الحقيق فكان الاستزادة من رقاع الأرض التى يرفرف فوقها علم حكمه . وكانت متعته الأولى أن يلقى بالنظرة على شعوبه فيراها كلها أداة دائبة على العمل من أجل دولته . ولئن كانت هذه الأداة هى القوة التى تحقق له أغراضه السياسية إلا أنه لم يوفر لها ما يحفظها مجلوة موفورة النشاط ، مقبلة بكل نفسها على الواجب الذى وقفها عليه . لقى عمرو بن العاص بعيد أن عزله عن ولاية مصر فقال له مزهوا معتزا وهو يشير إلى أموال جمة بعث بها إليه عامله الجديد عبد الله بن أبى سرح:

« إن تلك اللقاح درت بعدك » .

فما أسرع أن أتاه الجواب الذى يزرى بزهوه واعتزازه . . . قال له عمرو فى كلمات قليلات تدل أبلغ دلالة على سياسة الاستنزاف التى جرت عليها الحكومة فى تلك الفترة من الزمن حيال الشعوب المحكومة :

« ولكن فصالها هلكت يا أمير المؤمنين ! . . »

فى الحق لسنا نتهم الرجل بالعمل على ابتزاز الولايات مواردها ، ولكن عماله على تلك الولايات جعلوا هذا بعض دينهم وبدت الأمصار المختلفة — فى أعينهم — كقطيع الأبقار يدر الخير على قلب الدولة الحجاز ... م

فى هـــذا أحد نوعين : وال استغرقه حب الترف فحرص على استجلاب الأموال لنفسه ولمن خلفـــه بالعاصمة من مدبرى الحـكم ، وآخر قهرته الأحوال على استجلابها ليشبع نهم غول الحرب التى شنتها الدولة فى كل اتجـاه تنفيذاً لسياسة الفتوحات . . . ولـكنهم فى الحالين أمعنوا فى استنزاف الشعب ، وجاروا على حقوق الناس فى الفىء فمنعوها عنهم أو أنقصوها لأنها لم تعد — فى نظرة الولاة — حقاً واجب الأداء . . . وقف معاوية بن أبى سفيان على منبر دمشق وقد عـلم أن الناس سرى فيهم التذمر من حبس هذه الأموال . فقال :

« إنما المال مالنا ، والفىء فيئنا ، فمن شئنا أعطيناه ، ومن شئنا منعناه »

وقد كان من أثر هذا الإرهاق الاقتصادى الذى وقعت الشعوب تحت وطأته أن بدأت العيون تتفتح فيها على حقائق كانت قد غابت عنها إلى قليل . وكما وضح للناس التفاوت بينهم وبين آل الخليفه وقريش فى استحقاقهم للمزايا من المهمات والمناصب فقد بدا بينا تفاوت من نوع آخر بين الشعوب الدخيـــلة كلها وبين الشعب الأصيل الذى ضمها تحت رايته . ولم يـكن التباين الاقتصادى هو الآفة التى أوشكت أن تنخر فى عظام الدولة بل الشعور بالهوان هو الذى جرح نفوس أهل الأمصار وهم يرون العرب يعلونهم سيادة وثروة . . . فـكل عمال الخليفة على رقاع الدولة كانوا من أهله فقبيله . وكل عـلم بارز فى شئون المال والتجارة كان يتصل بهذا القبيل بأكثر من سبب واحد إن لم يكن من رجاله الأعلين . وما كان لمصرى أو كوفى أو بصرى أن يشق طريقه بين هذه الطبقة السائدة وقد حيل بينه وبين المزايا التى تؤهله للاندماج فيها إلا إن كان لهم بطانة أو تابعاً يسير فى الركاب.

أى فارق إذن بين هـــذه الدولة الجديدة وبين الدول البائدة من الفرس والرومان ؟ . . وأين دعوة المساواة التى نادى بهـــا الإسلام واستجابت لهـــا طواعية هذه الأجناس الشتى من شعوب الأرض ؟ . . قد كانت المبادىء التى بثها النبى ووضعها أساساً لعالم جديد سعيد كفيلة بأن تؤلف من الشعوب المختلفة أمة

واحدة توثق بينها المحبة إذ تسودها المساواة . ولكن الطريق المستوية وجدت من ينحرف عنها ويستبدل بهـا أخرى ملتوية لا تقوده إلى العالم المأمول . . وقد بدا الناس كأنمـا الآمال التى بذر الدين فى قلوبهم نواتها قد أوشكت أعوادها أن تميل وتتقصف . وراحت الثمرات المرجوة تتساقط فجة تحت الأقدام قبل أن تينع . وكلما ألقى امرؤ ببصره فى الناحية التى أمل طويلا أن تبزغ منهـا شمس المساواة لا يلبث حتى تطالعه سحائب دكناء تلف الأفق كله وتحجب عنه الضوء . . . ولم يعد هناك إلا ظلام الماضى بما فيه من جهالة واستبداد يطارد هذه الشعوب التى لم تكد تتحرر من ربقة الدول البائدة حتى رأت نفسها تخبط فى الطريق الجديد إلى مستقبل مجهول معتم . . .

هذه الشعوب التى خلفت وراءها الغابر مثلوجة الصدور أضحت اليوم تتهيب موقفها وهى ترى غـدها فى مرآة حاضرها المظلم . . . أهى ما زالت تعيش فى الماضى ؟ . . أكانت هـذه الفترة من السنين القلائل السالفات التى أعقبت رسالة محمد حلماً هانئاً ما لبثوا أن ارتدوا منه إلى يقظة شقية ؟ . . إن يومهم هذا موصول إذن بماضيهم الذى لفه استبداد فارس والروم . وحياتهم فى ظل الدولة الفتية ليست إلا حلقة من حياتهم فى ظل أختيها الذاهبتين خلف ستار التاريخ . ولكن عيونهم التى أغمضها من قبل ذل الظلم ، وبصائرهم التى رانت عليها حلكة الاستعباد قد بدا لها فى شريعة الإسلام قبس يوشك أن يضىء أمامها الحياة . وأخذ الشعور بحب الانطلاق والتحرر يراود النفوس الحبيسة . فلم يعد الناس من بعد يفزعهم سيف الإرهاب وقد علمتهم الدعوة المحدية أن سلاح الظلم مفلول الحد وأن دولته دائمـاً إلى زوال .

أجل . ففى الكتاب الجديد جاءت شرعة تعلموا منها أن الناس جميعاً فى هذه الدنيا سواء . وأن حق الحياة الحرة مكفول لكافة الأجناس . وأن أحـداً لا يفضل آخر أمام الله إلا بتقواه وإن حلك لون الفاضل وابيض لون المفضول .

فقد ذهب زمان العنصرية ، وبشر الدين الجديد بعـــالم تسوده العدالة .

ولـكن الأمل الذى خالج القلوب الظمأى إلى هـذه العدالة لم يلبث أن خبا ضوؤه . . . لم يتغير المبدأ السامى الذى قرره القرآن ، ولم يتبدل كتاب الله أو يصبه تحريف ، بل انحرفت وحدها نفوس القائمين على إنفاذ شريعة السماء ومالت إلى هواها القديم . وبدأت عوامل الوراثة والبيئة التى اختفت آونة قصيرة فى حياة محمد وحياة خلفه تعود ثانية إلى الظهور كهيئتها الأولى قبل الإسلام . عاودت العرب عزتهم بالجنس وتعصبهم المقيت الذى نهى عنه الله . وارتد العربى ثانية إلى تقاليد جاهليته الرثة التى عصبت عينيه بمرآة عاكسة لا يرى فيها غير نفسه . . . طبيعى كان هذا الشعور أحرى به أن يلازم نفوس شعب فتى يهم أن يأخذ مكانه على هام بقية الشعوب ويحاول أن يفرض شخصيته على العالم . ولـكن هذا الشعور القوى بالقومية بث فى نفوس البلاد التى دانت لطاعة الجزيرة قلقاً على كيانها هى أن تطغى عليه شخصية السيد الجديد . . . وكدفاع عن نفسها لم تر بداً من التعصب هى الأخرى لقوميتها أمام العرب . ثم نما فيما بعد هذا الشعور فى كل منهـــا حتى راحت تتنافس فيما بينها لإظهاره ، وتشتد الواحدة منها فى التعصب لجنسها أمام أخواتها الأخريات كما وقع بين أهل الشام وأهل الـكوفة حين اجتمعا على حرب بعض النواحى الثائرة بفارس فأبى كل فريق منهما — اعتزازاً بجنسه — إلا أن تـكون له الإمرة على زميله .

لم يـكن عجباً إذن أن تتولد الروح الوطنية فى الأمصار التى ضمتها الدولة الإسلامية الجديدة ، وأن تنمو مع الزمن نمـواً يطرد وازدياد شعور العرب بعصبيتهم وحرصهم المعاود على الاستمساك بها . وكلما جنح الشعب الحاكم إلى الاعتزاز بجنسيته مالت الشعوب المحكومة أيضاً مثل ميله . ووجدت من نفسها اندفاعاً إلى الخوف على جنسيتها أن تفنى فى شخصيته ، وإلى قوميتها تكسيج بهـا أمام ذلك التعصب ، وإلى وطنيتها الوليدة تغذيها يوماً بعد يوم ليـكون لها هى

الأخرى كيان قائم تمتز به . ووجد الناس ، بفارس ومصر والعراق وغيرها من أجزاء الدولة ، فى تاريخ أقوامهم الأقدمين دواعى فخر تدعهم أقرب إلى النفور من السادة الجدد الذين قفزوا إلى أماكن الصدارة فى العالم بغير ماض مجيد يهيئهم لهذه الصدارة . ولم تلبث أسباب المفاضلة أن برزت أمامهم واضحة فأسوا على مجدهم القديم الذى فقدوه وورثته دونهم هذه الحفنة القليلة من أبناء الصحراء .

هذا شعور مرده من جانب إلى تلك الغيرة النفسية التى تراود عادة نفس المفضول على فاضله المتفوق عليه . برز بروزاً واضحاً على عهد عثمان . واتخذ فى البدأ مظهراً سامياً لا يعاب ، هو رغبة هذه الشعوب فى أن ينشر بينها وبين العرب ميزان العدل ويجمعهم معاً قانون التسوية فى الحقوق والواجبات . ولكنه من بعد أصبح نقمة شديدة الخطر كأنها الشوكة المرهفة فى جنب الدولة لا تنى تدميها وتجرعها من المآسى والويلات ما ظل ينخر فى هيكلها على مدى الأحقاب المتعاقبة بعد ذلك التاريخ . . . وما كانت الحكومات التى قامت فى حواضر البلاد المقهورة والدول المختلفة التى تركزت فى الأمصار دون الحاضرة الإسلامية الأصلية إلا نوعا من التعبير عن هذه النقمة . فلقد اندثرت بها رويداً رويداً سلطة قريش خاصة والعرب عامة . وانتقلت بها الرياسة بمظهريها الدينى والسياسى من يد المتبوع إلى أيدى أتباعه واحداً بعد الآخر . . . حتى معاوية الذى نصب من نفسه مدافعاً عن الخليفة وقومه لم يستطع أن يقيم ملكه فى أرض أولئكم القوم واعتاض عن كليهما الشام وأهله مجاراة منه لتيار القوميات . كذلك من قبله فعل على . وكذلك من بعده فعلت كل أسرة حرصت على الاستئثار بالسلطان على الدولة العريضة ، وكل حاكم أراد أن يدوم حكمه ، لأنهم عرفوا جميعاً مدى القوة التى أكسبتها الوطنية هذه الشعوب التى كانت تابعة حتى حين . وعرفوا كيف يستغلون حماسها لأجناسها فى إقامة حكومات فى بلادها يشعر معها أهل تلك البلاد أنها تستند إلى أكيفهم وليس لها بدونهم حياة . وكل حركة أريد بها

أن تقوم دولة فى الحجاز لم يكتب لها النجاح ، لأنها كانت على معنى ما تحدياً لشعور تلك الشعوب .

١٢

أ كانت هذه القوميات وليداً جديداً لم ير النور إلا على عهد الخليفة الثالث ؟ . . أ كانت عواطف الشعوب المحكومة التى ازدخرت فى قلوبها بالنفور والسخط والنقمة على الأمة الحاكمة حدثاً لم يتخذ مظهر الحياة إلا فى زمان عثمان ؟ . . بل هى ثمرة أنضجتها الأيام وكانت بذرتها مغروسة من قبل فى النفوس . فلم يكن الشعور بالذات جديداً على أقاليم الدولة . ولم تكن الغضبة للجنس وللوطن المغلوب إحساساً مفاجئاً راود أهل الأمصار ، وإنما يستطاع رده إلى عهد غبر وتولت أيامه ولا يكون ثمة خطأ فى التقدير . . . فما مقتل عمر إلا أولى المؤامرات السياسية التى شهدها الحكم الإسلامى وأريق فيها دم كريم حرام . وما خنجر أبى لؤلؤة سوى وسيلة للتنفيس عن تلك النعرة الوطنية التى جمحت عن حدها واستبدت بقلوب بضعة من أولئك المغلوبين على أمرهم . تلفتوا فإذا بين عشية وضحاها بلادهم تدوسها أقدام أبناء الجزيرة . وتستبيح حرمة كل عزيز على أصحابه من أراض وذكريات . وللثورات المشبوهة ببعض نواحى فارس أواخر عهد ابن الخطاب حديث مبين يعلو به صوت هذه القوميات .

ولقد مضى عمر إلى ربه ضحية بريئة للوطنية الجامحة التى يعصب عينيها التعصب ويدفعها عمياء . وتخلت بمضيه القبضة القوية عن الزمام الذى كان يمسك الدولة الكبيرة لتخلفها قبضة ضعيفة مسترخية ، هى أوهن من أن تقبض على ناصية الأمور التى أخذت خيوطها تتعقد وتتشابك . وكان من أثر السياسة التى استنها عثمان فى تنصيب ولاة غير ذوى حنكة ودراية على تلك البلاد التى بدأت تتهيأ للفتنة ما مكن للقوميات الناشئة فى الظهور ثم

الطغيان . يحفزها من ناحية حبها أمها وحرصها على أن تستمتع بحقها الكامل في حياة كريمة حرة ، ولا تساق أمام العرب سوق الأنعام . ومن ناحية أخرى يدفعها إلى التحرر من استعلاء الأمة الحاكمة عليها خيبة أملها في العدالة المنشودة التي حلمت أعواما أن تسود قاب الدولة وأطرافها على سواء . وخرج التذمر رويداً رويداً من دائرة الرغبة المكبوتة إلى حيز الدعوة الصريحة المناجزة يحمل ألويتهـا أناس انقادت لهم البلاد المقهورة طواعية وقد استكبرت أن تدين للعرب الذين لا يبلغون مثل مجدها في صحائف التاريخ . ثم ما لبثت هذه الدعوات حتى تعبد طريقها فاستحالت من بعد إلى مناجزات عنيفة مسلحة أثخنت الدولة في كل ناحية بأفدح الجراح .

على أنه يجمل بنا الا نحمل عثمان بمفرده مغبة السياسة الخاطئة التي جرى عليهـا تنصيب ولاة الأقاليم والأمصار ... هو حقاً لم يتوخ في اختيارهم أن تجتمع لهم الحنكة وحسن الإدارة . ولكن سوء الاختيار لم يكن وحده الذى أثار في تلك الشعوب قوة « الشعور بالذات » ... وان أراد أن يبحث عن السبب الأصيل الذى نمت به القوميات فليبحث إذن وراء هـــذا الشعور . وليعلم أن غارسه في نفوس تلك الأقاليم كان عمر قبل أن يكون عثمان .

سياسة عمـر في تنصيب الولاة — وفي عزلهم على السواء — كانت سبباً لا ينكر أثره في تكوين الشخصيات القومية . وفي نهوضها . وفي طغيانها على مرور الأيام . ولكنه في الواقع كان خطأ من جانب الخليفة الثانى أريد به الصواب . وانحرافاً بدا في حينه . كالإصلاح ولم يرد به غير الإصلاح . فلقد كان الرجل لفرط حساسيته ، وشدة شعوره بالمسئولية الملقاة على عاتقه كأمير للدولة المريضة ، يأخذ نفسه بالعمل على إرضاء الشعوب الإسلامية المختلفة غاية الإرضاء لا يكاد تأتيه الشكوى — مهما كان هوانها — يسوقها إليه بضعة نفر في حق عامله عليهم ، حتى يسارع إلى عزل العامل ، وتنصيب سواه ... فلكم أخذ ولاته بالمنات وحاسبهم أعسر الحساب ابتغاء مرضاة ضميره ومرضاة فئات قليلة من رعاياه . ولكم تناولهم بجزاء أهونه الخلع

فأقالهم من مناصبهم وأقام عليها من لدنه من حسبهم أدنى إلى قلوب أصحاب الشكايات

هذه السياسة التي انتهجها عمر نتيجة لشدة شعوره بواجبه ومسئوليته تجاه أقاليم دولته ، ورغبة منه فى الفوز برضاء شعوبه عنه ، وجريا وراء توفير السند القانونى الذى بغيره لا تكون للحكم شرعيته الواجبة ... هذه السياسة التي غايتها رضاء المحكوم عن حاكمه والتى تعتبر فى نظرة القوانين والشرائع أمثل السياسات لم تكن فى نظرة الواقع الملموس كذلك . بل انحرفت عن وجهتها التى رسمت لها وقادت إلى عقبى غير محمودة ، لأنها أشعرت تلك الشعوب الحديثة العهد بالشعور بالذات أنها تملك أن تغير ولاتها كما تشاء وأنها — تبعاً لهذا — لا تملك التغيير إلا لأنها أصبحت من القوة بحيث تستطيع الإملاء .

وهكذا أسىء تأويل البواعث الطيبة التى دعت عمر إلى الحرص على إنفاذ رغبات أهل الأمصار . فلما خلفه فى مقعد الإمارة عثمان ، كان ضعفه مغرياً للشعوب بالمغالاة فى الشعور بالذات ، وبالإمعان فى الطغيان نتيجة لهذه المغالاة ... وأوسع لها فى ميدان التطرف فى الإملاء وفرض رغباتها أن ولاة الخليفة الثالث كانوا — فى الأغلب فضلا عن نواحى النقص فيهم وعن سقطاتهم الشخصية — شباناً غير ذوى دراية لا تجربة لهم ولا يحسنون تدبير الحكم .

بهؤلاء الولاة واجه عثمان الفتن التى تجمعت فى الشطر الثانى من عهده المنكوب وهم الذين وكل إليهم علاج الآفات التى راحت تنخر فى عظام سلطانه ... كانوا عينه وأذنه وكفه الممدودة إلى الأقاليم . فلم يستقبلوا الحوادث بأبصارهم إلا بمثل ما استقبلها به على البعد — بالنظرة الكليلة والأذن الوقراء والكف الشلاء ... لكأنما كانوا هم صدى له حتى قل أن أحسنوا له النصح أو عملوا له فى مناطقهم ما كان يجمل بالحكام ذوى الغيرة أن يفعلوه ... دخل سعيد بن العاص الكوفة ، وقد خلف الوليد بن عقبة

على إمرتها غب قصة الخمر ، فأمر بمنبر المسجد أن يغسل عسى أن يتطهر من أدران سلفه . ثم اعتلاه فقال للناس :

« ... والله لقد بعثت إليكم وإنى لكاره . ولكننى لم أجد بداً إذ أمرت أن آتمر ... إلا أن الفتنة قد أطلعت خطمها وعينيها ... ووالله لأضربن وجهها حتى أقمها أو تعييني . »

فعلى أية وجهة كان يريد حمل سامعيه ... على تصديق فعله أم تصديق قوله ؟ .. إنه مذ وضع الماء على درج المنبر قد أقر على سلفه بالخزى الذى استحق عليه العزل وأقر للناس — تبعاً لهـذا — بأنهم أحسنوا إذ ثاروا عليه حتى خلعوه . فـما معنى أنه يرميهم فى حديثه بالشغب والتزام الفتنة إلا أن يكون قد رأى فى استنكارهم عمل سلفه نوعا من الثورة يحاسبون عليه بالقمع أو بالتهديد .

ومع ذلك فإن الأثر السىء الذى تركته هذه الكلمات المضطربة فى نفوس سامعيه كان أولى به أن يزول لو نزع سعيد عن السياسة التقليدية التى أثارت الشعوب التابعة على الشعب المتبوع . ولو أنه كان حاكماً فيه كياسة وحكمة لأشعر منذ اللحظة الأولى أهل البلاد أنه جاء يستوحى خيرهم ويعمل جاهداً له ولكنه كان هو الآخر صورة من العـرب فى إجمالهم ومن قريش على التخصيص . يرى بمثل عينهم ويسير على نهجهم المعروف من التعصب للجنس فما كاد يستقر به المقام فى الكوفة حتى نقم على أهلها أن شعروا بكيانهم وحاولوا أن يعيشوا والأمة الحاكمة حياة كريمة تسودها المساواة . وأبت عليه نزعته إلا أن يرى الخطأ كل الخطأ فى نظرة الكوفيين إلى الأوضاع الاجتماعية القائمة إذ ذاك . وأن ينكر عليهم حقهم فى العدالة التى نشدوها وقاموا يسمون إليها ، فكتب إلى الخليفة يقول :

« إن أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم . وغلب أهل الشرف منهم والبيوتات والسابقة والقدمة . والغالب على تلك البلاد روادف ردفت وأعراب لحقت حتى ما ينظر إلى ذى شرف ولا بلاء من نازلتها ولا نابتتها .

فاثبت بهذا أنه يرى وجوب التفرقة فى المعاملة بين التابع والمتبوع ، وهى نظرة عجيبة تضع الدخيل موضع الأصيل وصاحب البيت مكان النازح الغريب .

وكان الرأى الذى أشير به على عثمان كعلاج للحالة التى رسمها سعيد هو فى ظاهره وباطنه تأييداً للعصبية العربية وقمعاً للشعور القومى الذى أخذ يفور فى قلوب أهل البلاد . . . ذلك أن الكوفة — كسواها من أقاليم الدولة الإسلامية — لم تكن فى نظر الخليفة وولاته كمكة أو المدينة أو أى من المدن التى ضمتها رقعة الحجاز . ولم يكن أهلها كالعرب ذوى الجنس النقى الممتاز ، وإنما هم روادف وأتباع . . . ولتبق إذن الحال كالحال بدون تبديل أو تغيير . ولتظل المسافات الاجتماعية قائمة على هيئتها بين السيد وبين المسود . ولتكن الفوارق العنصرية هى أساس السياسية العليا للدولة كما كانت وكما يجب أن تكون .

بهذا أشير على الخليفة وبه أمر سعيد . والتفت الناس بالكوفة فإذا التعصب العنصرى الذى أنكروه قد أضحى اليوم على يد الحاكم الجديد أشد طغياناً وأعتى منه فى أيام سلفه . . . وإذا النظرة إليهم تحمل التحدى سافراً ولا تحتاج إلى اصطناع المداورة لإخفاء الازدراء ومواراة الاستعلاء . . . وإذا عاملهم لا يستطيع أن يقرهم على الرغبة فى معاملتهم كشعبه الممتاز سواء بسواء ، بعد أن استقر الرأى فى حاضرة الدولة على ألا يطمعهم فيما ليسوا له بأهل ، لأنه — على حد قول الخليفة وقول مشيريه — إذا نهض فى الأمور من ليس لها بأهل لم يحتملها وأشاع فيها الفساد .

وكان لابد وقد أعلنت الحرب هكذا على الشعور القومى بالكوفة أن يمكن لسعيد فى سلطانه ويزود بالقوة التى تشد أزره ليستطيع تنفيذ هذه السياسة . . . ولم تكن تلك القوة إلا أرجالا من قريش . هبطت كالجراد على البلدة . وهيأ لها عثمان كل ما يكفل لها بالكوفة عيشاً رغداً ومنزلة كريمة لتكون بطانة للوالى مرهوبة يستخدمها فى مرافق الإقليم كما يشاء ويستشيرها فى تسيير أموره التى

يضن على أهل البلاد نفسها أن يكون لهم فيها يد عاملة أو رأى مسموع .

١٣

البصرة خامدة كالرمادة . . . نفضت يدها من الأشعرى وقنعت بالفتى الجديد الذى ولاه عليها عثمان . إن أهلها قد أصابوا إذن وطرهم . وانزاح عن صدورهم أبو موسى ، ذلك الشيخ الذى لم ينسوا له أنه أبى — حين أمره عمر عليهم أول مرة — إلا أن يدخل بلدتهم وفى ركابه تسعة وعشرون سيداً قرشياً لتستمين بهم حكومته دون أهل البلاد أنفسهم . ومضت بمضيه الأعوام الطويلة التى قضاها فى الإمرة مترسماً فيها خطوط السياسة العنصرية التى رسمتها المدينة لزملائه الآخرين فى بقية الأقاليم . قد كان حقاً رجلا رضى الخلق فيه طيبة تميل نحوها النفوس ، ولكن هذا وحده وإن اجتمع له رضاء حاضرة الدولة عنه ، لم يكن ممفيه من تذمر أهل إقليمه الذين تفتحت أعينهم لحقهم فى الحياة السياسية التى حبسها على بنى جلدته . وكانت طيبته التى ولدها فيه ورعه تحمل الناس على أن يظنوا فيه زهادة فى المظهر الذى يمكن أن يوفره له منصبه الضخم . غير أن هذا أيضاً ما لبث أن انفرج عن ثغرة استطاع السخط أن ينفذ منها . فقد راح الرجل على الأيام يتبدى فى ثوب لا يلائم النسك . واجتمعت له أموال من ماشية ومتاع أثارت عليه رعاياه . . . هو فى الحق لم يبلغ من الترف مبلغ سواه من الولاة . ولكن النفس المتحفزة للانقلاب تتوسل دائماً بأوهى الأسباب . وإذا كان أهل البصرة لم يبلغوا بعد حد القوة الذى يجاهرون معه بانتقاضهم على سياسة العنصرية التى جعلتهم فى بلادهم ذيلا لقريش ، فلا أقل إذن من التماس سبب آخر يتخلصون به من الرجل الذى صيرهم ذيلا . ولا بأس عليهم فى شرعة التوصل للغايات بأى الوساطات أن يتحينوا الفرصة التى تنيلهم غرضهم المنشود .

وكذلك اعتسفوا السبب الذى يكسب تذمرهم لون الحق يوم دعاهم أبو موسى لحرب الأكراد . فلقد قام فى الناس يحضهم على الجهاد ويهيب بهم أن يسيروا إلى الميدان رجالا حتى يكون لهم فضل الرجلة . لعله فى هذا كان يريد أن يستنفرهم على دوابهم دون دواب الحكومة . لعله كان يعلم أن دواب الجيش من القلة بحيث لا تكفى لحمل كل نافر إلى الحرب . . . ولكنهم أمام دعوته كانوا نفراً سمع وأطاع فسار كأمر الأمير . وآخر حانقاً رأى أن يتريث فتربص . فلما أن خرج أبو موسى من قصره . ووجدوه قد أخرج ثقله (متاعه) على أربعين بغلا ، لاحت لهم الفرصة سانحة ليضربوا ضربتهم بعد أن أصبح فى يدهم السبب الذى يستطيعون اعتسافه .

هو هكذا بدا لهم فى صورة الداعى الذى لا يؤمن بالدعوة فلا يجعل من نفسه لغيره قدوة . . . وبدا أيضاً فى صورة المترف الشديد الإسراف فى التزام المظهر حتى ليحمل متاع حربه على أربعين راحلة . . . وقديماً علمهم عمر الشدة على عماله المترفين حتى كان يعزلهم أو يقاسمهم ما أصابوه من أموال ومتاع . وهم الآن إذن بصدد رجل حق عليه العزل فى الشرعة التى سنها أمير المؤمنين الراحل.

فى عين الحق هذه حجة كانت لا تساوى أن تنال عند الخليفة أكثر من اختلاج جارحة . ولكن عثمان أوهن من أن يثبت أمام حجة مهما وهنت ما دامت البصرة تستطيع أن تحسن عرضها تحت عينيه .

أرسلت إليه من قالوا له :

« . . . ما كل ما نعلم نحب أن نقوله فأبدلنا به » .

قال الخليفة اللين الذى ينفر طبعه من البحث والاستقصاء :

« فمن تحبون ؟ . »

قال غيلان بن خرشة رأس الوفد :

« يا أمير المؤمنين . . . فى كل أحد عوض من هذا العبد الذى أكل أرضنا وأحيا أمر الجاهلية فينا . فلا ننفك من أشعرى كان يعظم ملكه

على الأشعريين ويستصغر ملك البصرة . . . إذا أمرت علينا صغيرا كان فيه عوض منه . أو مهتدأ كان فيه عوض منه . ومن بين ذلك من جميع الناس خير منه . »

فمن يا ترى ذلك المهتد الذى عناه غيلان ؟ . . إنا لنعلم من الكلمة أنها تعنى الولوع بناحية من نواحى الفساد دون مبالاة ما يقال . ولعلها فى حديث غيلان عنت الغرام بالشراب . فهل أراد رسول البصرة الحصيف الأريب أن يقترح على عثمان اسم أخيه الوليد ؟ إن غيلان إذن لداهية . وسمه أن يلعب على الوتر الحساس فى نفس الخليفة باستغلال كلفه بأهله . وإن دهاءه لأداة فعالة عرف كيف يشق بها الطريق إلى هدف قومه . إعزل الوالى الذى أبغضوه ، وبالفوز بآخر يملكون زمامه فى ان ، لأنهم يعلمون أن سقطته القديمة ستكون سلاحاً فى أيديهم يسلونه على رقبته متى يشاءون . ومع ذلك فإن فى حديث رئيس وفد البصرة الحكيم بقية تكشف عن شدة تحوطه وفرط حرصه على الفوز ببغيته إذا عرفنا أيضاً من ذلك الصغير الذى جمع الاقتراح بينه وبين المهتد السكير .

قال الرجل ثانية يغرى الخليفة :

« . . . حتى متى يأكل الشيخ الأشعرى هذه البلاد ؟ . . يا معشر قريش . أما منكم صغير فتستشبوه . . . أما منكم خسيس فترفعوه . . . أما منكم فقير فتجبروه . ؟ »

فوضح بهذه الكلمات مرماه . وبان من خلالها أنه يريده أميراً من فتيان قريش . وإذا ذكرت قريش أمام عثمان فنى أهله بقية تليق للسلطان .

وكذلك ولى ابن خاله عبد الله بن عامر وهو إذ ذاك فتى فى الخامسة والعشرين .

وتخلصت البصرة من أميرها الشيخ وفازت بصغير ، لعلها طمعت أن تجعله حداثة سنه ألين فى يدها فتستطيع أن تجبله كما تشاء . وبقيت فترة من الزمن خامدة كالرماد تنتظر أن تسعفها الأيام بالإصلاح المنشود على يد واليهـــا

الجديد . . . لقد أثبت خـــلال الشطر الأول من حكمه أنه جندى مجيد . ولـكن الجندية ليست دائمـاً عنوان الحزم ، ولو أنه استطاع أن يخضع للدولة بقية من فارس كانت لاتني تجر عليها المتاعب ، وتمكن بهذا أن يؤمن حدوده ، إلا أن إقليمه فى داخله كان بحاجة الى أمن لم يوفره له . وامتدت يد عابثه إلى الرماد تقلبه وتنبش عن الجمر المتقد فيه . وإن هو إلا قليل زمن لم يكد يستقر فيه ابن عامر على أريـــكته حتى وضعت فى أرضه بذور الثورة .

أجل . فى هذه الناحية من الدولة الإسلامية ظهرت أقوى الحركات الهدامة فى تاريخ الإسلام . جاءت من الجنوب كالسموم . على يد أسود من إحـــدى الدويلات التى أنفت حتى فى أيام النبى أن تخضع لحكم البلاد المقدسة وحاولت أن تخلع سيادتها لولا أن قهرها ابن أبى طالب على الطاعة . . . من اليمن جاءت . وعلى لسان ابن السوداء عبد الله بن سبأ سالت كالسم . وانطلق بها الرجل إلى الحجاز يهم أن يبثها ، لولا أن وجهه ذكاؤه إلى بلد أكثر تقبلا للدعوة من مهد الدولة ، وأبعد عن أيدى الخليفه وأعوانه بالمدينة أن تمتد إليه . لقد كان ابن سبأ خبيراً بنفوس الناس ، عالماً بنواحى الضعف التى يستطيع أن ينفذ منها إليهم ، ملماً بأحوال البلاد التى انتظمها الإسلام تمام الإلمام ، فعرف أى تربة من بينها يمكن أن تنمو فيهـــا بذوره .

من صنعاء حيث غرسته أمة اليهود السوداء خرج إلى الحجاز ، وفى المدينة حاضرة الدولة الـكبيرة — التى ينطوى قلبه لها على مثل مايملأ قلوب أهل ملته من المقت والضغينة — خلع ثياب دينه القديم وأظهر الدخول فى الإسلام . ولـكن الدعوة التى جيش لها ذكاءه لم تـكن لتثمر ثمرتها المرجوة فى الأرض المقدسة . . . إنه لا يخشى أن تبطش به يد الحكومة بقدر ما يخشى أن يخذله الرجل الوحيد الذى جعله عـلم دعوته . هو يقرأ جيداً نفوس الرجال ويرى ضمائرهم مكشوفة أمام عينيه بغير نقاب . وهو يعلم جيدا أن دعوته فرية إن جازت

على بعض النفوس فى الحجاز فلن تكون لها مطلقاً حياة لو أن ابن أبى طالب فتح شفتيه . وما كان له أن يأمن علياً على السكوت فضلا عن موافقته ورضاه؛ لأن خلقه الكريم حرى بأن يثيره على الدعوة ويدفعه لحربها باللسان وبكل سلاح ، وإن كانت فى ظاهرها قد جاءت لتضع فى يديه السلطان .

ولكن البصرة بعيدة عن كف على وعن لسانه . بعيدة أيضاً عن بطش الدولة الذى فتك بدعوات الإصلاح وحارب الدعاة . . . فليد خلها إذن ابن سبأ . ويرفع بها عقيرته كما يشاء . وليطمئن على بذرته الخبيثة إذ يضعها فى تربتها الكفيلة بإنبات دعوات التذمر والانتقاض ، فإن الأذهان هناك مهيأة . وإن بالناس فيها — كما فى بقية الأقاليم التابعة للدولة الإسلامية — لشغفا إلى اعتناق أية دعوة تصل بهم إلى الخلاص من رجال هـذه الدولة التى لم تحسن سياستهم وعاملتهم بغير المساواة التى فرضها الإسلام بين الشعوب تابعة أو متبوعة ، وبين الأفراد سادة أو مسودين .

« إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد »

هذه كلمة السر التى جاز بها اليهودى الأسود نفوس الكثرة الغالبة من المسلمين وهم إذ ذاك قليلو إلمام بمكنون آيات القرآن . ولقد انتقاها آية تتفق فى ظاهرها وتأويله ثم مضى بين الناس يعقب عليها ويقول :

« العجب ممن يزعم أن عيسى يرجع . ويكذب بأن محمداً يرجع . »

فلما وضح له أن كثيراً من القوم تلقوا قوله بقبول حسن ، وأعجبهم أن يبشر بعودة نبيهم ثانية إلى الحياة الدنيا ، راح يلون دعوته الدينية بالأصباغ السياسية التى أيقن أنها كفيلة بأن تفعل فعلها ، وتديل وشيكا دولة الإسلام .

١٤

إنه خبير بالنفس الإنسانية شديد الشعور بالأحاسيس التى تناوبت قلوب أبناءزمانه ، على علم كامل بالعواطف التى احتضنتها شعوب الدولة فى أركانها المختلفة . وهو بعد هذا رجل قد أتيح له ذكاء لماح وقدرة خارقة على التدبير بعد التقدير .

وفيما أحسب ، كان الخاطر الأول الذى راود ذهنه هو العبث بالعقيدة الإسلامية وبث اللغويين مبادئها الراسخة . وكان فى هذا مدفوعاً بنفسه الموتورة التى أكلها الحقد على الإسلام . وكان الخاطر الثانى ذيلا للأول ؛ فقد أنبأه إدراكه أنه لا دين بلا دولة كما لم تكن دولة قبل الدين . فلما رسخ هذا فى عقله راح يصوغ المعاول التى تهدم البنيان الأشم الذى قام على أنقاض بلاده وغيرها من البلاد الخاضعة للحكم الجديد .

أما وقد بذر بذرته الأولى فتلقفت ثمارها أيدى سواد الناس من الجهال وقليلى المعرفة بأمور عقيدتهم ، فقد حق له أن يمضى قدماً نحو هدفه ، وأن يسعى سعيه ليقع على الأداة الكفيلة بإنجاز الهدم على الوجه المطلوب .

تنسم الجو . وامتد به أنفه يشم الريح . لو أنه بدا للناس فى ثوب الهدام لانكشف من أمره ما أراد ستره . ولو ضحت نواياه أمام العيون مهتوكة . ولكنه أحكم من أن يدع الشكوك تدنو منه ، وأحرص على حياة غرضه من حرصه على حياته . وما دام ذكاؤه يسعفه فلا عليه أن ارتدى ثوب البانى وخطر فى الناس يحضهم على معونته ليقيم الصرح المنشود على الأنقاض القديمة .

إنه عول إذن على أن يهدم . وعزم أمره على تقويض بنيان الدولة الإسلامية بدك الهيئة الحاكمة التى قامت على رأسها . ولكنه فى هذا كان

مؤملا أن يقنع الناس أنه سيقيم لهم نظاما خيراً من ذلك الذى أبغضوه . ويستبدل بالرأى المكروه سواه أقرب إلى قلوبهم وأحرى أن يلتفوا حوله وينهضوا إلى نصرته دون تردد ولا فتور . إن الأيام التى فاتت على الإسلام منذ ظهوره قد أبقت فى وفاضها أشخاصاً ما زالت لهم قداسة فى نفوس أكثر الناس . تتطلع إليهم الأبصار خاشعة . وتهفو القلوب ولهى بحبهم إذ يبدون كالمثل التى تتجسم فيها روح الدين . كل منهم قائم وحده كالعلم بين العامة بتاريخه وسابقته وشخصيته . . . فلينظر ذلك اليهودى الأسود من بين أولئك يصح أن يكون علم الأعلام .

منذا ياترى كان المنار الأرفع ؟ . . أى الحفنة القليلة الباقية من صحب رسول الله أولى بأن تلتف عليه العواطف التفاف الثوب المحبوك بالجسد المشوق ؟ من الأثير عند الأرواح ، الجدير بالتسويد إذا استبدلت سيادة بسيادة ، والحقيق بملء المكانة التى راحت الدعوة السبأية تجهد جهدها لإخلائها من شاغلها المملول ؟

هو إذن فرد واحد تكاد أن تتقصف الرقاب المشرئبة الطامعة دون بلوغ شأوه . له بكل قلب حظوة . وفى كل عين تقدير . ولدى كل نفس ولاء ، إن غشيته أحياناً أحداث السياسة فقد مكنت له ووثقته القدمة . . . هو ابن الرسول . وابن عمه . وأخوه فى الدنيا والدين . فى الحاضرة وفى الآخرة . وختنه على الزهراء . وأبو سلالته الطاهرة وعدته الخلصاء . . . هو على بن أبى طالب . ومن سواه كان يا ترى المنار الذى ينشد السراة ضوءه ، والعلم الأرفع المولى بأن تنضوى الجموع تحت ظله !

وكذلك راح ابن سبأ يحسب ويقدر . ثم راح يرتب وينظم . فلما اطمأن إلى النتائج التى استخلصها أخذ ينتقل بخطوات وئيدة ثابتة من دعوته الدينية إلى الدعوة السياسية الكفيلة بتقويض نظام الحكم الذى ملته وعابته الجماهير . وتقدم صفوف أنصاره المفتونين بقصة الرجعة يسير بهم وهم كمعصوبى الأعين إلى عوالم من الآمال وسيعة الآفاق فتحتها أمامهم

ألفاظه المعسولة التي استغلت العواطف المنطوية عليها قلوبهم من أجيال .
وهو كلما نطق حرفاً أو سار شوطاً انسابت الجموع خلفه تتدفق ، مستبشرة
راضية النفس إذ آنست قرب حلول يومها الموعود !

كان جماع المبدأ الذى أحكم لهم رسمه وتلوينه :

« . . . إنه كان ألف نبي ولكل نبي وصي . وكان علي وصي محمد ، ومحمد
خاتم الأنبياء وعلي خاتم الأوصياء ... فمن أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله
ووثب على وصي رسول الله ، وتناول أمر الأمة » .

وهذه كلمات لمست بإحدى ناحيتيها أو بالأخرى قلوب العامة ، فانتشرت
فيهم كما تنتشر النار في هشيم جاف : ما من رجل سمعها إلا لقيت صدى في
نفسه ، من استهوتهم الرجعة تلقفوها جد مشوقين لأنها الفصل المتمم للقصة ،
ومن خشي على عقيدته الساذجة السليمة أن يصيبها رشاش من خيال العقيدة
السبأية الجديدة يفسدها ، استراح منها إلى الشق الذى تضمن الدعوة إلى تحقيق
هدفه وهدف إخوانه المتذمرين ببقية الأمصار ... ومن بين أولئك وهؤلاء
أناس استطاعوا أن يرتدوا بأخيلتهم إلى الماضي ، وأن يركبوا جناح ذكراتهم
إلى مشهد خالد عسير نسيانه على الذاكرات . وأن تتسرب أبصارهم وآذانهم
خفافاً بين ألفاف الأعوام تطويها وهي تسير فيها القهقرى حتى تلم من كثب
على الزمان والمكان ... ها هو الستر قد انجاب وتبدى الموقف سافراً أمام
الأعين المتطلعة ، ناطقاً بأحداثه، يهمس للاذان المتهيئة ثانية للسماع بعد أن أوفت
الرحلة الزمنية بكل مسترجع مستعيد على المشهد القديم الجديد . وها هو اليوم
الذاهب في الغابر يعود حياً كهيئته الأولى ، شديد الهجير تلفح شمسه الوجوه
وترميها من لدنها بمثل ألسنة النار ... وها هي الجموع العائدة من حجة الوداع
تحث خطاها على طريق المدينة يود آخرها أن يسبق أولها فراراً من وهج الحر .
ولكن نداء رافعاً يحبسهم في أماكنهم ويدعوهم إلى الوقوف دون المسير . وينطلق
القوم صوب الداعي ، وتلتف به آلافهم المؤلفة عند غدير خم . ويلقون

السمع والبصر والفؤاد جميعاً إلى نبيهم وقد وقف يستظل من الشمس المستعرة بثوب علقوه على شجرة سمرة . . . ذلك يوم لم يغب عن الأذهان أثره ولا خطره ، جديرة صوره بالتدبر قول التذكر ، وبالادراك قبل التصور .

وعلى الملأ الحاشد ، وبين الجموع الزاخرة التى وقفت تنصت ، سرى صوت رسول الله عالياً ، ثابت النبرات يقول :

« . . . أيها الناس ، من أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم ؟ »

فارتفعت من كل ناحية أصواتهم تجيب :

« الله ورسوله أعلم » .

قال :

« . . . إن الله مولاى ، وأنا مولى المؤمنين ، وأنا أولى بهم من أنفسهم » .

ثم أخذ بيد على وهو إلى جانبه فرفعها حتى رؤى بياض آباطهما وعرفه القوم أجمعون . وأردف يتمم الحديث :

« . . . فمن كنت مولاه فعلى مولاه . . . اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه » .

كذلك استعاد الناس فى أذهانهم هذه الصورة الباقية من صور الماضى ووعتها خواطرهم إذ بشر فيهم ابن السوداء بتعاليمه الجديدة . وكان الرجل ماهراً فى عرض فكرته وماهرا فى الربط بينها وبين أثر مقدس لا يستطيع امرؤ نسيانه أو نكرانه ، فآمن بالفكرة من آمن بالرجعه ومن أنكرها على سواء وراح الكثيرون يستنبطون من الحديث النبوى تلك الدلالة السياسية التى أرادهم على استنباطها ابن السوداء .

ولكن إدراك الباحث جدير بأن يبز إدراك الجماهير ويصل دونها إلى قمة الحقيقة . . . ذلك أنها فى الأغلب أسيرة العاطفة ، لا تصدر فى حكمها إلا عما تنضوى عليه رغبات الجوانح . ولا تعمل إلا بوحى النفس المنساقة مع الهوى والميول . ولقد آنست العامة إذ ذاك فى دعوة اليهودى الصابئ الأداة التى بها ينهدم عهد عثمان وتنتهى المتاعب التى عانتها منه ورأت من

ورائها شمس الخلاص وشيكة البزوغ فـلم تمن باستقصاء ما هية الدعوة قدر أندفاعها إلى تقبلها ، مفتوحة الأيدى ، مرهفة السمع، راضية النفس إذ جاءتها تهبها التحرر والانطلاق .

أما الباحث فله معها شأن سوى رضاء الجماهير ، يميل به إلى نكران الدلالة التى استخلصها العامة وينحرف به عن التصديق . لا ريب هـذا حديث لا يعتوره باطل ، ند عن شفتى رسول الله باجماع الرواة ... ولكن المرمى السياسى من ورائه توشك أن تخفيه ظلال كثيفة . وإذا كان ابن سبأ قد نصب نفسه داعيه إلى حق على وقام يؤيد قوله بإثارة النص النبوى فى أذهان سامعيه ، فإنا لا نحسبه كان أكثر غيرة على الحق من صاحب الحق عليه . ولا أسرع إلى التماس الأسانيد المؤيدة لعلى من على نفسه . ولا أعرف بالوصية السياسية فى قول رسول الله من الرجل الذى أوصى بها له ... ولنا فى كلام ابن أبى طالب بعد غدير خم ما ينبىء عن استجازة هـذا الداعية اليهودى لما لا يجوز . وعن ركونه — فى سبيل أغراضه — إلى تدليل هو عين التضليل ، وكفانا أن نسوق الدليل من الحديث الذى دار — قبيل وفاة النبى — بين العباس وبين على .

قال له الشيخ إذ ذاك يستحثه :

« ... انطلق بنا إلى رسول الله ، فإن كان هـذا الأمر فينا عرفناه . وإن كان فى غـيرنا أمرناه فأوصى بنا الناس . »

فجاءه الجواب :

« والله لا أفعل ... فوالله لو منعناه لا يؤتيناه أحـد بعده »

فهل من رجل كان يعرف لنفسه حقـاً ثابتاً فى الخلافة بعد رسول الله يستحقه بالتعيين وعلى سبيل الإلزام لكافة المسلمين ثم يقول كما قال ابن أبى طالب ذلك الجواب الذى يحمل معنى احتمال استخلافه كما يحمل احتمال تركه على السواء ؟ .. كلا !.. بل هو جواب حاسم يسد الطريق على التقول ويخرس لسان المتأول ولا يدع من بعـد مجالا لفرية أفاك أو لتعصب نصير .

لسنا ننتقص بهذا من حق على فى الولاية السياسية ، ولـكنا نربأ أن نلتمس له أدلة معتسفة ... إن فضله بين صحاب رسول الله كان ثابتا لامرية فيه ، وإن علمه كان مأثوراً استقاء به كل أولئك الأعلام ، فكان لأمور دينهم ودنياهم الظل الأورف . وإن حب رسول الله إياه رفعه على رؤوس كافة المسلمين وبوأه مكانة عزت على سواه ... بهذا وبغيره من مزاياه الخلقية ونواحى شخصيته الرحيبة كان جديراً أن يصبح على رأس الدولة مذ اليوم الذى خلت فيه الدنيا من صورة ابن عمه الـكريم . ولـكنا — مع ذلك — نأبى أن نحمل النص النبوى أكثر من مبناه أو يـكون ابن سبأ قد أدرك المعنى الخفى فيه وأغفله على — وحاشاه .

ثم انظر من بعـــد كيف كان موقفه من أصحاب الشورى ، وعلى أى الدلالات دل خطابه فيهم حين قال :

« ... لو عهد إلينا رسول الله عهداً لأنفذنا عهده ، ولو قال لنا قولا لجادلنا عليه حتى نموت . »

فلم يعهد إذن رسول الله عهداً سياسياً ، وإنما عناها ولاية قد تعنى التعميم دون التخصيص . ووصية آلى بهـا قومه إن أرادوا أن يتجهوا إلى الخير أينما كان . وهى بوضعها لا تلزم الناس بأمير بعينه ولا تحمل فى طيتها معنى الإجبار ، بل هى إرشاد وتوجيه ولهم بعدها حـــرية الاختيار .

١٥

عبد الله بن عامر جعدى مجيد إلا أنه حاكم غير رشيد ... لم يكن بعد قد تم نضجه . ولم تـكسبه سنوات عمره القليلات الحنـكة التى يجدر أن يتصف بها كل موكول بقيادة شعب من الشعوب . حين بدأ حياته العامة بالبصرة همت آمال أهلها أن تنعقد عليه ، أو ليس نتاج اختيارهم وحده ؟ أو هو — على الأقل — الرجـل الذى أوصوا باختياره إلى الخليفة من طرف واضح أوطرف خفى ... أو لبست حداثة سنه قد أطمعتهم فى أن يـكون رخو

القوام بين أصابعهم يصوغونه على الشاكلة التي يريدون ؟ . . ولكن الآمال راحت تذوى مع الأيام ، لأن الفتى القرشي كان أيضاً قرشي النزعة كسلفه . ما كاد يستقر به مقعد الإمارة حتى ولى وجهه شطر قومه يتخير منهم ويحشدهم في مناصب دويلته كأنه لم يكسب عبرة من مصير الأشعري الشيخ .

على أن البصرة كانت خامدة كالرماد ، قد اختفى فيها الجمر تحت السطح البارد . . . لعل الفتى أمن أن تمتد إليه يد القوم بما امتدت به إلى سابقه مادام ينهج في سياسة الولاية نهجاً سلبياً لامغمز فيه لأى حاقد . لعله استراح لصلته الوثقى بأمير المؤمنين وعدها سياجاً يحول بينه وبين تذمر الجماهير . . . على أى حال قد كان صورة ناطقة لغيره من ولاة ذلك العصر الذين أبت طبائعهم أن تتغلغل بهم في نفسية رعاياهم ، ففاتهم بهذا أن يكشفوا عن الداء الكامن ويبادروه بالعلاج . وكان إلى هذا مفلول العزم غير حازم . جرده طبعه من ملكة الحسم وقوة البت في المشكلات التي نبتت تحت قدمية كالمواسج . . . ذلك أنه لم يكن يحسن إدراك الأمور أو يستطيع أن ينفذ سريعاً من خلال مقدماتها إلى النتائج التي لن تلبث حتى تترتب عليها . بل لقيها دائماً بلا مبالاة أو بعلاج كان في حقيقته كلا مبالاة . . .

يهذا تناول الدعوة السبأية ، فجلس في بادىء الأمر يرقبها بمين وسنان . ومضى بها اليهودى الأسود تحت بصره وأذنه يبثها في أرجاء الولاية ويغرس بذرتها في القلوب والصدور . ولو قد أتيح لابن عامر من التبصر ما هو قمين بأن يتوفر في عامل على أقليم لكان وسعه أن يفهم الخطر قبل أن يكشف عن أنيابه ، ولقتل الفتنة في مهدها قبل أن تستفحل ويستعصى أمرها على كل من أراد أن يخضد شوكتها أو يجتثها من أصلها الخبيث .

أجل كان بوسعه أن يقضى على تلك الدعوة الهدامة منذ اليوم الذى تبدت فيه للأذهان دعوة دينية خالصة لاتتصل بكيان الدولة من بعيد أو من قريب . وكان له — لو فعل — سند من الدين نفسه الذى لايجيز الرجعة لأنه لم ينص عليها في دستوره السماوى الذى وعته قلوب الكثيرين ، وفيهم بقية من صحب

رسول الله ، كان أحرى بهم أن يملوا من صاحب الرسالة المقدسة إن كان سيعود ثانية فى هـذه الدنيا إلى الحياة . . . ولكن الفتى الحاكم جلس يهوم كالوسنان كأنما الأمر لايعنيه ، أو كأنما أيقن أن دعوة ابن سبأ ضلال محض لن تلبث حتى تضل طريقها إلى نفوس النـاس . . .

وهكذا تنقلت البذرة الخبيثة فى أطوارها المختلفة حتى نضجت ثمرتهـا ، وراح صاحبها يسير بها فى طريقه المرسوم ويلف حوله الجموع التى لم تعوزها الرغبة فى الثورة وإن أعوزها حسن الأدراك . فلما رأى سبيله ممهدا لاتقطعه عليه قوة حازمة ، فرق أنصاراً له فى الأمصار يبشرون بتعاليمه ثم راح من بعد يرسم لهم خطة العمل بعد الكلام . . .

قال لأولئك الأنصار :

« . . . إن عثمان قد أخذها بغير حق . . . »

فأمنت على قوله الجماهير التى طمعت فى الخلاص من حكم عثمان ، ثم أرهفت لتعاليمه الآذان والأذهان . . .

ثم قال :

« ... هذا وصى رسول الله ، فانهضوا فى الأمر فحركوه ، وابدأوا بالطعن على أمرائكم . . وأظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تستميلوا الناس » .

ومضى صحبه يأتمرون بأمره فى كل مكان ، وتقبلت العامة بالأقاليم الإسلامية دعوته بخير قبول لأن نفوسهم المرورة من الحكم العثمانى كانت تربة صالحة لكل دعوة تحمل معنى الثورة ومعنى الانتقاض . ولم يكن يعنيهم إذا ذاك أن يجيئهم الخلاص على يد عبد زنديق بقدر ما كان يعنيهم أن يجيئهم ذلك الخلاص . . . بل عساهم نسوا الشطر الدينى من السبأية أمام حماسهم للشطر السياسى الذى مس من قلوبهم وتر السخط والنفور .

وانتبه أخيراً ابن عامر من غفلته كمن لذعته نار . . . ولكن زمام الموقف كان قد أفلت من يده ، فلم يكن بالهين الآن قمع الداعية الداهية . لأنه لوحاول هذا لقاومته الجماهير ، ولوجال بخاطره أن يرد شكاستها لأعياه الأمر ولكان

متمجلا للفتنة ، نافخاً فى الرماد ، حتى يؤرثه سعيراً مشبوب الأوار .

لكن خاطره أسعفه بالوسيلة التى اتسم بها العصر كله كأداة معروفة لكبح الدعوات وقمع الدعاة ... فليخرج الرجل إذن من البصرة وليرسله بعيداً عنها إلى إقليم سواها ليأمن خطره على أهل إقليمه ... وليهم هو بعد ذلك قرير العين مرتاح البال .

هذا والله أسلوب فذ فى معالجة الأدواء ... ولكنه الأسلوب المعمول به طوال حكم عثمان ... كذلك فعلوا بأبى ذر حين أعضلت بهم دعوته . وكذلك يفعلون بابن سبأ وبمثله سيتناولون كل داعية قام ينادى بفكرة أو يحض الناس على اعتناق مبدأ أو تأييد ثورة .

أهو التفكك بين أقاليم الدولة بعضها وبعض ، حتى إن الإقليم منها كانت لا تعنيه السلامة العامة للدولة بقدر ما تعنيه سلامته الخاصة ؟ .. أم هو يا ترى قلة شعور الحكام بواجبهم تجاه الأمة جمعاً وحسبانهم أن مسئوليتهم تنتهى عند حدود ولاياتهم وحدها ؟ .. من عجب أن يتناول ولاة ذلك العصر كل دعوة خطرة تدهم أقاليمهم بمثل هذا العلاج . وأعجب منه ان يقرهم عليه عثمان ... لكأنهم جميعاً كانوا ضالعين مع أولئك الدعاة فمكنوا لهم من نشر مبادئهم فى كل مدينة لم تعرفها ولم تأخذ منها بنصيب ... قد كانوا كمن نصب نفسه لكفاح وباء فلم يحصره فى أضيق نطاق بل خلى بينه وبين كل الآفاق يستشرى فيها وينشر عدواه .

بمثل هذا السلاح حاربوا ابن سبأ ، ولو علموا لأدركوا أنه ليس فحسب سلاحاً مفلولا لا يصيب مقتلا من فريسته بقدر ما هو سلاح مردود إلى نحور الضائقين به . وهو حينئذ قاطع شديد الصلابة عديد الذؤابات .

وخرج الرجل من البصرة منفياً ... لكأنى به قد استغرقت وجهه كل بسمة لا تخفى سخره وفرحته حين تأهب لدخول الكوفة ... لكأنى به — فى خاطره — قد راح يردد آيات الشكر لمناوئيه الذين أخرجوه ...

ألم يعملوا من لدنهم على انتشار الوباء ؟ . . ألم يتيحوا له رحلة هى أجدى على دعوته من قعوده بها حيث كان ؟ . . ألم يهيئوا له أرضاً أخرى يغرس فيها مبدأه ويتعهد بيديه بذوره ليثمر ؟ . . إن أنصاره بالأرض الجديدة لأحرى بهم أن يضاعفوا الجهود حين يرون بينهم قائدهم حتى يصيبوا المرجو من غايته وغايتهم . . وأنه إذن لأدنى إلى انجاز مايريد .

وكما أخرج من البصرة طردته الكوفة . طرده منها سعيد واليها المزهو بجنسه وقومه . إن هذه البلدة كانت أخصب من أختها ، تربتها أدنى إلى استنبات التمرد ، وأهلها أسرع إلى تقبل الدعوة الهدامة والسير بها نحو غاياتها المشوبة ، ولكن ابن سبأ رضى بنصيبه من سياسة التشريد ثانية ، ومضى بوفاضه الملىء بالخبائث إلى الشام — الأرض التى احتواها معاوية فى قبضته .

فى ذلك العصر كانت المدينة — حاضرة الدولة — تكاد أن تغض طرفها إكبارا لدمشق . وكان ساستها يوشكون أن يترسموا الأساليب التى ابتكرها واليها . . . قد كان حقاً رجلا خبر زمانه فوسعه أن يخضع شعبه لسلطانه . ولكنه مع هذا لم يأت من لدنه بجديد ، بل عرف نوازع الشر فى النفوس البشرية فاستمهد النفوس بنوع الشر الذى تستجيب له . وكان جارا للروم على حدوده مازالت صروح ملكها قائمة . ونظامها الذى دان له العالم عصورا طويلة ما فتىء يستمد حياته من شرعة الدنيا ونفس الإنسان . فلم يكن الحكم بها للأخلاق . لا ولا للنواميس المثل السامية التى يجدر أن تستلهمها البشرية وتسير على ضوئها لتبلغ الخير والكمال ، ولم يكن أيضاً هناك دين مرفوع الصوت يكبح جماح الناس ، بل الطبائع البشرية هى الحاكم المسيطر ، والسلامة إذ ذاك لمن سار فى غمارها كما يسير عود جاف فى تيار ماء .

هذا درس فى الحكم كتبته الروم ، ووعيه معاوية من جيرانه ، ووعيه معه شعب قريب عهد بقانون الأخلاق الذى أرشد إليه القران . هو من قبل ومن بعد له مظهر جذاب يستهوى الآدمى الذى لم يتحرر من قيود

آدميته أو قيود حيوانيته على أبسط تعبير . وهو جدير بأن ينساق إليه كل من يؤثر السلامة من أهون سبيل ، فما من شك أن طريق الأخلاق هو الطريق الوعر ، وقمع الرغبات أشق على نفس المرء من إطلاقها بغير حدود ، أوبقيود هينة لا تصد العاطفة ولا تحبسها فى نطاق المثل العليا أو نواميس الدين . ولم يكن معاوية — فى الواقع — حاكماً إنسانياً يتوخى غاية الإنسانية فى أخص معانيها وأسماها بقدر ما كان آدمياً تخضع سياسته لعواطف الآدميين . ولم يلتزم نهجه هذا عن معرفة بطبائع النفوس بقدر ما كان يستجيب فيه لوحى نفسه هو وميول طبيعته المجبول عليها ، فليست حنكته الإدارية مكتسبة كلها . بل هى ناحية من نواحى نفسه الطليقة المنساقة مع الدنيا كذلك العود الذى يجرفه التيار. ولقد آثر السلامة فحرص على أن ينالها من أهون سبيل وأخضع سياسته كلها لنزعات النفوس حتى يأمن أن يستقيم له الأمر . وكانت الحدود التى رسمها الإسلام للأخلاق تلقى لديه — بوصفه حاكماً إسلامياً — كل تبجيل وإكبار. ولكنها لم تلق منه المترسم لها ، السائر على نهجها فى كل الأحايين . إنما كان الربح المرجو والغرض المنشود غايته المثلى ، وما كانت المعايير الخلقية لديه إلا نوعاً من المعايير يزن به الأمور إن أعوزه أن يجد لها كفاء فيما تعرفه طبيعته الآدمية من معايير .

هذا هو الرجل الذى كانت تتطلع إليه المدينة ، ويتطلع إليه ساستها كلما حزبهم أمر وأعياهم أن يقفوا له فى وفاضهم على دواء . لقد بهرهم جميعاً نجاحه وأكبره فى نظرهم أن ظلت ولايته ساكنة لا تعتمل فيها فورات ولا ثورات. وكان هو هادىء الطبع لا يكاد أن تحركه الخواطر الجامحة التى انتشرت بغير الشام فضلا عن أن تفزعه أو تثير قلقه. ذلك أنه كان يؤمن بالنفس فآمن بالمادة أشد إيمان . ووسعه من وراء إيمانه هذا أن يوطد ملكه ويضمن سلامته، لأن قيادة النفوس لا تتطلب الجهد اللازم لقيادة الأرواح ، وبحسبه أن يستعين بالرشوة وبالكذب وبالخداع ليستعبد كل من تستجيب نفسه لأمثال هذه الشرور .

ارسلوا إذن إليه ابن سبأ ، وفى ظنهم أن الوسائل الأموية بالشام كفيلة بقمعه وتأديبه . ولكنهم نسوا أنهم وذلك الحاكم الأريب الرشيد أمام رجل يسيره مبدأ ولا يستعبده عرض . وأصحاب المبادىء دائماً هم أصحاب عزائم تعجز دون ثنيها أو ترويضها كافة العروض . ولقد عرف معاوية القلق إذ ذاك ، وثارت فى نفسه عوامل شتى من الخوف والإشفاق على ولايته أن يلفها الداعية فى برده . ثم زاد به قلقه حتى أوفى على حد الجزع حين بلغه أن ابن سبأ قد ألب عليه صحابياً جليلا لا تملك الأسماع النافرة من صاحب قصة الرجعة إلا أن تميل له . وإذا كان هناك الحاكم قد اطمأن نوعاً إلى إدراك الناس وما يحتمل من انحرافهم عن تصديق اليهودى الأسود ، فإنه أيقن أنهم أمام دعوة أبى ذر ليسوا كذلك ، فلم يكن هناك من يرى راعى الفقراء بأدنى شبهة ، أو يستطيع أن يحول بين الطبقات المحرومة وبين تصديقه . وما دام معاوية اليوم فى ميدان تصطرع فيه سلامته الشخصية كأمير وسلامة الدولة كلها كوحدة ، فإنه إذن لا يعوزه التفكير لاختيار الطريق الميسور. وأحسبه قد سارع فاختار لأن كفاح المبادىء قد يصل به إلى النجاح ، وقد يصل به إلى خسار .

أجل شق عليه أن يقمع المبدأ الهدام وإن كانت سلامة الإسلام كله فى قمعه . وآثر أن تبقى له إمارته قائمة تدين له فجنح إلى الحل الذى مال إليه كل أمراء الدولة إذ ذاك لا فرق فيهم بين ضعيف وقدير . وكما فعل ابن عامر من قبله ، نرى أمير الشام قد سارع إلى نفس الأداة التى توسل بها صاحباه فأخرج ابن سبأ إلى ما وراء حدوده ليؤمن هو ملكه ، وليستطيع من بعد أن يعيش قرير العين مرتاح البال .

وكذلك انتهى المطاف بالسبأية فحط شيخهم رحاله بمصر ، وأخذت دعوته بها تنمو مع الزمن ، وتهيمن على النفوس المتمردة بكافة الأقاليم الإسلامية ، ثم تنتشر انتشاراً نامياً على يد الرسل والرسائل ، وتمد سلطانها فى البلاد كما تمتد أذرع الأخطبوط !

١٦

حصار من الأحداث والاضطرابات الفكرية ضرب نطاقه على الدولة الإسلامية ولفها من أقطارها كأنها فى ثوب ، تبدت منه حاضرة ملك عثمان كما يبدو من بين الموج الثائر وجه غريق. الرجل أمامها حائر. مضت الآن فترة الطمأنينة المفتعلة التى بثها فى نفسه مشيروه أعواماً ، وغلب على قلبه الطيب قلق أكال على مصير أمته . حتى فى عقر داره لم يعد يامن أن تناوشه اضطرابات أخر . بل إنها ناوشته فعلا . وراحت تحز جنبيه . فما كانت المدينة بالمكان المادى ، وما أصبحت الإمارة بالمقعد المستقر الذى يرتاح إليه . . . حقاً إن الدعوة السبأية لم تجد لها مرتعاً فى حاضرة الدولة ، ولكن أبا ذر كان قد حرك فى نفوس الفقراء جرثومة الحسرة التى تورث النفور ، وأخذ العبيد والموالى بها تفور بخواطرهم انفعالات الغضب من أجل حقوق لهم مرجوة ولكنها ضائعة ، وانبرت عيونهم وآذانهم تتربص بكل كبيرة وصغيرة يأتى بها الحكام عسى أن تجد فيها مادة للتذمر . والسادة أيضاً ملأتهم المرارة لأسبابهم الخاصة ، وأصحاب الدين العازفون عن عروض الدنيا وسعهم أن يشعروا بالأسف على ما آلت إليه الأمور فى هذا العهد . وأن يعزوا التدهور الخلقى الذى غزا النفوس إذ ذاك إلى ضعف الخليفة ووهن قبضته ... كان مما لا يعابون عليه أن تروح نفوسهم فريسة لهذا الإحساس لأنهم يؤمنون أن حالة الشعب ليست إلا مرآة تنعكس على صقالها قدرة الحاكم ، ولقد عانى الشعب أنواعاً شتى من الآلام انبعثت عنها شكاواه ، ولكن الذى أصبح جديراً بأن يثير قلق كل مسلم غيور على دينه أن يتدلى الناس إلى حضيض الأخلاق الذى كافح الدين طويلا حتى انتشلهم منه ... ألم يفش القمار بين الشبان ؟ ألم يجهد المترفون ليبتكروا صنوفاً من المراهنات استهوت النفوس الضعيفة ؟ ألم يتنافسوا فى الرمى عن الجلاهقات وفى طيران الحمام فى مباريات كانت تقود إلى

ربح وخسارة تأباهما روح الإسلام ؟ . . هذه ألوان من العبث كانت بلا شك للشام اليد الطولى فى بثها بأرض الجزيرة . فمن بلاد الروم أقبلت ومثيلاتها تخترق التخوم والحدود ، ومن مستقر معاوية انطلق خطرها يغزو النفوس التى سرها أن تتحرر ثانية من عقال الأخلاق لتساير سجيتها الآدمية النزاعة إلى الهوى ورى الغرائز . . . لم يكن كفاحها الضعف البشرى فى ممتنقيها كفاحاً مريراً بل كان هيناً أشد هوان . فقد انقضى عهد سيادة الروح إلا قليلا وبدأ العصر الذى أصبح فيه المستمسك بدينه كمن تقبض كفه على جمر . وكان الجيل العف قد أخذ يودع الحياة ويخلى مكانه لجيل من نوع آخر ، بهرته الدنيا الخارجية، واستهواه زخرفها البراق وفتنة المظهر التى قاربت أن تسود كل شىء ... وكان الشباب الموشكون أن يرثوا الدولة بعد بناتها الأول خليطاً من دماء شعوب وثنية أو أخرى لم يبق لها من دينها السماوى المنسوخ إلا بقايا تافهة لا تستطيع أن تمسك الحياة الروحية وتحفظها قائمة . وكانوا أيضاً ودائع فى أيدى أمهات من السرارى جىء بهن من البلاد المغلوبة ولسن على أسس من الخلق قويمة كتلك التى دعا إليها الإسلام ولا تنطوى جوانحهن على احترام حق له . . . وهل الشعب بعد هذا سوى الأمهات ؟ .

على أن عثمان — فى الحق — لم يغفل دينه ، ولم يدع هذه الشراذم المفتونة تعبث فيه كما تشاء حرة طليقة ، بل أدى رسالته لربه ، وراح يقمع العصاة جاهداً ليردهم للجادة ، فما كان بالمتهم فى غيرته وحرصه على أصول الإسلام ، ولا بالذى ينام على أمثال هـذه الفتنة وإن نام على فتنة السياسة ، ولقد لقى عنتاً فى كفاحه هذا لأنه كان يحارب نفوساً جرى فى دمائها التهاون والاستهتار بكل تقليد نبيل ووضع قويم ثم من بعد بكل محرم مقدس . ولكنه لقى أيضاً عداوة له مدفونة فى قلوب هـذه الفئة التى شن عليها غارته وحرمها حقها المزعوم فى الحياة الملونة التى ارتضتها ، وأوشك أن

يصبح لها هي الأخرى موقف منه ، لا يبعدها عن صفوف خاذليه .

ولكن هذا الكفاح — على صدقه — لم يلق جزاءه ، ولم يتقبله الناس القبول الحسن الجدير به ... وهل كان بمقدورهم أن يفعلوا ؟.. هل كان بوسعهم أن يتلقوا جهاد الشيخ بالثناء وهذه شخصية إسلامية كبيرة ، لها في نفوسهم منزلة لا يكاد أن يرتفع إلى شأوها سوى قليلين ، ما برحت ترميه بكل ما يثير نفوسهم عليه ... إنهم ليعلمون لها في الدين سابقة ، وفي حفظ تراث محمد الروحي يد ومأثرة ، وفي بلوغها من العلم مدى يجعل لرأيها في عثمان قوة الحكم الدامغ غير المنقوض ... أولست هي من أوصاهم رسول الله بأن يلتمسوا لديها الهدى في شئون دينهم إن أرادوا الهداية ؟ . . ألم يقل لهم حديثه خذوا عنها نصف دينكم ؟ . . بلى . هي كل هذا وأكثر منه ... إنها زوج محمد ، الزوج الأثيرة عنده من بين نسائه ... إنها ابنة صاحبه الصديق التي تربت في أحضان الدعوة ، وما كان لمثلها أن تتهم بغير علم ، وما كان لها أن تقول في عثمان إلا حقاً صافياً غير مشوب .

ها هي قد نأت بجانبها عن الشيخ نفوراً وموجدة ، وراح لسانها ينال منه ، لم يعد الرجل في خاطرها الآن أميرا للمؤمنين ، ولم يعد الغيور على حرمة الدين ، بل هو لم يعد مطلقاً ذات عثمان المبجل القديم ... في سخريتها مجال لنعته إذن باللفظة التي تجنبها ذكر اسمه لأنها أصبحت تعاف أن تنطق به . . . وفي علمها المأثور عن زوجها الكريم ما يزري بكفاية هذا الخليفة — هذا النعثل — إن أريد أن يقاس مدى علمه بدينه الذي أؤتمن عليه . . . نعثل ... نعم فما أشد انطباق هذا الاسم الجديد عليه ! . . وما أقوى دلالته اليوم على صاحب الأمس الذي لم يبق منه إلا مظهر خارجي تنم عنه هــذه اللحية الضخمة ذات الشعر الملتف الكثيف !

فقد الرجل إذن — في نظر عائشة — مخبره القديم وإن استبقى الهيئة الظاهرة السطحية ، كمثل الأبرص لا يزينه حسن برده . . . ومضت هي في غضبها عليه تبث في النفوس دعوتها الناهضة . ولقد هداها فكرها إلى نوع من

التأليب أشـــد أثرا وأبلغ نفوذا إلى النفوس والأذهان ، فسارعت إلى قيص لرسول الله فنشرته بينها كلما مر به امرؤ قالت له .

« هذا قيص رسول الله لم يبل وقد أبلى عثمان سنته . ! »

فهل من سامع لهذا الـكلام يستطيع من بعد أن يحسن الظن بكفاية الخليفة فى رعاية الدين وحفظ فروضه وسننه إن وجد إلى اليوم من كان يحسن الظن به فى رعاية شئون الناس وحسن قيامه بأمور دنياهم ؟...

ومع هذا فلم يقف نشاط عائشة فى دعوتها للتخذيل عن عثمان عنـد المدى الذى ساقها إليه حرصها على كيان الدين ، بل احتضنت مع الزمن الدعـــوة السياسية التى أخـذت تعمل لهدم الرجل وهدم سلطانه . هى فى هذا كانت لا ريب مدفوعة بحرصها على أن تملأ مقعد الإمارة الإسلامية بمن تظنه جديرا به ، وأشد غيرة على الواجب الدينى والدنيوى من ذلك الأمير المغضوب عليه . ولـكنها فى اندفاعها نسيت واجبها هى كأم للمؤمنين عليها أن تدعو إلى السبيل الأقوم ببث الحب والحـكمة دون العداء والتفرقة بين أبنائها المسلمين . ونسيت أيضاً مكانتها فى الناس كزوج لرسول الله تتطلع إليها عيونهم فى توقير لا يمكن أن يتوفر لها إن آثرت السيرفى غمار الأحزاب . غير أن الشعور بالتفوق حفزها إلى الاستزادة منه . وطاقة النشاط التى انبعثت عن شبابها ، وما كانت فيه من فراغ لا يشغله ما يشغـــل المرأة عادة من ولد أو زوج ، قد اجتمعت كلها عليها لتبذل بدلوها فى الشئون العامة وقد حرمها الزمن أن يكون لها شأن خاص تقف حياتها عليه . . .

نفضت عائشة عنها خمول البيت ، ووحشة الوحـدة ، ومضت لطيتها إلى ميدان أولى به نشاطها وحيويتها عسى أن تـكون لها يد فى رسم مصير الشعب الذى أحبته باللون الذى ترتضيه . ولقد دفعتها الأحـــداث أمامها كما يدفع السيل المنحدر صخرة ، فلم تستطع التمهل ولا التريث . ومضت فى النهار حتى آخر الشوط ، ولـكنها كانت تهدف بلا ريب إلى الخير لدينها ولأمتهـــا حسبما دلتها نظرتها إلى الأمور ، وان أخضعت هذه النظرة لطبيعتها الأنثوية .

فلم تغفر قط لعثمان أن تناول سنة زوجها بالتبديل والتغيير . وقامت لهذا تشنها عليه حربا شعواء لاترضى من نتائجها بأقل من خفضه عن مقعد الحكم الذى خلف عليه رسول الله ، بل إنها سارت بحنقها إلى مداه حتى جاهرت بالرغبة فى أن ترفع بصرها فلا تراه فى هذه الحياة الدنيا ، ولو كان لها فى ذهابه عنها نصيب ... قالت تكشف عن حقدها عليه وقد علمت أن وفود الثوار أقبلت لحصرته فى داره حتى لايعلم إن بقى له أمل باهت فى الخلاص .

« ... والذى نفسي بيده ، لوددت أنه الآن فى غرارة من غرائرى مخيط عليه فألقيه فى البحر الأخضر . .. »

ولكن طبيعتها الأنثوية التى جنحت بها هذا الجنوح الموغل فى الإسراف للاحتقاد على الرجل الذى وتر زوجها فى سنته ، كانت هى نفس الطبيعة التى أفعمت من بعد قلبها بالرحمة له حين وجدت الناس قد تكالبوا عليه فقتلوه . لاعجب فى رحمتها تلك ولا فى الخطة المعادية التى اتخذتها حيال شراذم الثوار وإن كانت هى نفسها قد أمدت الثورة المندلعة بكثير من الوقود . بل العجب فى أن تظل فى مكانها حيث كانت فى صفوف المناجزين العتاة .. إن قلبها أكبر من أن ينقاد أبدا لغضبتها الجامحة بغير عنان ، وإن نفسها الطاهرة لم تعن مطلقا ما كان لسانها ينطق به فى ساعات انسياقها للغضب الفوار ، وإن عاطفة الأنوثة الفياضة لأولى بها أن تبدو فى صورة الأمومة الحانية التى يتسع حنانها لكل إنسان ، وهى أم المؤمنين ، وعثمان أحد أولئك الأبناء الذين شملتهم أمومتها الجامعة . ثم هو أجدر بأن يتقطع له قلبها أسى لأنه من أولئك الأبناء الضعيف الواهن المهيض الجناح .. وهل هناك أولى برثاء الأم ودمعها من ولدها المصـــاب ؟ .. وهلا تمحو نكبتها فيه كل ما أحسته نحوه من سخصها القديم ..؟

أجل كان قلبها الكبير أجدر بأن يوسع للرحمة حتى تطرد الحقــد من نواحيه ، ولقد فعلت عائشة كما تفعل فى موقفها كل انثى أمينة على عواطف الأنوثة لم تجردها الأهواء من خصائص طبيعتها الرقيقة . ولم تكن فى هذا

تصطنع الحنان بل الحنان غمر فؤادها كالسيل . ولعل الندم هو الذى اقتحم على قلبها باب الرحمة المخزنة ولعل المحنة الواقعة هى التى تناولت بكفها القوية نفسها فجلتها وخلصتها من صدأ الضغينة .. ولكنها فى كلا حقدها ورحمتها لعثمان كانت لاتعمل إلا بوحى عواطف نبيلة ، من بينها الولاء لسيرة زوجها الحبيب الفقيد ، والحزن الفاجع لمصرع الخليفة الشهيد .

على هـذا النحو يفهم ما كان من عائشة حق الفهم فلا يبدو فيه تناقض كثير . وبه يستطاع أن يبعد عنها بعض اللوم فتجنب عسرة الحساب عند الوازين ، فأحق منها بالزراية من عمل عن غير عاطفة شريفة كريمة وان سار وإياها فى طريقتها يلتمس مثلها نفس الغايات .. أحق منها بهذه الزراية ابن النابغة عمرو بن العاص الرجل الذى كان فى ذلك الزمان عبدا لنوازع الشر التى ملأت نفسه . فلغير غرض نبيل ناجز عثمان وراح يؤلب عليه ، ولغير عاطفه كريمة قام يناضل عن دمه أو يبدو كمن يعمل جاهدا ليثأر له . بل انطلق فى البدء جامحا تستعبده المادة حتى أسرف فى تحريض الناس وبذر الحقد فى قلوبهم على الخليفة ، ثم ارتد فى النهاية — وقد أينع ثمره الخبيث — تستعبده المادة أيضا ، فمضى يستنهض الدموع والبكاء ليثأر لضحيته كمن دفعه الولاء والوفاء .

هذا رجل أخضع النبل الإنسانى للغرض الشخصى حتى لم يعد هنالك نبل معلوم يجيش بصدره ، ولم تعد بقلبه عاطفة كريمة ينبض بها عرق واحد فيه .. بل هو كافح لتدعيم النفعية لأنها أجدى عليه من قداسة الخلق الفاضل وصفاء النفس الشفافة . كان صورة أخرى لسيده معاوية كأنهما أصل وخيال . لم يرع كلاهما إلا الغرض الذى يدر عليه الربح المنشود ، ولم يلتزما فى حياتهما العامة المقاييس الخلقية الشريفة لأنهما علماها عند قياس المادة تبوء بخسران .

كذلك كان عمرو ، وهذه نفسه التى جبلت شرورها فى البدء للأخذ من عثمان ثأرا للنفع الذى حرمها الخليفة إياه .. وهل كان بوسع عبد الأهواء والنزوات أن يغفر لأمير المؤمنين أن قد سلبه مقعد إمارته بمصر

فمطله من مناط فخره ومصدر مجده وعزه .

قدم المدينة بعد عزله عن ولاية مصر ، ومضى يخوض في سيرة الخليفة ويطعن فيه ما شاء له حقده وشاء هواه . فدعاه عثمان إليه يؤنبه على ما كان منه ويعنف له في المقال . . قال له :

« يا ابن النابغة . ما أسرع ماقمل جربان جبتك . . إنما عهدك بالعمل عاماً أول . . أتطعن على وتأتيني بوجه وتذهب عني بآخر ؟ »

فأجابه الرجل وقد أخزاه أن يقف عثمان على مراءاته :

« إن كثيراً مما يقول الناس وينقلون إلى ولاتهم باطل . فاتق الله في رعيتك يا أمير المؤمنين . »

فلم يكن لمداهنته أثر في نفس الخليفة يمحو الشعور بالغضب عليه . فقال له مقذعاً في الخطاب :

« والله لقد استعملتك على ظلعك وكثرة القالة فيك » .

« قد كنت عاملا لابن الخطاب ففارقني وهو عني راض » .

« وأنا والله لو آخذتك بما آخذك به عمر لاستقمت . ولكني لنت عليك فاجترأت علي . . أما والله لأنا أعز منك نفراً في الجاهلية وقبل أن ألي هـذا السلطان » .

« دع عنك هذا فالحمد لله الذي أكرمنا بمحمد وهدانا به . . قد رأيت العاص بن وائل ورأيت أباك عفان ، فو الله للعاص كان أشرف من أبيك » .

ومع ما بلغ من تهافته آونة على الاعتذار ، وإمعانه ثانية في الانتصار لنفسه من التهم التي كالها له الخليفة ، فإن الرجل لم يرعو عن غيه ، بل اندفع يحدوه حقده الذي أبى عليه أن يغفر لعثمان عزله من منصبه . وراح يعـلا النفوس بالتـذمر ويبذر فيها — انتقاماً لنفسـه — بذور السخط على أمير المؤمنين . لم يسلم من بثه أحد كان بالمدينة حتى ابن أبي طالب أيضاً والزبير وطلحة . . ثم أخـذ ينطلق في موسم الحج فيختلط بالناس الآتين من كل فج وقطر فينفث فيهم سمومه ، ويعترض سبيلهم ينبئهم بأخطـاء عثمان . . .

ولعل خير صورة ترسم لنا جهوده المادية ماقاله هو عن نفسه غب مقتل عثمان :
« . . إن كنت لأحرض عليه حتى إنى لأحرض عليه الراعى فى غنمه برأس الجبل » .

بهذه النفسية عمل عمرو . وبها حارب الخليفة ، ثأراً لمنصب الإمارة بالفسطاط . ولهذا المنصب نفسه راح بعد المصرع يبدو أمام الناس داعية يريد أن ينتصف لعثمان .

ماذا بقى بعد هذا لا يؤجج النار حول عثمان . . ولأى دعامة من الدعامات استند منصبه ، أو ملكه ، أو الخلافة التى كانت فى البدء ذات أساس روحى يمنوله وجه الدنيا فأصبحت اليوم مظاهرة دنيوية تخضع لكل نزوات الإنسان . . الأحداث تلاحقت واصطفت كما اجتمعت سحائب دكناء فى جوانب الأفق منذرة بعاصفة . . والشعب فى أقطاره التى باعدت بينها المسافات ، قد ألف بين قلوبهم نفورهم من العهد الملول . . والقدر أيضاً مد أصابعه لينسج خيطه . يتهيأ الناس دائماً للثورة بضغط عوامل مادية شتى تدفعهم إلى تغيير ماهم فيه . ولكن قوة الأثر المعنوى الذى ترسبه فى نفوسهم هذه الماديات هو وحده الذى جعل من الثورة حقيقة واقعة تدمر ما أمامها ولا تأبه لما يعترض سبيلها من حواجز وسدود . وقد توفرت الدوافع النفسية المدمرة فى عهد عثمان . وبدت جلية فى سخط الفقير المحروم . وفى غضبة المظلوم المهضوم . وفى مطامع أصحاب الأهواء الذين أذلهم عرض الحياة . ولكن القدر أبى إلا أن يشتد فى حبك خيوطه لتزيد الأنشوطة متانة . وكانت المادة التى اتخذها قوام نسجه هى النفس. وكانت النفس طيعة يسير صوغها فى ذلك الزمان . لا تكاد أن تثبت أمام نزوة أو عاطفة . . لقد شاء القدر أن يبدأ عثمان حكمه بإثارة استنكار الناس حين خطا إلى المنبر فاقتعد نفس الدرجة التى كان يقتعدها رسول الله . هو بهذا لم يعن الاستعلاء على سلفيه العظيمين . ولا التطاول إلى مقام محمد الذى لا يبلغه أحد قبله أو بعده . إلا أنه كان عملا لم يتعلق به عواطف الجماهير .

بل أصابها بجرح احفظها عليه لأنه مس — فى نظرتها — معنى القداسة التى كانت تؤثر أن يظل منفرداً به شخص رسول الله . ولئن كانت الأحداث من بعد قد تواترت سراعاً حتى أوشكت يدها الآسية أن تخفى الجرح القديم وتلفه فى رباط النسيان ، فإن القدر مد أصابعه ثانية ليكشف عنه ، وليعبث به وليرتد به دامياً يحز النفوس ويعيدها للذكرى المرة .

وكان الرجل سيء الحظ — فيما يبدو — تألبت عليه القوى جميعاً وفيها المصادفات .. وكما عثر به نجمه ساعة استخلافه وقاده شؤم الطالع إلى تلك الدرجة من منبر الرسول . فكذلك شاءت له تعاسته ذلك اليوم حين جلس ساهياً بجوار بئر أريس . ينبش التراب لغير غاية إلا العبث بلحظات فراغ . ولم يكن ملقياً بالا إلى شيء . فغاب عنه أن ينتبه إلى خاتم الرسول ينزلق من أصابعه. فلما ثاب ووسعه أن يتبين الأمر انقبض صدره وبدا الجزع والأسى فى عينيه .. ولكن جهده فى البحث لم يرد إليه الأثر المفقود . وضاعت معه أيضاً جهود من أمرهم بنبش التراب حول المكان وبالغوص فى مياه أريس .

وتطير . والعرب كلها أمة تتطير وتكاد أن تستنبط الشؤم من كل مظهر ، والعامة منها أولى بأن تتحكم فيها القوة الغامضة التى تنشأ عن أمثال هذه المظاهر الصغيرة وتكون لها فى نفوسهم قوة العقيدة . وقد ذهب الناس بهذا الحادث مع التشاؤم إلى غايته . وانقبضت صدورهم له . وصورت أوهامهم نتائجه فى صورة حملت إليهم الجزع والانزعاج .. على أى حال عادت ثانية إلى أذهانهم قصة المنبر وما استخلصوه منها من معانى العبث بالقداسة التى أضفتها شخصية الرسول على كل آثاره . ثم وسعهم بعد هذا أن يسترجعوا صورا شتى من الماضى . بارزة الجمال والدلالة . لها فى نفوسهم آثار بعيدة الأصول . . . وأن تتجمع فيهما ذكريات حبيبة ذكروا بها محمداً وذكروا عهده ، والأيام السعيدة التى أهنأتهم . والحوادث التى كان لها فى بناء الدولة كيان . وفى كل صورة من هذه بدا لهم الخاتم قطعة منها رائعة . له قداسة صاحبه . وله السحر الذى التف به كالهالة كلما ذيل به محمد

موثقا من مواثيقه أو كتابا من الكتب التي كان لها يد ماهرة في رسم رفعة الإسلام . وبقيت له قداسته بعد محمد ببقاء الذكرى . وبقي له أيضاً سحره الذي أورث اليمن والبركة كل صحيفة طبعها بطابعه . وكل عهد مكتوب ختمه به الشيخان أبو بكر وعمر في عهديهما الرخيين على الأمة .. أفآن اليوم أن تختتم هذه الصحائف المجيدات .. . وهل انقضى زمن الخير .. وهل آذن ضياع الخاتم بحلول عصر ليس له من عصر النبي وصاحبيه نصيب ؟

كان حريا بالنفوس أن تأسى عليه وتحزن لضياعه وأن تتهيب مما عسى أن تأتي به الأيام بعد ذهاب عنه . وأن تشفق من المستقبل وتخشاه ثم ترتد بالحنق على الرجل الذى أفقدهم عبثه هذا التراث الميمون . وكان أولى بها أن توغل بحنقها إلى السخط البالغ . وبحزنها إلى الجزع المشفق على التطير . وقديماً غالى العرب في استنباط الشؤم من أوهن الظاهرات . وهم اليوم أقرب إلى طبعهم وأشد خضوعاً له وهم يستحضرون في خواطرهم صور عهدين فلا يسلم آخرهما من سمات مادية منكرة مهدت لكرههم إياه وتطيرهم منه . .

ومن عجب أن يكون هذا الشعور الذى انقبضت به صدور القوم صادقا تمام الصدق . وأن ينبيء عن الحقيقة الواقعة التي أسفرت فيما بعد عنها الأيام . فلقد وقع ضياع الخاتم في عام انقسم به عهد عثمان شطرين أحدهما صالح مرضي عنه ولى مع ماسبقه من عهد رسول الله وعهدى خليفتيه وكلها كان على الأمة ذا جدوى معلومة . والثاني ثقيل مكروه استفتح زمان الخلافات وانطلقت من بعده الفتن تنوش القلوب والشعوب . وتصيب الإسلام من المتاعب والويلات بما هاض جناحه . وانتهى بحكمه إلى الوهن الذى هو عليه الآن . . . .

١٧

أينع الغرس . وتدلت ثماره المرة ناضجة تنتظر القطاف . وكانت الكوفة أول الأقطار التي بادرت للاجتناء ..

كانت تلك ليلة مشهودة ، لها ما بعدها من ليال كثيرة الحادثات . امتدت فيها اليد القاطفة إلى الفرع الدانى .. وكانت يدا متمرسة قوية لم ترهبها الأشواك . أقبلت فجردت الغصن وجنت الثمرة بلا تردد لأنها رأت لها فى الجنى حقا .. إنها يد التحرر المقتحمة التي لا تلين للصعاب . يد القومية التي تدين بكرامة الحياة وإن كانت فى ظل عذاب . يد البلدة التي أحست بذاتها وعلمها نضج شخصيتها كيف تأبى الخضوع للذل وإن عاشت فى أكنافه على الذهب والحرير .

هبت الكوفة . ونفضت عنها سباتها القديم . فقد نضج فيها الوعى القومى وتهيأت روح التحرر للانطلاق . وآن أخيراً لأهلها أن يغضبوا لكرامتهم أن يمشى عليها عزيز ، ولحقهم المعلوم أن تلقفه دونهم يد سائدة . لو أنهم ارتضوا لأنفسهم مكان الذيول لوسع الفتنة أن تطأطىء رأسها للتخاذل . ولكنهم كانوا قوما قويت ذاتهم حتى رفعتهم عن مدارك الذلة ، وأصبح شعورهم بكيانهم مرهفاً كالسيف . ولم يعودا بعد متاعاً فى كف سيد . ولم يصبحوا عباد مال أو منصب أو جاه يمن بها عليهم أمير . ولم يكونوا صوراً متماثلة من مواطنهم الذليل . ذلك الفتى المتخاذل عبد الرحمن بن خنيس .. كلا . بل هم اليوم رجال ذوو أنفة ، نمت فيهم عزة الوطنية حتى أحالتهم أقراناً لحاكمهم المفتون بجنسه ، المستعلى بقومه عليهم وعلى غيرهم من أقوام .

أجل . لم يخفضوا الرأس للهوان فتموت الفتنة لأنهم أبوا أن يدعوا اللحظة الفاصلة تمر . ولم يتركوا الثمرة الناضجة تسقط دون أن يلقفوها .

بل بادروها بالقطاف لا يأبهون لما حولها من أشواك . ومضوا لطيتهم بغير تردد فى طريق الصعاب والدماء ، لأنه يصل إلى النصر . ولأن لهم فى الدنيا رسالة لا ينجزونها إلا إذا ساروا فيه . ولأن عليهم لشعبهم حقا أن يناضلوا من أجله وفى سبيل حياة له كريمة وإن جادوا له بالحياة ..

وحانت أخيراً اللحظة المرجوة .. ساعة المد الذى طالما انتظره الشراع .. الليلة المشهودة التى لن تلبث أن تجر فى أعقابها مثيلات جمة تموج بالحادثات ..

كان إذ ذاك سعيد بن العاص فى مجلس سمره بدار الإمارة يحيط به وجوه الناس . وقد بدا القصر والبلدة كلها كالكوة المشرفة على سهول العراق ، وأخذ الهواء الرطب يهب من ناحية النهر المنساب غير بعيد وقد اكتنفته الخضرة من جانبيه حتى لا تخطئها عين . وكان جو الجلسة هادئاً . لا يكاد ينبىء عن الثورة القريبة تماما كهدوء الليلة البادى فى صفاء السماء وكان الحديث يسير بالقوم ليناً إلى غير غاية وقد اجتمع فيهم ذو الجاه وذو المنصب وذو الكلمة النافذة إلى قلوب قومه . وألمت أطراف الكلام بسيرة طلحة بن عبيد الله ، وبجوده ، وبالثراء البالغ الذى أصبح الرجل عليه ، فقال سعيد :

« إن من له مثل النشاستيج لحقيق أن يكون جواداً .. والله لو أن لى مثله لأعاشكم الله عيشاً رغداً .. »

فاستهوت الأمنية نفس الفتى ابن خنيس فد أصبعاً تشير إلى جانب الفرات حيث قامت ضياع كسرى . وقال يتملق الأمير :

« لوددت أن هذا الملطاط لك » .

فندت من بعض الجلوس همهمة غضب واستنكار . وصاح أحدهم فى الفتى الداهن :

« اسكت . فض الله فاك ! »

ولكنها كانت صيحة لم تعجب الأمير . ولم تمسح على عصب الغرور فيه . فإذا به ينظر للقوم مستعلياً ويقول بلا مبالاة :

« إنما هذا السواد بستان لقريش ! »

السواد ؟ .. العراق كله ؟ .. كأنما لم يكفه ماجاءت به أمنيه فتـــاه ولم يرض بالنصيب الذى عنـــاه .. هذه إذن بلاد قريش . أرضها ، ضيعتها التى تملـكها وتلعب بها كما تشاء .. أما أولئك كلهم فمن حوتهم الضيعة من موال وأتباع .. عبيد يكدحون للسادة ، وليس لهم فى الحياة إلا حق المملوك عنـد ربه إن كان هناك حق لمملوك .. أما الشعب فآلة والحاكم فإلـه .. أما الذين بدمائهم رووا الأرض وبأسيافهم شقوا باطن الدولة الغاصبة الذاهبة لتتخلص لهم بلادهم حرة فهم اليوم عند الأمير القرشي المسلم كحالهم بالأمس عنـد فارس تحت نير الأكاسرة عباد النار ..

ولـكن الصبر قد انقطع حبله ، والصمت على الهوان ذهب زمانه ، والثمرة ناضجة والغصن دان يمد نفسه للقطاف ! ..

فى هـذا اللحظة تجمعت كل مرارة الماضى ، وعصفت بالنفوس الثورة المكتومة ، فانطلقت على لسان مالك الأشتر كأنها حمة بركان .

انتفض الرجل من مكانه يزأر بالأمير :

« أتزعم أن السواد الذى أفاء الله علينا بأسيافنا بستان لك ولقومك ؟ .. والله ما يزيد أوفاكم فيه نصيباً إلا أن يكون كأحدنا يا سعيد » .

وعبس سعيد . وبهت لهذه الغضبة المفاجئة التى لم يتهيأ لها أو يعد عدته . وخذل لسانه الـكلام . ولـكن صاحب شرطته أسعفه خاطره بما زاد من إذكاء النار .. انبرى يظهر الولاء لسيده ويدفع عنه فراح يرد على الأشتر ومن معه ويعنف لهم فى المقال . حتى قال :

« أتردون على الأمير مقالته ؟ »

فما أسرع أن وثبوا عليه محنقين يتناولونه بالضرب والسباب ، لا يرعون للمجلس حرمته ، ولا يحسبون حساباً إلا لرى حفيظتهم عليه وعلى أميره سواء بسواء ..

وانتهت الجلسة أسوأ انتهاء . وخرجوا من لدن سعيـــــد وقد تركوا

فريستهم فى غشية . وذهب الزهو من نفس الحاكم ليفسح مكاناً للجزع وخشية كل يوم لم تطلع شمسه . هذه الجرأة تنبىء عن قوة مستترة وشدة خبيئة لعلها تدخر إلى ساعة مناهضة وجلاد . وهذه الفئة لا ريب لهـــا ما وراءها . إنها تعنى البدو الذين تكلم رجالهم أولئك برأيهم الآن . وتعنى المقاتلة غير قريش من القبائل والأعراب . وتعنى أيضاً عامة الناس فى البلاد من أصحابها الذين أمضهم استعلاء الحكام . إنها الدعوة القديمة للمساواة .. الدعوة التى بدأت هادئة مسالمة فى صورة إرشاد قد انطلقت اليوم صرخة مدوية لن تلبث حتى يستجيب لها كل مشوق إلى المساواة ..

وكذلك كانت : واندلعت ألسنتها فى كل مكان . وأقبل الناس عليها وقد أعدتهم جرأتها فأصبحوا كدعاتها الأول جرأة وإقداماً دون خشية للأخطار . واختلط الأمر على الوالى . وحارت فيه تجربته الفجة فراح يستلهم العلاج من أمير المؤمنين ..

كتب له يقول :

« .. إن رهطاً من أهل الكوفة يؤلبون ، ويجتمعون على عيبك وعيبى والطعن فى ديننا ، وقد خشيت إن ثبت أمرهم أن يكثروا .. »

فماذا كان جواب عثمان ؟ .. كأنى به قد بدت له إذ ذاك دمشق . وبدا فى عينيه أميرها الأموى معاوية كالعملاق الذى تعنو له المشكلات ..

« سيرهم إلى معاوية » .

وكان هذا فصل الخطاب ، والدواء الذى حسبه الخليفة حاسماً للداء .. ولكنه فى — الحق — ظلم ابن أبى سفيان ..

نعم ظلمه لأنه حمله من الأمر فوق ما يطيق . وهل كانت سياسة معاوية إلا التماس السلامة لنفسه من أى سبيل ؟

بلى .. فالرجل الداهية خذله دهاؤه . وقعد به الذكاء الذى زعمه له الآخرون . فلم يتلق المشكلة إلا باليد التى يتلقاها بها أى أمير آخر من أمراء عثمان . ولم يبد حيالها الحذق الخارق الذى حسبوه له . وهل كان من الذكاء والحذق

والدهاء أن يعالج أولئك الثائرين على الكبر والترفع والاستعلاء بالكبر وبالترفع والاستعلاء ؟

ذلك ما انكشف عنه وفاض معاوية وانحسرت جبهته . ونمت عنه سياسته التي كانت في نظرة ولاة ذلك العهد أرشد السياسات .. ..

قال لهم ذات يوم مباهياً بقومه :

« .. لقد بلغني أنكم نقمتم قريشاً . وإن قريشاً لو لم تكن عدتم أذلة كما كنتم .. إن أئمتكم لكم إلى اليوم جنة فلا تسدوا عن جنتكم . وإن أئمتكم اليوم يصيرون لكم على الجور ويحتملون منكم المؤونة .. فوالله لتنتهن أو ليبتلينكم الله بمن يسومكم ثم لا يحمدكم على الصبر .. » .

فلم يصبروا على زهوه وإن جاءهم في ثوب إرشاد . بل انبرى أحدهم يجيبه :

« أما قريش فلم تكن أكثر العرب ولا أمنعها في الجاهلية .. وأما الجنة التي ذكرت فإنها إذا اخترقت خاص إلينا » .

وبهذا رسموا له المبدأ الذي ناضلوا عليه وأوضحوه بأقصر بيان . إن القوة المزهوة التي بوأها القدر مكان الصدارة في الدولة قد نسيت رسالتها التي نصبها الدين لبثها في الحياة .. نسيت دعوة المساواة التي أراد الإسلام أن يجمع بين كل الشعوب والأفراد وتؤلف بينهم جميعاً أمة واحدة تسودها المحبة .. بل إنها بكبرها ضنت على غيرها من الشعوب والقبائل أن تبلغ مثل شأوها . ووقفت لهم حائلا دون التحرر الذي نشدوه . والمساواة التي أباحهم إياها الدين الحق . أفكان عجباً إذن أن تتألب هذه القوى المهضومة على ذلك السياج فتكسره حتى تنطلق منه إلى حياة النور والعدالة ؟

ولكن الرد الواضح الصريح أخرج الداهية عن طوقه . ونزع عنه الحلم الذي وسم به ، ثم رده في نهاية المطاف مفتوناً أشد افتتان بجنسه . وبقومه وبأهله الذين يرتفعون في نظرته فوق الهام .

قال لهم وهو محنق مغيظ :

« أخزى الله أقواما أعظموا أمركم .. إن الله بنى هـذا للملك على قريش وجعل هذه الخـلافة فيهم ولا يصلح ذلك إلا عليهم .. لقد كان يحوطهم فى الجاهلية وهم على كفرهم ـــ وقد حاطهم فى الجاهلية من الملوك الذين كانوا يدينونـكم — أفلا يحوطهم وهم على دينه ؟ »

ثم التفت إلى محدثه يثور به ويكيل السباب والقدح لهم :

« يا صعصعة بن صوحان. . إن قريتك شر قرى عربية . أنتنها نبتا وأعمقها واديا وأعرفها بالشر . . كنتم جيران الخط وفعلة فارس حتى أصابتكم دعوة النبى . . يا شر قومك . . أفبعد أن أبرزك الإسلام وخلطك بالناس وحملك على الأمم التى كانت عليك أقبلت تبغى دين الله عوجا . . لا يضع ذلك قريشا ولا يضرهم . ولن يمنعهم من تأدية ما عليهم . إن الشيطان عنكم غير غافل . قد عرفكم بالشر من بين أمتكم فأغرى بكم الناس .. وإنه لصارعكم . »

بمثل هذا وبغيره من ألوان الشتم والسباب تناول القوم . حتى إذا أفرغ ما فى صدره من الغيظ وانفثأ عنه غضبه أو كاد ، عادل ثانية يحاول إرشادهم على الطريقة التى يوشك ألا يعرف لها قرينا .. أجل فإنما بتجسيم هيئته أمام عيونهم حسب أنهم يرهبونه ويخفضون له جناح الطاعة والرضوخ .

عاود الكلام ثانية عن شأو قريش ومجدها ورفعتها . وراح يرسم بحديثه صوراً عنها تغرى الرؤوس من غيرها بالإذعان . فلما أن بلغ وطره من الإسهاب. انثنى إلى الناحية التى تشبع فيه حب المباهاة .

قال وهو يكسب كلماته لينا وطراوة :

« .. . إنى والله ما آمركم بشىء إلا قد بدأت فيه بنفسى وأهـل بيتى وخاصتى . وقد عرفت قريش أن أبا سفيان كان أكرمها وابن أكرمها إلا ما جعـل الله لنبيه . . وإنى لأظن أن أبا سفيان لو ولد النـاس لم يلد إلا حازماً . »

فلم يطق صعصعة هذا البهتان . بل بادره يقطع عليه حديث الصلف والمباهاة الذى اوشك أن يغرق فيه :

« كذبت . . »

فارتج الرجل لأن الكلمة أصابت خيلاءه بأرهف سيف ولكن صراحة الخصم وصرامته أبت النكوص . .

« كذبت . . قد ولدهم من هو خير من أبى سفيان . من خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه . وأمر الملائكة فسجدوا له .. فكان فيهم البر والفاجر والأحمق والكيس .. »

وخرج معاوية من لدنهم مدحوراً .

على أنه فى الليلة التالية شحذ سلاحه الماضى الذى حسب أنه لا يخونه . . ذلك السلاح الذى تركزت فيه سياسة الدهاء كلها التى ظنت له .. المادة التى تثير الغرائز الدنيا فى النفوس وتتملق عواطفها المنطلقة بغير عنان حاكم من دين أو أخلاق ..

قال لهم وهو يلوح بالعروض والأمنيات :

« أيها القوم .. ردوا على خيراً أو اسكتوا . وتفكروا .. وانظروا فيما ينفعكم . وينفع أهليكم . وينفع عشائركم . وينفع جماعة المسلمين فاطلبوه تعيشوا ونعش بكم » .

هذا بلا ريب عرض سخى . حرى بأن يعقل الألسنة ويكم الأفواه . ولكن الداهية — فيما يبدو — قد غاب عنه إذ ذاك أن سلاحه أولى به أن يصبح مفلولا عند مناجزة ذوى المثل والمبادىء وأن النفوس ليست فى ميدان الأهواء سواء ..

لم يفت صعصعة أن يكشف عما انطوى عليه هذا الإغراء الذى يحاول معاوية أن يشترى ضمائرهم ويستعبدهم به . نبادره بجواب فيه تقريع وتأنيب وفيه تهكم وسخرية :

« لست بأهل ذلك . . ولا كرامة لك أن تطاع فى معصية الله . . » .

وهل الرشوة التى أحب لو توصل بها لإخضاعهم وطاعتهم إلا معصية ؟
غير أن الحاكم الداهية بدا كمن لم يفهم . وراح يبتسم بهدوء ويقول :
— أو ليس ما ابتدأتكم به أن أمرتكم بتقوى الله وطاعته وطاعة نبيه . وأن تعتصموا بحبله جميعاً ولا تفرقوا .
— بل أمرت بالفرقة وخلاف ما جاء به النبى .
وإنها حق للسياسة التى انتهجها هو وغيره من الولاة .. سياسة معاملة الناس بغير مساواة وبغير العدالة التى جاء بها رسول الله ..
وآن له أن يداورهم ويصطنع لهم النزوع عما كان منه والاعتذار عما فرط فى حقهم فقال :
« فإنى آمركم الآن إن كنت فعلت فأتوب إلى الله . وآمركم بتقواه وطاعته وطاعة نبيه . ولزوم الجماعة وكراهة الفرقة . وأن توقروا أئمتكم وتدلوهم على كل حسن ما قدرتم . وتعظموهم فى لين ولطف فى شىء إن كان منهم » .
أما وقد طلب منهم العظة والنصيحة فليقلها له صمصمة دون مواربة :
— فإنا نأمرك أن تعتزل عملك . فإن فى المسلمين من هو أحق به منك .
فكأنما انقضت عليه صاعقة .. أهذا هو النصح الذى يختصونه به .. أهذه هى العظة التى يزجونها إليه لخير دينه وخير دنياه ؟ ..
قال له وهو يكتم غيظه :
— فمن هو ؟
— من كان أبوه أحسن قوما من أبيك . وهو بنفسه أحسن قوما منك فى الإسلام .
كذلك حتى لا تكون الإمرة خاضعة للحدود التى رسمها لها عثمان من القربى واتصال أنساب أمرائه به ..
وثار الأمير .. بدا الخطر الذى يتهدد منصبه بعد أن تطرق الحديث بهم إلى هذا الحد . ولم يعد فى طوقه إلا أن يدل ثانية بمكانته وقدرته فقال :

— . . . ليس فى زمانى أحد أقوى على ما أنا فيه منى ... لعمرى لو كانت الأمور تقضى على رأيكم ما استقامت لأهل الإسلام يوماً ولا ليلة . . . ولكن الله يقضيها ويدبرها . وهو بالغ أمره . فعاودوا الخير وقولوا . . .

— لست أهلا لذلك .

— أما والله إن لله لسطوات ونقمات . وإنى لخائف عليكم أن تتابعوا فى مطاوعة الشيطان حتى تحلكم دار الهوان من نقم الله فى العاجل والخزى الدائم فى الآجل .

وثار بهم ثورته فقاموا له . وأمسك بعضهم بلحيته وبعضهم برأسه . فصاح غاضباً :

— مه . هذه ليست بأرض الكوفة ... والله لو رأى أهل الشام ما صنعتم بى وأنا إمامهم ما ملكت أن أنهاهم عنكم حتى يقتلوكم ...

وقام عنهم وهو لا يكاد أن يملك نفسه . ولم يأت الغد إلا وقد تبين له الأمر كله ... إن هذه الشرذمة لن يحملها شىء على الطاعة إلا اعتزاله واعتزال بقية ولاة عثمان من أقاربه وبنى بيته الذين فتنتهم أنسابهم وجنسهم فمضوا يمشون على رؤوس الناس فى البلاد ، ويحتجزون لأنفسهم الأموال والمناصب لأنهم يرونها لهم حقاً لا ينازعهم فيه غيرهم ولا يقوى عليه ... أفينفسون عليه إمرة الشام — هو معاوية ابن أكرم قريش وابن أكرمها وأكرم الناس ... ابن أبى سفيان الذى لو أنجب لم ينجب سوى حازم حزم هذا الأمير الراشد الأريب ذى الدهاء ... ألا فليسلن دهاءه وحزمه . وليرينهم حسن السياسة كيف يكون ...

ولكنها اللعبة الوحيدة التى يجيدها . والدهاء الذى يستوى عنده كل أمير ضعيف وقدير ... والحل الذى يبعد عن إمارته الخطر ويضمن له السلامة ولو إلى حين ...

ومن ثم كتب إلى أمير المؤمنين :

« ... إنك بعثت إلى أقواماً يتكلمون بألسنة الشياطين . . وإنما يريدون

فرقة . ويقربون فتنة . قد أثقلهم الإسلام وأضجرهم . وتمكنت رق الشيطان من قلوبهم . فقد أفسدوا كثيراً من الناس ممن كانوا بين ظهرانيهم من أهل الكوفة . ولست آمن إن أقاموا وسط أهل الشام أن يغروهم بسحرهم وفجورهم. فارددهم إلى مصرهم الذى نجم فيه نفاقهم ... والسلام » .

١٨

أرعد عبد الرحمن بن عوف ... وثارت نفسه غضباً وهو يصيح بابن أخته: « يا مسور ... اذهب أنت فأطلقها . ثم ادعنى أنظر ... »

فمضى الرجل مدفوعاً بأمر خاله . ومعه صاحب من بنى عبد يغوث إلى مرابض الإبل فأخرجاها . لم يستأذنا أحداً : لا الخليفة . ولا مالكيها . ولا أصغر قائم على حراسة الدواب .

وأقبل عبد الرحمن من بعد . ولم تزل فى جبينه غضبته . فنظر ملياً إلى الإبل. ثم أشار بها ففرقت بين الفقراء .

وأتم بهذا تحديه لعثمان . . ذلك التحدى السافر لذلك الشيخ الذى كان هو صاحب اليد فى استخلافه . . ولم تكن هذه أول مرة أبدى فيها استنكار أفعال الخليفة . ولكنه الآن أبداه على ملأ من الناس حتى تحدثوا به . وأنكروا كثله . ووسع كل منهم أن يلفظ باسم أمير المؤمنين الذى احتجز إبل الصدقة لبضعة من بنى الحكم أقربائه دون ذوى الحق فيها من المسلمين .

هذه سورة لما بلغ إليه هوان عثمان وهوان أوامره بين الناس . فى البدء كانت المهنة كالصفحة الهادئة . الماء منبسط عليها . ساكن لا يكاد يتكشف عما يعتمل فى أغواره . ولكن الأزمات تلاحقت من بعد فى أطراف الدولة وراحت تفعل فعلها . آونة سراعاً . وآونة مستأنية فى تريث واسترخاء . . . فإلى أي مدي تقبلتها حاضرة الإسلام .؟

ماذا فعلت المدينة ..؟ وكيف كان موقفها من تلك الحوادث والأزمات الفكرية والمادية التي راحت تعهد بالدولة ؟ صامتة تنظر . متربصة ترقب حتى تحين سانحة .. جانحة إلى هذه أو تلك من الطوائف التي أخذت أكفها تتناول نظام الحكم بالخدش أو بالتمزيق .

بل سبق إليها التذمر ولما يمر قبلها ببلدة . وتناول فيها صحب رسول الله أنفسهم فغير قلوبهم على الخليفة الشيخ . وانطلقت ألسنتهم تخوض في سيرته بما أطلق فيها ألسنة العامة .. أما عثمان فكان غير آبه . ولم يأل السمع لهذه الأحاديث الخافتة التي راحت تتنقل بين الشفاه والآذان . ولا الاستجابة لتلك النقدات العابرة التي كان يطالعه بها صحبه في صيغة النصح بين حين وحين ، ولكن الزمن الجاري لم يلبث أن خلع القفاز الأملس .. الصفحة الرائقة أبدلتها التيارات الخفية هياجاً بهدوء .. النفوس المواجع ارتدت يقظى .. لم تبق الآن بقية لمخافتة أو إسرار ، لأنه لم تبق فيها بقية لاصطبار . غلب على الناس ضيقهم ففاض . آدهم الكتمان وأعياهم فأسفروا عن سخطهم وأظهروه . حلت في نفوسهم الجرأة على الخليفة مكان خشيتهم منه . فما عادوا يلقونه بمثل ما كان له عندهم من توقير . ونسوا التبجيل الذي هو أولى بتقدم عمره فضلا عن علو قدره . وفرغت نفوس الكثيرين من هيبته حتى لأصبح الواحد منهم لا يكاد أن يرمى إليه إلا بالنظرة الزارية كلما ضمه وإياه طريق . بل بلغ من هذا أنهم كانوا لا يزجون إليه التحية ولا يردونها إن بدأ بها ثم يكون من يردها عليه محور العتاب ولوم اللوام ..

قال جبلة بن عمرو وقد سمع بعض قومه يردون السلام على عثمان :

« أتردون على رجل فعل هكذا ؟ » .

ثم انفلت من المجلس وفي يده جامعة . فقطع على الخليفة طريقه وصاح به :

« والله لأطرحن هذه الجامعة في عنقك أو لتتركن بطانتك هذه » .

فآثر عثمان — وإن آلمته الجرأة — اصطناع الأناة . فقال :

« أي بطانة ؟ فوالله إني لا أتخير الناس » .

« مروان تخيرته .. ومعاوية تخيرته .. وابن عامر تخيرته .. وابن سعد تخيرته . منهم من نزل القرآن بذمه وأباح رسول الله دمه .. »

فنظر الشيخ إليه مبهوتاً برهة ، ثم مضى عنه صامتاً لا يعقب . ولكن جبلة أبي إلا أن يمعن في زرايته ، فما لبث أن راح يلوح بقبضته في الهواء متوعداً ويصيح :

« والله لأقتلنك يا نعثل ... ولأحملنك على قلوص جرباء ... ولأخرجنك إلى حرة النار ...

ثم خرج السخط رويداً رويداً من أسوار المدينة ، واستطاع أن يجد له قدمين يحملانه إلى بقية الأمصار .. من حاضرة الدولة كتب أصحاب رسول الله إلى زملائهم المتفرقين في الآفاق بالثغور بغية الجهاد ، ينبئونهم بأحداث عثمان ، ويحضونهم على تبديل ما عمله ، وكان مدار استهجانهم ومعابتهم . ويهيبون بهم أن ينفروا إلى جهاده فما من جهاد أولى بالمسارعة إليه وتلبيته من كفاح هذا القائم على أمر الدين بغير إحسان . وعلى أمر الدنيا بغير كياسة وتدبر ... قالوا لهم فيما قالوه :

« إنكم إنما فرحتم أن تجاهدو في سبيل الله . تطلبون دين محمد . ألا فإن دين محمد قد أفسد من خلفكم وترك .. فهلموا فأقبلوا فأقيموه .. » .

ووضح للناس في الآفاق أنهم وأهل المدينة في الهم سواء . وأن الآفة ليست من الولاة بل من صنائع أولئك الولاة . وأن أخطاء حكامه جميعاً يمكن ردها إليه ثم لا يكون ثمة تجن عليه ولا إقحام له في الأوزار بغير سند ملموس .

وأصبحت الحاضرة الإسلامية ذات يوم فإذا بها تموج بألوان من الزائرين الزارين .. لعل الكثرة كانت من صحب رسول الله الذين خلفوا بلدته من أعوام يصطلون نار الحروب رغبة في إعلاء دينه وكلمة ربه . ولكنهم اليوم عادوا وعاد في ركابهم بضعة من أهل الأمصار الذين ذاقوا من مرارة سياسة الخليفة في أقطارهم البعيدة . وكانوا جميعاً قد أقبلوا

استجابة لدعوة أهـل المدينة . وأملا فى أن ينزع أمير المؤمنين — إن رفعوا إليه طلباتهم — عما هو فيه . وأن يبدل طرائق الحكم التى سار عليها وكان لها شأن فى تذمر بلادهم منه وتذمر بقية الناس الذين أظلهم عامه . وراحوا فى دروب البلدة يتحـدثون جماعات وينضم الـكثير من أهلها إليهم . ويبحثون بينهم شكاياتهم حتى وسع من لم يسمع أن يعرف أن الشكوى عامة . وأن التذمر شامل ينتظم كافة الأمصار .

من بين أولئك تخير نفر منهم رجلا موسوماً بورعه وإن أودت به ذات يوم وشاية حتى نفى من بلدته البصرة إلى الشـام .. دائماً الشام كانت المنفى ودار القمع التى تخيرها أولئك الحـكام الطغاة . ولـكن العنبرى لم يكن مذنباً . ولا داعية إلى فتنة . ولا رأساً لجماعة ثائرة . بل هو ناسك عازف عن الدنيا . انطوى على نفسه فى داره يعبد ربه ولا يلقى الأحداث السارية إلا بنظرة حكيم . غير أن سوء طالعه أبى أن يدعـه فى مستقره . فإذا ابن عامر يمر يوماً فى جماعـة بجوار بيته فيذكرونه لديه . فينفلت منهم واحد مفسود — كان عثمان قد غضب عليه فأخرجه من المدينة — يقول للأمير :

— الا اسبقكم فأخبره ؟

ومضى فدخل على الرجـل داره وهو جالس فيها قد استغرقته القراءة فى مصحف بحجره .. فأهاب به :

— الأمير أراد أن يمر بك . فأحببت أن أخبرك .

فلم يرفع العنبرى بصره عمـا هو فيه . ولم يقطع قراءته إكباراً لـكلام الله أن يقطعه كلام إنسـان عظم أو هان .. فى ذلك الوقت كانت الشكوك لا تنى تراود نفس ابن عامر على بعض سكان البصرة . ويكاد الرجل أن يستريب فى كل سكون — كما كان يستريب فى كل حركة — خشية أن يكون له ماوراءه من تأليب على النظام . والخفية دائماً يصحبها الظن . وهذا العنبرى يستخفى وينقبض عن الناس . وهو من عبد القيس وعهـد الحـاكم

بحركة ابن سبأ التى دبرت فى الخفاء ونشأت فى حى هذا الرجل ليس ببعيد .
غير أن ذلك الرسول المفسود آثر أن يضيف إلى شك الوالى موجدة توغر صدره على الزاهد النائى عن الجمهور . فسارع إليه يقول :
— جئتك من عند امرىء لا يرى لآل إبراهيم عليه فضلا .
فأسرع ابن عامر فاستأذن على الرجل وحدثه فيما بلغه عنه .. قال له :
— . . إن هذا يزعم أنك لا ترى لآل إبراهيم عليك فضلا .
فلم يجبه . بل صفح كتاب الله وقرأ أول ماوقع بصره عليه :
« . إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين . »
ومع ما بدا من استيقان الحاكم من براءة الرجل . وتركه إياه حراً يعبد ربه مستخفياً كما يريد . فإن ذلك المدنى المغضوب عليه أبى إلا أن ينتهز الفرصة ليسترد رضاء عثمان عنه . فسار إليه يوغر صدره على العنبرى ويعلاه بالشك والريبة . ولم يعدم أن يجد نفراً مثله مبطلين يؤيدون وشايته لدى أمير المؤمنين.
وكذلك دفع إلى معاوية بالبرىء المظلوم . ولكنه لم يكن مذنباً . ولا داعية إلى فتنة . ولا رأساً لجماعة ثائرة ، فليس له من سبيل إلى خشية الطغاة ، ولعل معاوية نفسه قد علم براءته وأيقن بها حتى رق له قلبه وود لو أثابه بما يريد . كان يقول له :
« قل حاجتك » .
فكان العنبرى يجيب ببسمة هادئة فيها إشراقة الإيمان :
« رد على من حر البصرة لعل الصوم أن يشتد على شيئاً فإنى أراه يخف على فى بلادكم » .
هذا هو الرجل الذى تخيره بعض الذاهبين إلى المدينة ليكون لسانهم عند عثمان . ينطق بشكواهم . ويذكر حوائجهم . ويزجى للخليفة وسائل الإصلاح التى يرغبون .
وأدخل القصر . ومثل بين يدى عثمان . ثم راح يشرح رسالته

بالصراحة التي يوسم بها أمثاله من رجال الله :

« .. يا أمير المؤمنين . إن ناساً من المسلمين اجتمعوا فنظروا فى أعمالك فوجدوك قد ركبت أموراً عظاما . فاتق الله عز وجل . وتب إليه وانزع عنها » .

فما أسرع أن تلفت عثمان إلى من حوله . وقال ساخراً وهو يقطع على الرسول حديثه :

— أنظر إلى هذا فإن الناس يزعمون أنه قارئ ثم هو يجئ فيكلمنى فى المحقرات .. فو الله مايدرى أين الله .

قال المنبرى بهدوء :

— أنا لا أدرى أين الله ؟

— نعم . وا لله ماتدرى أين الله .

— بلى والله . وإنى لأدرى أن الله بالمرصاد لك يا عثمان .

وخرج الرجل مغضباً من لدنه ليترك للناس اختيار الوسيلة التى يرونها صالحة للبلاغ .

١٩

أما من وسيلة .. هذا شيخ عزم على أن يصم أذنيه دون صوت الناس : ولا يسمع النصح . ولا يسوغ النقد . ولا يستطيع مطلقاً أن يرى أعماله على محك الفحص والمناقشة . كم من مرة كلمه أصحابه . وكم شكوى سرت إليه من شعبه الذى ضاقت صدوره وهو صامت ساكن كأن لا شكوى ولا تذمر . أم هى الحيرة يا ترى أوقفته حيث هو حتى لايعرف كيف يتناول الأمور بالعلاج المنشود ..

ولكن الزمن لم يقف له . ولم يتريث به . وسبقه بأحداثه إلى الحدود التي دون بلوغه إياها انبهار أنفاسه . وقد تخلف الشيخ عن موكب الزمن .

وعاش يفكر جامد لا يستجيب للتطور الذى قطعت الأفكار الأخرى أشواطه. فبق بهذا وحيداً فى واد والناس كلهم فى واد ..

ومع ذلك فقد وجب على الشعب أن يفعل شيئاً إزاء هذا الجمود . وأن يقسر الشيخ على سماع صوته . وأن يحمله كرها فى موكبه . وما كانت المدينة إذ ذاك إلا كالقافلة المقبلة على رحلة شاقة . بعيدة المسافات . دون هدفها أشواط وأشواط . ولكن الدليل نائم لا تكاد أن توقظه جلبة التأهب .. أفيتخلف الركب كله يا ترى أم الخير أن يتخاف الدليل الوسنان ؟ ..

وكرة أخرى بعد الكرات السوالف آثر الناس أن يوقظوا الدليل . وأن يهزوه فى مرقده ليفتح عينيه ويرى مدى ما أصبحوا عليه . وأن يسلموه الزمام وهو منتبه غير غافل ليقودهم على الدرب المأمون ..

فمن الرجل الكفيل إذن بإيقاف الغافل .. إن العيون كلها تتطلع فى مناح شتى ثم لا تلبث نظراتها أن تلتقى على فرد واحد فى الرجال . له جرأة لا يفسدها اندفاع . ورزانة تنبعث عن الحكمة دون الجمود . وشجاعة قلب تعرف الصراحة ولا تعرف البذاءة والإقذاع . وهو أيضاً مهيب كليث . إذا خطر خشعت له الأبصار فلا تقتحمه . فياض البلاغة كغير شبيه . إذا تحدث ملك القلوب قبل الأسماع . عادل كالميزان . صارم كالسيف ..

تطلعت النظرات إذن إلى كل ناحية فما وسعها إلا أن تلتقى كلها على واحد ... على علىّ وحده استقر رأى الناس أن يكون لسانهم إلى عثمان . يحمل رسالتهم عنهم لتؤدى لدى الخليفة خير أداء . فلقد كان ابن أبى طالب — فضلا عن علو منزلته بين أصحاب رسول الله . والتفاف قلوب العامة كلهم حوله — هو الرجل الذى له قلب كقلوبهم يشعر بمثل مايشعرون ويؤمن كإيمانهم بحقهم فى الحياة الكريمة التى لا تطؤها أقدام لحاكم طاغ أو وال مزهو بجنسه أو بقرباه . ويألم إذ يرى حقوق الناس — وكانت حرما — قد أصبحت كأنها اللقى المستباح ..

وهكذا أخرجته من بيته الجماهير . وسارت به حتى رحبة القصر . ولم

يكن ثمة من تكلم عن الخليفة بخير طوال الطريق . لا ولا فى المدينة كلها إلا عائب عليه ضائق به . وكانت الألسنة تذكر له كل كبيرة وكل هنة . وتعدد من أخطائه مالم يبق بعده بقية لم يشملها الإحصاء .. حتى أهلها أيضاً كانوا يحملون عليه . بل لعلهم كانوا يسبقون غيرهم فى استنكار أعماله وفى اللهفة فى توبته ورجوعه إلى الصواب . ولم يكن هناك إلا نفير منهم يؤيدونه عن رحمة لا عن عدل . عددهم لايتجاوز أصابع الكف ..

وتم أخيراً بين الرجلين اللقاء الذى انعقد عليه الرجاء ..

وقال على وهو يحرص أن يكون فى حديثه لين الكلام :

« .. إن الناس ورائى . وقد استفسرونى بينك وبينهم . ووالله ما أدرى ما أقول لك .. ما أعرف شيئاً تجهله . ولا أدلك على أمر لاتعرفه . إنك لتعلم ما نعلم . ماسبقناك إلى شىء فنخبرك عنه . ولا خلونا بشىء فنبلغكه ، وقد رأيت ما رأينا . وسمعت كما سمعنا . وصحبت رسول الله كما صحبنا . وما ابن أبى قحافة بأولى بعمل الحق منك . ولا ابن الخطاب بأولى بشىء من الخير منك . وأنت أقرب إلى رسول الله وشيجة رحم منهما . وقد نلت من صهره ما لم ينالا .. »

ووسمه بعد هذا القول الناعم الرخى أن يزجى إليه النصح . ويبين له عساه أن يعطى الناس الحق من نفسه . وينزع بها عما أنكروه . قال يتمم الحديث :

« .. الله الله فى نفسك . فإنك والله ما تبصر من عمى ، ولا تعلم من جهل . وإن الطرق لواضحة . وإن أعلام الدين لقائمة . فاعلم أن أفضل عباد الله عند الله إمام عادل هدى وهدى . فأقام سنة معلومة . وأمات بدعة مجهولة .. وإن السنن لنيرة لها أعلام ، وإن البدع لظاهرة لها أعلام . وإن شر الناس عند الله إمام جائر ضل وضل به . فأمات سنة مأخوذة . وأحيي بدعة متروكة . وإنى سمعت رسول الله يقول : يؤتى يوم القيامة بالإمام الجائر وليس معه نصير ولا عاذر . فيلقى فى جهنم . فيدور فيها كما تدور الرحى . ثم يرتبط بها فى قعرها .. »

ثم راح يلق اليه بالنذير المستنبط من شعور شعوبه نحوه . وبالحدث الفاجع الذى توشك أن تسفر عنه الأحوال فى أنحاء الدولة إن لم تعالج الأمور بالحكمة . وهو فى هذا لا يتحدث عن الشر الذى سوف يحيق بعثمان ، بل يراه قد انتشر من بعده فشمل كل قوى الإسلام القائمة وكل رعاياه . وهو ايضاً لم يتردد فى أن يصف له بصراحته الآفة التى توشك أن تسبب كل هذه النكبات عساه أن يبادرها بالدواء الناجع .. قال :

« . . إنى أنشدك الله أن لا تكون إمام هذه الأمة المقتول فإنه كان يقال : « يقتل فى هذه الأمة إمام يفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة . ويلبس أمورها عليها . ويبث الفتن عليها . فلا يبصرون الحق من الباطل . يموجون فيها موجاً . ويمرجون فيها مرجاً .. فلا تكونن لمروان سيقة يسوقك حيث شاء بعد جلال السن وتقضى العمر . »

مروان ! . إذن فهذه هى المسألة . . أيما ولى الشيخ وجهه وأرهف أذنيه للهمسات جاءه هذا الاسم تلوكه الألسن . مامدى تذمر الناس منه ؟ .. ما غايتهم من وراء لومهم فيه ؟ . . وأى العواطف انضمت عليها قلوبهم إن لم تكن عاطفة الحسد لمشيره الأمين ؟.. أم هم ياترى يفرضون عليه أن يضع ثقته فيمن لا يدين بالولاء له . ؟

ثم تبقى من بعد النتيجة الكبرى التى تنبىء عنها هذه المقدمة الصغيرة . . تبقى قصة القرابة بفصولها الشتى قائمة أمام الخليفة . وعذل الناس إياه من أجلها . . فما مروان إلا رأس أولئك الأهل الذين قدمهم عثمان . وما سعى الناس لخلعه إلا الخطوة الأولى نحو إقصاء بقية بنى الحكم وأمية ومن لاذ بهما من مناصب الدولة . وإلى أين يجر هذا الإقصاء إن لم يدع الخليفة الشيخ من بعد كالطائر القابع فى عشه بغير ريش .

أحسبه قد جالت بفكرة هذه الخواطر وهو يحدث علياً فيقول :

« قد والله علمت ليقولن الذى قلت أما والله لو كنت مكانى ماعنفتك ولا اسلمتك . ولاعبت عليك . . . أجئت منكراً أن وصلت رحما

وسددت خلة وآويت ضائعاً ووليت شبيهاً بمن كان عمر يولى ؟ » .

وتريث قليــلا وهو يستعيد إلى ذهنه الأمثلة التي تؤيد منطقه فلما وسعه أن يرتبها عاد يستأنف الحديث .

— .. أنشدك الله يا على . هل تعلم ان المغيرة بن شعبة ليس هناك ؟

— نعم .

— فتعلم أن عمر ولاه .

— نعم .

— فلم تلومنى أن وليت ابن عامر فى رحمه وقرابته ؟

قال له على :

— سأخبرك .. إن عمر بن الخطاب كان كل من ولى فإنما يطأ على صماخه إن بلغه عنــه حرف جلبه ، ثم بلغ به أقصى الغاية ، وأنت لا تفعل . . . ضعفت ورفقت على أقربائك .

— هم أقرباؤك أيضاً .

— إن رحمهم منى لقريبة . ولــكن الفضل فى غيرهم .

— ولــكن عمر ولى معاوية خلافته كلها . . وقد وليته .

— فهل تعلم أن معاوية كان أخوف من عمر من يرفأ غلام عمر منه ؟

عمر ثانية . . . عمر دائمــاً .. . واها لابن الخطــاب فقد أفسد الأمر على من بعده . . . لــكأنه فى مرقعته ، بيمينه الدرة قد وقف شــامخا كجبل يحبس عن العيون من وراءه . أو هو منار فى ظلمة كست الآفاق لا يستبين امرؤ طريقه فيها إلا إذا سار على هديه . . هكذا كان وهكذا أصبح بعد أن طوته الدنيا ولم تطوه الحياة . فما كان مثله بالذى يموت فى الخواطر . بل يبقى أبداً ماثلا فى الأذهان . حياً فى فؤاد كل إنسان . هو اليــوم النموذج الأمثل للأمير الــكامل . ما من عمــل يكتب له الإتقان إلا إن رجح فى ميزانه . وما من حاكم يتوفر له رضاء محــكوميه إلا إن سار على سننه . فالناس جميعاً وإن ضاقت بهم شــدته فى حياته فقد وسعتهم عدالته . وأصبحوا من بعــده

يحنون حنين الصادى إلى عودة عهده .

خشونته قمعتهم ولكنها جذبتهم . وجمعتهم كلهم بين يديه . أما هذا .. أما خليفته الشيخ .. أما عثمان الطيب الخافض الجناح فلينه أطمع فيه شموبه وأغراهم به .. ألا فمن له اليوم بشدة ابن الخطاب ؟

نفض الرجل يديه من جدل على . ومن حججه وبراهينه . وكفى نفسه مؤونة الاقناع والافتنـاع . وانطلق بعد مجلسه ذاك إلى المسجد بقلب سوى قلبه . وطبيعة سوى طبيعته . ولو وسع من وقفوا تلك اللحظـة يرنون إلى جهامة وجهه وعبسة جبينه وهو واقف على المنبر لو وسع أولئك أن تلمح عيونهم تلك الصورة النفسية التى تقمصها عثمان فلربما أوشكوا أن يروه فى مرقعـة ، بيمينه درة ، قد استعار لهم من المـاضى سمت سلفه ، وهو يخاطبهم فيقول :

« ألا قد والله عبتم على بما أقررتم لابن الخطاب بمثله ولكنه وطئكم برجله . وضربكم بيده . وقمعكم بلسانه . فدنتم له على ما أحببتم أو كرهتم . ولنت لكم . وأوطأت لكم كتفى . وكففت يدى ولسانى عنكم فاجترأتم على ... أما والله لأنا أعز نفراً . وأقرب ناصراً . وأكثر عدداً . وأقمن إن قلت هلم أتى إلى ... ولقد أعددت لكم أقرانكم . وأفضلت عليكم فضولا . وكشرت لكم عن نابى . وأخرجتم منى خلقاً لم أكن أحسنه . ومنطقاً لم أنطق به . فكفوا عليكم ألسنتكم وطعنكم وعيبكم على ولاتكم . فإنى قد كففت عنكم من لو كان هو الذى يكلمكم لرضيتم منه بدون منطق هذا ... »

فمن الرجل الذى عناه الخليفة وكفه عن الناس ولوح به تلميحا أمامهم حتى يرهبهم ويلزمهم الطاعة له ؟. وأيهم من بين ولاته أو أهله أو مناصريه .؟. أم هو يا ترى بهذا القول قد أراد نفسه فى سمتها الجديد الخشن ذى الشدة والبطش ؟ ..

ثم جاءهم من بعد بجماع سياسته كلها فى كلمات ... أليس هو صاحب

الأمر الآن ؟ . . أليس الحاكم المطلق الذى له أن يعمل وفق مشيئته ويسوس الناس كاشتهائه ما داموا قد عقدوا له البيعة واختاروه خليفة عليهم ؟ ولأى من الأسباب إذن كان هذا الاختيار إن لم يكن لتفرده بينهم بالرأى الراجح والنظرة الصائبة والقدرة الفذة على اكتناه حقائق المشكلات ؟ . . هذه صورة صادقة لناحية الضعف فى نفس الرجل . وللعناد الذى أكسبه إياه هذا الضعف ليبدو فى قوة . وهو فى أطواره جميعاً كذلك . لا ينى يستمسك برأيه ويتعصب له لأنه يأبى أن يقر لأحد بالتفوق عليه .

وهكذا قال يتم لهم حديثه وهو يكاد أن يحمل كلماته من الاستنكار ما لم يخف على سامع :

« . . . أما والله ما قصرت فى بلوغ ما كان يبلغ من كان قبلى ومن لم تكونوا تختلفون عليه . أتفقدون من حقوقكم شيئاً . . . فمالى إذن لا أفعل فى الفضل ما أريد . . . ولم كنت إماما . ؟ . »

ولم يسعهم أن يردوا عليه . بل كان ردهم قميناً بأن يصبح جدلا لا خير فيه بعد أن بصروه بما عابوه عليه فجاء يحدثهم وكأنهم لم يبصروه . . . بل انطلق بهم الزمن قبل أن يتبينوا آخر كلماته ففاجأهم بمروان إلى جواره بيده سيفه . قد التفت نحوهم يرميهم بلهب من بصره . ويتوعدهم فيقول :

« إن شئتم حكمنا والله بيننا وبينكم السيف ... إنما نحن وأنتم كما قال الشاعر :

فرشنا لكم أعراضنا فنبت بكم   مغارسكم تبنون فى دمن الثرى

ولكن عثمان ، الذى أحس أن قد بلغ فى هذه الآونة أوج البطش أبى أن يشرك أحداً فى هذا الثوب الجديد الذى لبسه — ولو كان مروان — حتى لا يبدو ثانية أمام شعبه ضعيفاً بحاجة إلى قوة يعده بها سواه . لذلك صاح بصاحبه وهو ينهره :

« أسكت لاسكت . . . دعنى وأصحابى . ما منطقك فى هذا . . . ألم أتقدم إليك ألا تنطق ؟ . . »

٢٠

تمت الغلبة لابن سبأ وحزبه فى ذات اللحظة التى غادر فيها عثمان منبر المسجد بعد أن حلا له أن يبدو فى ثوب الباطش المهيب ذى القوة والحول . فقد كانت خطبته وقوداً جديداً ، حطباً جافاً زاد تسعر النار . لم يأت فيها بجديد يؤلف قومه ويردم عنه سوى هذا الوعيد الذى أثار النفوس وحفزها إلى الثورة عليه . ولم يحاول أن يحسم الأمر برأى يصد تيار النفور المتدفق ، ولا بوعد يزجيه فيطمئن معارضيه ، ولكنه شنها حرباً سافرة على شعوبه فى وقت لم يكن يملك فيه العدة ولا السلاح . . .

وترقبت الأمصار . وزلزلت حين جاءتها الأخبار تترى بموقف الشيخ إن النبأ أورثها قلقاً لا يعرف حداً ، والخطبة بكلماتها المنطوية على العنف البالغ لم تدع لها فرجة لأمل . وكل حرف حين انتقاله من فم إلى سواه انضمت إليه حاشية من هنا وإضافة من هناك . فلما أن قطع الرواة المراحل بين المدينة وأقطار الدولة كانوا كأنما ينطلقون بفوهة بركان ! . . .

وكان السبأية متربصين بأوكارهم المنبثه فى كل مكان ، ينتظرون الفرصة السانحة ليضربوا ضربتهم . فلما علموا الأنباء تلقفوها ، ووسعهم أن يتخذوها مطية لغايتهم وأن يقهروا الناس على الإصغاء لهم بعد أن تحققت نظرتهم فى الشيخ ، وعلى السير خلفهم ، وعلى المناداة بمثل ما نادوا به من وجوب نفض الأكف منه . . . أليسوا الآن بصدد أمير أعيا الناصحين إرشاده ، يأنف أن يستمع لنقد ، ويأبى عليه عناده أن يتحرر من قيود الأخطاء التى كبلته ، فمن أين تكون له المرونة التى تصرفه عن إصراره ؟ . . ومتى ينزع عما هو فيه إلى ما يضمن صلاح أمته وقد رأته لا يكفيه أن يقف من شكاياتها موقفاً سلبياً يدعها قائمة بغير علاج ، بل يتوعدها بعزة نفره ووفرة عدده ، ثم ينثنى مشيره مروان فيهددها بالسيف ؟ . .

وكذلك أصبحت الخطبة مادة جديدة للنقمة على عثمان وزيادة الحقد عليه من حيث أرادها وسيلة للقمع . وراحت الأيام تنجاب عن فورات النفس فى أنحاء الدولة. ونشط ابن سبأ وأصحابه فتكاتبوا فيما بينهم وراء الحدود والتخوم. وحضوا على الفتنة . ودعوا إلى تجييش القوى المناهضة لهذا الحكم ، وبثوا بذور دعوتهم الهدامة فيمن تبعهم ومن لم يتبعهم على السواء . فقد أصبحوا فى العيون كأنما دعاة إلى بلوغ هدف عام . واستغلوا يأس الناس من إصلاح خليفتهم حتى جعلوهم يؤمنون بأن لا معدى لهم عن الخلاص منه .

ثم ارتدت الأنباء إلى المدينة بعد حين تحمل ما أوشك أن ينعقد عليه رأى أهل الأمصار . وشعر جيران رسول الله بشبح الخطر يهم أن يجثم على قلب الدولة ثم لا ينهض عنها إلا عن شر . ووسعهم أن يعلموا أن التردد هو الآفة ، وأن البلية فى تراخى خليفتهم دون مجابهة الأمور بالحزم الواجب . فأقبلت عليه طائفة منهم كانت لا تزال ترى أن فى الوقت بقية للاصلاح فقالت له :

— يا أمير المؤمنين . . أيأتيك عن الناس الذى يأتينا .. ؟

فأجابهم بلسان الغافل عن الشر الحاصل :

— لا والله .. ما جاءنى إلا السلامة .

فلما أخبروه ، وتبين ما عسى أن يتمخض عنه الأمر ، التفت إليهم قلقاً ، وقال :

— انتم شركائى ، وشهود المؤمنين فأشيروا على ..

ثم عمل بالمشورة. فأنفذ إلى البلاد رسلا يستطلعون له الأخبار ويستكنهون حقائق الأحوال عن كثب ، بعث إلى الكوفة محمد بن مسلمة ، وإلى البصرة أسامة بن زيد ، وإلى الشام عبد الله بن عمر ، وإلى مصر عمار بن ياسر . وبعث غيرهم أيضاً إلى غيرها من البلدان يقابلون الحكام ويحادثون الخاصة ويخالطون العامة ، لعلهم يستطيعون الوقوف على أسباب هذه الثورة الوشيكة الوقوع .

فمن عجب أن يعود الثلاثة الأول وتعود أيضاً بقية الرسل فيبدو أن ليس فى وفاضهم شيء مع ما سبق من ظهور تذمر الناس وعيبهم على الخليفة فى كل مكان ، وأن يلتقوا بعثمان بعد عودتهم ثم ينبثوا إلى المسجد يبلغون من حضرهم من أهل المدينة كأنما كانوا يتكلمون بلسان واحد . قالوا :

« أيها الناس : ما أنكرنا شيئاً ، ولا أنكر أعلام المسلمين ولا عوامهم، فالأمر أمر المسلمين . وأمراؤهم يقسطون بينهم ، ويقومون عليهم .. »

أفكان هذا حقاً رأى الشعوب التى أسخطها حكم عثمان ، أم كان رأى الولاة . . ؟أم هى يا ترى سياسة مقررة . . ؟ أم هى خطة حملهم عليها الخليفة أرادهم بها على حفظ ما استخلصوه فى طى الكتمان حتى لا يطمع فيه أهل المدينة ولا يكون تذمر الناس بتلك الأمصار إغراء لهؤلاء بالتذمر . . . ؟ هل أراد أمير المؤمنين من سكوتهم أن يوسع لنفسه فى التفكير عساه يستطيع تدبير الأمر فى جو هادىء قبل أن ينقض عليه مقر الخلافة . . . ؟ قد يؤيد هذا أن رسله أولئك ليسوا بذوى غفلة أو يعوزهم التبصر وفيهم مثل ابن مسلمة الذى كان ثقة لعمر ورقيباً على ولاته ، يبعثه إلى القطر الشاكى فيستقصى ثم يأتيه من بعد بنتيجة البحث التى تهيىء للخليفة وضع كل أمر فى نصابه الصحيح .

من عجب أن يعود ذلك الرقيب فيعلن كرفاقه على الملأ أنه لا إنكار على عثمان ، ولا شكوى من أمير ، ولا مظلمة يود الشعب لو تلمس لها عدالة . وأن تنتهى رحلته بغير ما بدأها به . . . فلقد خرج من المدينة وهو عليم بما اصطخب فى نفوس أهل الأمصار من السخط على خليفتهم وطعنهم فيه . وغادرها وكانت إلى قليل مسرحاً من مسارح ذلك التذمر الذى شمل أقطار الدولة. أفتن خالط الناس غابت عنه شكاياتهم التى كانت قائمة أمام بصره كالأعلام وهو عنهم بعيد .. ؟

لا ريب أن الإخفاء كان سياسة مقررة وضعها عثمان أو أشار بها مروان وإن جاءتنا بغير هذا صفحات التاريخ . فلم تكن السحب المتجمعة فى الأفق

لتخفى على عين غرير فضلا عن عليم خبير . ولم تكن النذر الخطرة بحاجة إلى استكناه أو غوص فى أغوار النفوس الساخطة على عثمان وعهده فى آن . . . ولكنها وسيلة — فيما يبدو — أريد بها بث السكينة فى حاضرة الدولة عسى أن يستطيع الخليفة أن يحزم أمره . ولعلها خطة ممهدة . ولعل القائمين على الأمر أحسنوا إذ أعلنوا فى المدينة رضاء الرعية ، سواء أكان إعلانهم هذا تقريراً لحقيقة حادثة أم وسيلة لحال مرجوة . ولكن رجلا واحداً أفسد عليهم هذا التدبير أو هم فى الواقع الذين أفسدوه . فقد تخلف عمار عن أصحابه ، وطال غيابه بموطن بحثه حتى ظن أنه اغتيل ومكث طويلا بمصر لا يعرفون مصيره ولا يسمعون عنه . ثم جاءهم من ابن أبى سرح واليها خطاب يقول فيه :

« . . إن عماراً قد استماله قوم انقطعوا إليه ، منهم عبد الله بن السوداء . . . »

ولم يخف الساسة النبأ بل أشاعوه . وكان إلقاؤه على هيئته هذه مغريا للناس بالانقسام تجاه ابن ياسر إلى فرقتين . واحدة سارت وظنون رجال الحكم بالمدينة فى درب واحد فرمت الرجل بالكيد لعثمان ، وأخرى كانت تعلم للصحابى الجليل قدره ، وتقر بفضله ، وتبعد به عن مواطن الظنة والشبهات ، فآمنت أنه مال إلى حق ولم يجنح لباطل . .

وفى الحق لقد بدا من بعد أن أخرى الطائفتين هى راجحة الرأى . فالرجل وضىء الإسلام ، حرى به ألا تستهويه ضلالة . وهو أيضاً دائم الإخلاص لدينه ، قوى الشعور بواجبه نحو أمته ، شديد الخشية لله . . إنه نفس عمار الذى ألبس أدراع الحديد وطوح به على رمضاء مكة عسى أن يفتنوه عن العقيدة التى دان بها أو يبيعهم مبدأه بسلامة حياته فآثر الموت على أن يفتنوه . ولو أن عثمان لم يعرف له تغليبه ضميره على كل شهوة لما أرسله أو وثق به ، ولكنه آمن بإخلاصه للهدف العام الذى يرومونه جميعاً وهو صلاح الأمة فلم يتوان عن بعثه . بل غلب فى نفسه ما يعرفه من

أمانة الرجل على ما كان بينهما من عداوة قديمة . .

فإذا كان عمار قد اجتمع بابن سبأ أو ببعض أصحابه فلغير تأييدهم كان اجتماعه . ولغير الاتفاق وإياهم على النهج الذى يتبعونه إزاء الخليفة ، لأن الخيانة ليست من خلق الرجل . ولكنه بغير شك اجتمع بهم ليتعرف آراءهم فى الشيخ ، وليعلم أسباب انتقاضهم عليه ، وليتبين عن كثب مدى النشاط الذى تبذله طائفة من الشعب هى فى الواقع أشد القوى المعادية لعثمان ، وهو بهذا يبدو مخلصاً لرسالته تمام الإخلاص عاملا جهده على تأديتها خير أداء ، باذلا ما فى وسعه لاستكمال أوجه بحثه . وهو إلى هذا رجل كانت له نظرة مخالفة فى أعمال الخليفة ، لا تعرف مطلقاً التعصب له أو مداهنته ، فوسعه أن يسير فى الطريق الصحيح الذى لابد أن يؤدى إلى إنجاز الواجب الذى وكله إليه الأمير . . ثم هو بميزته هذه كفيل — وقد علم الداء — بأن يعرف مكانه . . ولو أنه كان صنيعة لابن سبأ لظل مستخفياً بمصر حتى يقدم مع الوفود التى أودت بالشيخ . ولكنه ما لبث أن عاد إلى المدينة يسفر عن رأيه ويدعو للاصلاح علانية كغيره من ذوى الغيرة على الدولة والإسلام .

أجل بدا بلا شك رجحان رأى الذين لم يأخذوا بخطاب ابن أبى سرح على وجهه . ووضح للناس بالمدينة أن شكوى إخوانهم بالبلدان الأخرى جديرة بالنصف . بل وضح هذا أيضاً لعثمان وأعوانه بعد أن طالت مداورتهم للأمور وإهمال أخذها بالحزم الواجب ، فكان أن بعث إلى الأمصار كتاباً يقول فيه :

« . . ألا لا يرفع على شىء ولا على أحد من عمالى إلا أعطيته . وليس لى ولعيالى حق قبل الرعية إلا متروك لهم . . لقد رفع إلى أهل المدينة أن أقواما يشتمون وأقواما يضربون . فمن ادعى شيئاً من ذلك فليواف الموسم فليأخذ بحقه حيث كان ، منى أو من عمالى . . »

وأردف عثمان كتابه بدعوة إلى أمراء الأمصار يحثهم على المسارعة للاجتماع عساهم أن يقولوا ويقول فيعلم أين يكون الخير .

وقال لهم بعد أن عرفوا فيم الاجتماع :

« . . أنتم وزرائى ونصائحى وأهل ثقتى . وقد صنع الناس ما قد رأيتم ، وطلبوا إلى أن أعزل عمالى ، وأن أرجع عن جميع ما يكرهون إلى مايحبون ، فاجهدوا رأيكم وأشيروا على . . »

فأى حال يا ترى من الحرج كان فيه أولئك العمال إذ سمعوا أن عزلهم من ولايتهم كان أول مطالب لرعاياهم ؟ . . وبأى أنواع المشورة كان الواحد منهم حقيقاً بأن ينصح الخليفة ؟ . . فى لحظة ذكروا رسل عثمان إليهم فوسعهم أن يسارعوا بالجواب الذى ينطوى على معنى واحد وان اختلف بيانه :

« يا أمير المؤمنين . . ألم تبعث ؟ . . ألم نرجع إليك الخبر عن القوم ؟ . . ألم يرجعوا ولم يشافههم أحد بشىء ؟ . . لا والله ما صدقوا ! . . وما هى إلا إذاعة لا يحل الأخذ بها ، ولا الانتهاء إليها . »

واستطاعوا أن ينفضوا بهذا عن رقابهم سيف الإرهاب .

— فأشيروا على . .

قال له عبد الله بن عامر :

— رأيى لك يا أمير المؤمنين أن تأمرهم بجهاد يشغلهم عنك ، وأن تجمرهم فى المغازى حتى يذلوا لك ، فلا يكون هم أحدهم إلا نفسه .

فأصدق بها مشورة من محارب ! .

وقال سعيد بن العاص :

— احسم عنك الداء ، واقطع الذى تخاف ، واعمل برأيى تصب .

— وما هو ؟

— إن لكل قوم قادة متى تهلك يتفرقوا ولا يجتمع لهم أمر .

كأن قد ذكر تلك الضجة التى أثارها عليه الأشتر وصحبه من غلاة الوطنيين ! . .

وقال معاوية :

— أرى لك يا أمير المؤمنين أن ترد عمالك عن الكفاية لما قبلهم وأنا ضامن لك ما قبلي .

وإنه لرأى الرجل يرى نفسه فى عافية فلا يعنيه أن يبحث فيما يكفل العافية لسواه ! . .

وقال ابن أبى سرح :

— إن الناس أهل طمع ، فأعطهم من هذا المال تعطف قلوبهم عليك .

ومن أولى بالاعتراف بسيادة المال على النفوس من هذا المشير الذى منحه عثمان ذات يوم خمس أفريقية ؟ . .

كذلك تكلم كل أمير يشجوه . . . ولكن الخليفة لم يجزم برأى ، ولم يقطع بأمر ، بل ألقى عينه إلى ناحية فى الجمع . . ها هنا رجل صامت ، لم ينطق إلى الآن بكلمة ، قد ثبت بصره فى العشرين واحداً بعد واحد ، ولكن أذنه كانت غائبة عنه . . طوال الوقت كان لا يكاد أن يفرغ رجل منهم من رأيه حتى يسارع هذا الصامت فيرهف سمعه لما يعج خارج المكان . . . إن الجدل لا ينى يأتيه مشوشاً مضطرباً لا تكاد حروفه أن تبين ، ولكنه واضح الدلالة . . هذه الجموع المزدخرة من الشعب كانت هى الأخرى فى شبه جلسة — تماماً كما لكى أمرها من هؤلاء الولاة ! ولكن هماً يضنيها ، والقلق على مصيرها يملأ قلوبها خشية لأنها شكت ، وجمت أسباب شكواها ، ثم تقدمت بقضيتها إلى حكام هم الخصوم . .

طوال الوقت كان ذلك الرجل معنياً بالجماهير المزدخرة فى الخارج ، يكاد أن يسمع مناقشاتها وإن لم يصله كلام ، وأن يعرف آراءها الجافية فى أولئك الحكام . وكان ذهنه صافياً وإن ازدحمت به الخواطر ، وقلبه هادئاً ثابتاً فى قراره لا يكاد أن يلعب به الخوف . بل لعل فمه قد راح يتلون بأطياف بسمة بين فينة وفينة ، صفراء فيها شماتة . . إنه ليس أميراً كهولاء . لم يعد أميراً بعد أن نحاه عثمان . ولكن لحظته حانت أخيراً . وجاء الوقت الذى سعى فيه الخليفة إليه ليستهدى به بعد أن أطبقت عليه شراك

الأحداث . أفآن له أن يقسو على واتره أم يصفح عنه ؟ . .

بل هو رجل لا يستجيب للعواطف إلا بمقدار ما تشبع أثرة نفسه . الحقد عنده بحساب ، والحب بحساب والنصح أيضاً بحساب . وهو فى كل زمان ومكان لا يبذل منها إلا القدر الذى يضمن له الربح ويجنبه الخسران . . .

وأتاه صوت الخليفة الواهن كأنه من قرار سحيق :

— وأنت يا ابن العاص . . . ما رأيك ؟ .

فالتفت إليه وما زالت تستهوى سمعه ضجة الجماهير ، وقال بلهجة فيها الحقد ، وفيها الخبث ، وفيها الشماتة :

— أرى أنك ركبت الناس بما يكرهون ، فاعتزم أن تعتدل . فإن أبيت فاعتزم أن تعتزل . . فإن أبيت فاعتزم عزماً وامض قدماً . . .

فكأنما لم تخف الرنة السكريهة فى حديثه عن مسمع عثمان : فصاح به :

— مالك قمل فروك ! . . أهذا الجد منك ؟ . .

فلم يجب . بل ترك أذنه ثانية تنعم بالأصداء المنبعثة عن أصوات الصاخبين فى الخارج . وهو الآن قد أشبع حقده وثأر لنفسه من الشيخ الذى نحاه عن مصر وأذهب عنه جاه المنصب . فى ظنه أنها دولة أوشكت أن تدول وعهد قاربت شمسه الأفول ، ثم يأتى على أثره آخر يستند إلى أعضاد هذا الشعب الثائر . ولقد قال كلمته فى صاحب العهد واستطاع أن يسوقها فى الثوب الذى لا بد سيروق الجمهور . ولن يلبث إلا قليلا حتى يتسامع الناس فيكون هو عندهم الرجل الذى لوح بقبضة يده فى وجوه الطغاة ! . .

ولكنه ابن النابغة ! . وليس هو بابن أمه إن لم يعلك فى يمينه الأمر ثم يعلك فى يساره نقيضه ! . . ليس هو إذن بعمرو ذى الوجهين إن لم يراهن فى آن واحد على جوادين ، لا يعلم على التحقيق ايهما الخاسر فى السباق ولكنه يعلم أن واحداً منهما مكتوب له التفوق فى نهاية الشوط بكل تأكيد . . .

لذلك لم يزايل مجلسه . وظل ثابتاً لا يريم . فلما أن انفض جمع الأمراء

وبقى هو وحده من دونهم ، تقدم بخطى ثابتة لا تعرف الاستحياء فأظهر الولاء لعثمان وقال فى انكسار :

« يا أمير المؤمنين . والله لأنت أعز من ذلك . ولكنى علمت أن بالباب قوماً قد علموا أنك جمعتنا لنشير عليك . وسيبلغ الناس قول كل رجل منا ، فأردت أن يبلغهم قولى فيثقوا بى فأقود إليك خيراً أو أدفع عنك شراً » .

فإن هى إلا مراءاة جبلت عليها طبيعته ولن يلبث أن يهتكها لسانه إذا تواترت الأيام ..

٢١

فشل مؤتمر العمال . فلم يسفر عن تحقيق رغبات الناس . لا ولا أولاها وبقى الولاة على أقاليمهم وقد أعاد تثبيتهم فيها عثمان .

ونظر الناس فيما بعد بالأمصار إلى نتائج الاجتماع فهالهم ما انطوت عليه . إنهم ثانية قد ارتدوا لما قبله . ووقفوا شاخصين إلى موكب الزمن السيار ، وجنحت حياتهم العامة إلى زاوية من الجمود . لكأنه عبثاً كان جهادهم طوال تلك الأعوام وسعيهم الدائب إلى نوع آخر من العيش الإنسانى الذى تظله الكرامة . لكأن عثمان وقد نفضت مشكلاتهم أمامه آثر أن يلقاها بهز كتفيه .. أهم عند أمير المؤمنين بهذا الحد من الهوان ؟ .

بل أهون شأناً على نفسه منهم بالأمس ، وأنفسه من أن يوسع لهم فى الإصلاح المنشود ، فقد كذبتهم آمالهم هـــذه المرة أيضاً وخانتهم بقايا الثقة التى أودعوها الخليفة . . عند ما جاءهم دعوته للقيام بموسم الحج — قبل دعوته الأمراء — ظنوا أن شمس الإنصاف آذنت ببزوغ ، أو هكذا حسب الأكثرون ، ولكنهم بعد قليل أصبحوا فرأوا عمالهم يتهيأون للرحيل ، فلم تعد هناك حاجة إلى إسراعهم بشكاواهم إلى الخليفة . . كانوا أمام كتابه لهم فرقتين . واحـــدة أحسنت الظن فآمنت أن دعوة الأمراء لن تلبث حتى

تسفر عن خير ، وأخرى ملكتها الاسترابة فأيقنت أن عثمان الذى انقاد دائماً لعماله على البعد لن يسمع من وفود المتذمرين وأولئك العمال يحيطون به كالسور ، وهذه وتلك آثروا أن ينتظروا النتائج التى ستبدو غب الاجتماع .

ولكنهم جميعاً آذنهم النتائج وهالهم ما انطوت عليه . فلم يكن بها معنى الإصلاح ولم تبق ما كان كما كان ، ولكنها انحدرت بحالهم إلى أسوأ من سوء . ومن عجب أن يأخذ الشيخ برأى ابن عامر المحارب فيأمر بتجمير الناس فى البعوث ثم لا يلقى باله إلى رأى ابن أبى سرح بتأليف قلوبهم بالأموال ... أفنسى الصفة الاقتصادية التى كانت عليها شعوبه ؟. أغاب عن خاطره أنه مامن شكوى فاضت عن النفوس إلا كان لها من ورائها سبب مادى ؟. وهل عوامل الانتقاض على حكمه أثارها شىء غير الفوارق الاجتماعية بين الطبقات التى نشأت مرة من التفرقة فى التقسيم ، وثانية من كيل الهبات لطائفة دون الآخرين ، وأخرى من حجز الفىء عن بعض المستحقين ، ومع ذلك فإن الشيخ بعد انتهاء الاجتماع قد أمر ولاته بتحريم الأعطيات على الناس ليطيعوا ويحتاجوا إليه .. إنها إذن سياسة حسم الداء بالداء .. إنها الخطة التى تفتق عنها ذهنه وأذهان مشيريه الدهاة الذين كان هدفهم الإبقاء على صوالح السلطة فى أيديهم بأى وسيلة وإن كانت إذلال الشعب الثائر على الفقر ، بالفقر وبالحرمان .

هذه حرب جديدة شنها عليهم عثمان. ليس أداتها السلاح . ولا التخويف بعزة النفر ووفرة الأتباع . ولا الإرهاب بشدة العقاب وقسوة العذاب .. ولكنها حرب عدتها المادة ، كان لها مثل طعم المر فى أفواه الناس .. حرب جائحة شنها الشيخ على الأرزاق .

ولكنها فشلت كما فشلت من قبل وسائل عثمان ولم يكتب لها النجاح .. فلقد أساء بها الخليفة كعادته اختيار الدواء الذى يصلح للداء . وكأنى بالكوفة غب انفضاض مؤتمره قد احتممت كلها بمسجدها حتى ضاق ، وتذاكر الناس شأنهم قلقين .. كأنى بيأسهم من إنصاف الشيخ يبلغ منتهاه

ذلك اليوم من أيام الجمعة وقد عاد إليهم الأشتر من المدينة يحدثهم بما كان .

ولم يكن هناك عقل يتكلم ، بل العاطفة هى التى ملكت نواصى الحديث ، والقنوط البالغ هو الذى حرك أقدام الناس . وكانوا جميعاً أشبه بقاطع أجمة خلت كنانته من السهام ثم بصر بليث هائج يسد عليه منافذ النجاة ، فما أسرع أن امتدت يده بقوسه يدفع بها عن نفسه وهو يعلم أنها فى الأغلب قليلة الغناء ..

ولكن أهل الكوفة كان يحركهم اليأس . فقد غلبوا على أمرهم أخيراً وضاعت عبثاً أعوام وشهور قضوها فى الجهاد . وأدهى من هذا كله أن ثقتهم فى عثمان قد ذهبت هى الأخرى هباء . فلم يبق ثمة أمل فى إصلاحه وتغييره طريقه القديم . ولم يعد لهم معدى عن العمل لأنفسهم بأنفسهم ، وأخذ حقهم بأيديهم ممن غصبوه ..

وكذلك رفعوا القوس يذودون بها وإن علموها توشك أن تكون قليلة الغناء . وانطلقت جموعهم الثائرة تبارح المسجد كأنها عاصفة . حسب الناس أن يثبت عثمان عليهم سعيداً واليه ليملكوا القدرة على التمرد .. وراحت الأفواج تنطلق إلى خارج البلدة وينضم إليها الأنصار من هنا ومن هناك . وراحت أيضاً تندس فيهم طوائف من أصحاب ابن سبأ دعاة الفتنة يصبون الزيت على النار .. وخرجوا جميعاً إلى الجرعة بقرب القادسية وقد تزودوا بالسلاح ..

وقال لهم الأشتر مالك بن الحرث وقد تجلل وجهه بالغبار ، وهو متقلد سيفه :

« والله لا يدخلها علينا ما حملنا سيوفنا ! »

وأقبل أخيراً سعيد . وعجب للقوم وقد سدوا دونه الطريق إلى الكوفة . فلما علم منهم ما أجمعوا الرأى عليه وقف هنيهة ينقل فيهم بصره ، ثم قال باسما بغير اكتراث وفى صوته رنين ترفع وسخرية :

« إنما كان يكفيكم أن تبعثوا إلى أمير المؤمنين رجلا وتضعوا لى رجلا! ..

وهل يخرج الألف إلى رجل واحد ولهم عقول . . »
وانثنى عنهم يقطع الدرب صوب المدينة .

يا ترى كيف تقبل عثمان هذا العصيان ؟ . . فى لحظة واحدة نسى ما كان قد اصطنع لنفسه من البطش وارتد ثانية كعهده ليناً غاية اللين ، متخاذلا أشد التخاذل ، ضعيفاً مسرفاً فى ضعفه . وسعه أن يخفض رأسه لثوار الكوفة كأنما يقر لهم بحقهم فى التمرد . . ولكنه بهذا قد هون أمره على الناس قبل أن يهون عندهم أمر سعيد ، وراحت هيبته لكى لا يكاد أن يحتفل بها رجل واحد ، وزادت الجرأة عليه فيما وراء البلدة حين سرى نبأ الحادث حتى أوشك أن يكون نذيراً بانقضاء سلطانه ، ولم يكن عجباً أن يأتيه من بعد نبأ عن حادث مماثل يقع بناحية أخرى من أقاليم الدولة ، وأن يخلع قوم طاعته هنا أو يخلعها غيرهم هناك ، فقد علم الناس أن يعصوه وأغراهم بعصيانه . وهم الآن لا يعرفون له حقاً عليهم ولا رقابة ولا قليلا من سيادة تردهم إلى مركز التابع من المتبوع ، بل أصبحوا سادة أنفسهم ، أمرهم فى أيديهم وشأنهم إليهم ، لا يقرون لمثله بسلطان ، وليس بدعاً أن يصبح الحكم من بعد فوضى تبتزه شراذم الثوار حينما تشاء .

أما المدينة فقد استقبلت مؤتمر العمال بأمل وودعته بملل ، بل أوشكت أن يسودها توجس وقلق ، وهى تلقى ببصرها من خلال آماله إلى المستقبل القريب . لم يسفر للناس عن شىء يهدىء مخاوفهم ، أو يرد عنهم خشيتهم على مصيرهم فى ظلال هذا الحكم ، بل هو ألقى حجاباً كثيفاً بين الشعب وبين حكامه ، وأيقن بعده كلا الفريقين أن عزته فى هدم أخيه .

أجل ؛ أصبحت هكذا الحال ، وما أحسب أمراً ينتظر أن تصيب قضيته العدالة لدى خصمه . وما أحسب عاملا من عمال عثمان يستطيع أن يفهم أن غلبة الشعب عليه وعزله من منصبه هو نصر له لأنه نصر لشعبه . . . لذلك بات الناس بعد انتهاء المؤتمر بإقرار الولاة على أقاليمهم يكادون أن ينفضوا الأكف من إصلاح الحال ، وعادوا يسيرون ثانية فى دائرة التيه .

ولكن لمحة من أمل خطفت أمام الأبصار في الأفق كأنها خط البرق ، فقد دعا الخليفة إليه أصحاب رسول الله ليسألهم المشورة ، فحسب الناس أنه لقاء لا يتمخض إلا عن خير ، وتلبثوا ينتظرون راجين ، والتأم الجمع بسعد وطلحة والزبير وطائفة أخرى من المهاجرين ، وكان الوقت قد آذن بدخول الأصيل ، ومسجد النبي أوشك أن يفرغ من الجموع بعد صلاة العصر حتى لم يبق فيه غير نفر قليل . وكان علي في ناحية منه ، إلى جواره ابن عباس يحدثه حين أقبل رسول من لدن عثمان يدعوه . .

والتفت أبو الحسن إلى ابن عمه :

« لم تراه دعاني يا عبد الله . . ألا تنطلق معي ؟ » .

ودخلا حيث اجتمع الصحب بأميرهم . فما إن استقر بهم مكانهم حتى وقف عثمان فقال :

« إن ابن عمي معاوية هذا كان غائباً عنكم وعن ما نلتم مني وما عاتبتكم عليه وما عاتبتموني فيه .. وقد سألني أن يكلمكم ، وأن يكلمه منكم من أراد .. » .

فأدار سعد بصره هنيهة في الحضور كالمستنكر . إن هذا الشيخ لا ينى يتخذ من آله أستاراً يختفي خلفها ويحتجب بها عن قومه . ولو أنه آثر أن يلقى الناس بنفسه لكان خيراً له . .

وقال له سعد وهو لا يداري عنه ضيقه بهذا الأسلوب من التفكير :

— وما عسى أن يقال لمعاوية أو يقول إلا ما قلت أو قيل لك ؟

— على ذلكم يتكلم .

وأشار لصاحبه فوقف بينهم . فماذا يا ترى أغراه باتباع تلك اللهجة المعادية حيال أولئك الناس ؟ . . إن معاوية بغير شك رجل فيه حذر ، وفيه عناية بسلامته وسلامة أمارته كفيلة بأن ترده حريصاً على التماس رضاء هذا النفر من أعوان رسول الله — هذه البقية الباقية من أهل الشورى الذين لن تلبث الخلافة أن تأتي أحدهم طواعية فلا يأمن أمير الشام بعدها أن يبقى له أمره . ولكنه مع ذلك تكلم . وعنف في خطابه إيام

إلى حد كان يحمل معنى التحدى لهم والرغبة فى إثارة غضبهم . . بل لقد بلغ من استهانته بأقدارهم أن لف حديثه بالوعيد والتهديد فقال :

« . . إن وراءكم من إن دفعتموه اليوم اندفع عنكم ، ومن إن فعلتم الذى أنتم فاعلوه دفعكم بأشد من ركنكم وأعد من جمكم ، ثم استن عليكم بسنتكم ورأى أن دم الباقى ليس بممتنع بعد دم الماضى . . »

إن هذا إلا صلف أغرته به نفسه ، واعتزاز بقدره وسطوته عند الخليفة وفى ولايته البعيدة التى اشترى نفوس أهلها بماله وبغيره من الأساليب التى يستجيب لها الضعف البشرى ويخضع لإغرائها المجتاح . ولكن علياً أبى أن يقره على إدلاله فصاح به يقطع عليه الحديث :

— كأنك تريد نفسك يا ابن اللخناء ؟ . . لست هنالك !

فأجابه معاوية بلهجة المعاتب :

— مهلا عن بنت عمك ، فليست بشر نسائك . .

ثم راح يتمم لهم حديث التهديد :

« . . إنما ينظر التابعون إلى السابقين ، والبلدان إلى البلدين . فإن استقاموا استقاموا . . وأيم الله لئن صفقت إحدى اليدين على الأخرى لا يقوم السابقون للتابعين ولا البلدان للبلدان . وليسلبن أمركم . ولينقلن الملك من بين اظهركم . فما أنتم فى الناس إلا كالشامة السوداء فى الثور الأبيض . ولقد رأيتكم نشبتم فى الطعن على خليفتكم . وبطرتم معيشتكم . وسفهتم أحلامكم . ألا فالصبر على بعض المكروه خير من تحمله كله . . »

فأى أثر تركه هذا الرجل فى صدور سامعيه ؟ ، ولأى الغايات رمى من وراء تخويفهم ببطشه ؟ ، وبأى حق نصب من نفسه حاميـــا للخليفة وأولى بعثمان أن يكون هو حامى الولاة ؟ ، وهل كانت ياترى نبوءة خالصة ألهمها صاحب الشام حين تحدث لهم عن نقل الملك من مدينة الرسول ؟ .

أحسبه كان جاداً فى كل ماقال ، يعنيه إلى آخر حرف من حروف كلامه ،

فلم يلق حديثه عبثاً بغير روية أو لغير غاية . ولم يثر فيهم حفائظهم إلا وقد دبر أمره أو أيقن أنه يستطيع تدبيره . ولم يطف بوعيده عليهم إلا وهو عليم بقدرته على إنفاذه .

أما الوعيد فلم تكن هذه أولى الكلمات التى نضحت به بل سبق به ذات يوم لسانه وقد لقى بالمدينة عمار بن ياسر وقال له بلهجة الجد الصارم :

« .. إن بالشام مائة ألف فارس ، كل يأخذ العطاء مع مثلهم من أبنائهم وعبدانهم ، لا يعرفون عليا ولا قرابته ، ولا عماراً ولا سابقته ، ولا الزبير ولا صحابته » .

وراح يردد أسماء صحب رسول الله برنة تعريض ثم انثنى إلى أسلوب الإرهاب :

« فإياك يا عمار أن تقع غداً فى فتنة تنجلى ، فيقال هذا قاتل عثمان وهذا قاتل على» .

فكأنه بهذا قد علم أنه حقيق بأن يعتمد على قوة جنده إن دعت الحال . إنه على أى حال رجل كبير الأطماع ، قد دأب خلال الأعوام العشرين التى قام فيها بحكم الشام على أن يوطد بها أمره ، ويثبت أقدامه ، ويتخذ حيال أهليها كل ما هو كفيل بأن يجعلهم أطوع إليه من بنانه . وهو قبل هذا له عندهم نفوذ اكتسبه من تلك الصلة القديمة التى نشأت على يدى أمية جده حين نفاه هاشم إلى الشام فراح يؤلف الأقوام بهـا حوله ليكونو له عدة على عمه . وهو ثالثة قد خلف على إمرتهـا أخاه يزيد بن أبى سفيان الذى كان عاملا لأبى بكر وعمر . ومنـذ تلك اللحظة وهو قائم على أمورها ، يتبدل الولاة والعمال فى الأقاليم حوله وسلطانه عليها ثابت ، ومكانته بهـا وطيدة لا تعصف بها غير السياسة . فلما أن ولى عثمان أضاف إلى قوته قوى جديدة بأن ضم إليها بضع ولايات جمعت له حكم الشام بأقاليمها المختلفة . وأصبح معاوية بكل هذا يمتاز على أقرانه من الولاة . فلم تـكن له كمثلهم صفة الولاية بقدر ما توافرت فى إمارته صفـات الملك المتوارث الذى دان له

دهراً يوشك أن يبلغ مثل عمر الإسلام فى أرض الشام .

علم الرجل رسوخ قدميه بأرضه هذه فوسعه أن يزهى ويقول ليس يرده عن زهوه واعتداده بقوته استحياء واجب عليه نحو خيرة صحب رسول الله ، ولا أقدار لهم كفيلة بأن ترفعهم فى عينه كما رفعتهم فى عيون بقية الناس ، ونسى فى تلك الساعة أنهم أكرم على النفوس من أن يتناولهم بمثل تهديده . وإن صاحبه كان هو الأولى بالعتاب والملامة ما دام لم يرع خلافته حق رعاية . ولم يرع كذلك حق شعبه حتى حق أن تميل عنه القلوب .

أما كان معاوية إذن يشق طريقه بأقدام الواثق ، ويبنى صرح مستقبله السياسي وهو جد عليم بأنه وطيـــد الأساس ؟ . . ما أحسبه إلا قد آمن أن أزمة عثمان سوف لا تنجلى عن خير ... وما أظنه إلا استشف نتائجها المحتومة وهو بالمدينـة لم يبرحها ، بل وهو بعيد عنها لم يدخلها بعد ، ولعله قد استطاع إذ ذاك أن يرخى لأطماعه العنان ، وأن يتركها تنساق أمامه إلى أقصى الحدود . والرجل الطموح لا ينى يرقى فى سـلم غاياته بلا انتهاء . . . وكان صاحب الشام ذلك الرجل . وكان كذلك حريصاً يجيد التدبير قبل اختياره الطريق التى تبلغه هدفه ، ولقد دبر لنفسه ، ودبر له أيضاً حسن حظه من قبل حتى اجتمعت فى كفه ناحية من الدولة الإسـلامية وسيعة ، لا تكاد تنطق قبل أن يشير ، أفئن مد بصره إلى بعيد أفيكون عليه ثمة جناح ؟ .

بل ليس عليه من جناح بعد أن تهيأت له قوى من رجال ومال تؤيد طموحه . وبعد أن توفرت لديه أسباب النجاح فى الحالة الخلقية التى أصبح الناس عليها فى ذلك الحين وقد غلب فيهم سلطان المادة على قوة الروح ، وكان هو خير من يعمل على تغليب ذاك السلطان . وبعد أن ألف السيادة أعواماً — بنفسه وبأهله — كانت أطول من عمر هذه الدولة التى وسعها طموحه ، فما من شك وهذه حاله أن يعمل قدر طاقته على أن يسود الأمة الإسلامية كلها فلا يكاد يحس أنه يعمل لأكثر من توسيع رقعة الأرض التى دانت

له بضم دويلة من هنا إليها ودويلة من هناك .

بمثل هذا العناد النفسى الذى استشعره الرجل من وراء ميزاته استطاع إذن أن يلق بقية صحب محمد ، وأن يتهمهم ، وأن يبسط أمامهم وعيده . . . اما كلماته عن نقل الملك من بين أظهرهم فلعلها لم تكن نبوءة ، ولعلها أيضاً لم تكن كلها تهديداً ساقه ليرهب سامعيه . . . هى فى الحق كانت أقرب إلى التمهيد منها إلى التهديد — المقدمة التى لن تلبث حتى تنكشف نتائجها عما قليل.

ما كاد ألا يبق لمعاوية بالمدينة مقام حتى قال لعثمان :

« يا أمير المؤمنين . . . انطلق معى إلى الشام قبل أن يهجم عليك من لا قبل لك به . فإن أهل الشام على الأمر لم يزالوا . . . » .

فلم يرض عثمان . ولكن العرض فى ذاته كان حرياً بأن يرفع صاحبه فى عينيه ، ويضعه منه موضع الغيور على الخلافة ، الأمين قبل غيره على سلامة الشيخ . وهو هكذا اقتراح قد تكون له جدواه على عثمان لو قبله ، ولكنه محقق الجدوى على معاوية فى حالتى الرفض والقبول . فما من ريب فى أن نقل الخلافة الإسلامية إلى الشام خطوة لا ثانية لها إلا نقلها إلى كنف معاوية ، سواء عن وصية من الشيخ عند قرب حينه أم عن اختيار متروك إذ ذاك لأهل الشام قبل غيرها من البلدان . أما وقد أبى عثمان أن يأخذ برأى ابن أبى سفيان، فقد كفى هذا أن يسبق غيره من الولاة فيبدو حامياً لخليفته ، ويبدى المرشحين للخلافة كلهم فى مظهر لا تطيب له نفس عثمان .

ومع ذلك فلم يبرح مكانه حتى استوثق لنفسه . كان حاذقاً إلى الحد الذى يجعله لا يكل تدبير أمره للظروف فدبره قبل أن يغادر المكان . . . عرض فى البدء على عثمان أن يعده من لدنه بجند يحميه ، فلما أبى استطرد فصور له الخطر المحيق به ، ثم قال :

— . . . فاجعل لى الطلب بدمك إن قتلت . . .

— هذه لك .

فخرج وكأنه ليس الرجل . . . ومر فى طريقه بالمسجد على بضعة من

الصحابة فيهم على وطلحة والزبير . وكان قد ارتدى ثياب سفره وتقلد سيفه ، فلما لمحهم تريث برهة ، واتكأ على قوسه ، ثم راح ثانية يحذرهم إن أصغوا إلى الدنيا وطلبوها بالتغالب أن يسلبوها • وبدا فى هذه المرة أكيس منه فى سابقتها فألبس وعيده ثوباً ناعماً من الرقة حتى كان كمهده يجمع إلى الشدة لطف الحديث . وانتهى كلامه لهم بأن قال :

« . . . إنى قد خلفت فيكم شيخاً ، فاستوصوا به خيراً وكانفوه . . . »

وتبعته الأعين وهو يبتعد . لم يكن هو حقاً نفس الرجل . . إنه الآن محوط بهالة من السيادة ، وبطيف من الرحمة حتى أوشك أن يظهر بما لم يكن فيه . . .

وقال على لمن حوله وبصره لم يرتد عن هيكل الراحم الرحيم :

« . . . ما كنت أرى أن فى هذا خيراً . . . »

أفعنى أنه لبس لبوساً لا يوائم حاله ؟ • • من يدرى • • ولكن الزبير بدا كمن استهوته هيئة صاحب الشام وألقت فى قلبه شيئاً من المهابة له ، لأنه أجاب :

«لا والله • • ما كان قط أعظم فى صدرك ولا فى صدورنا منه الغداة • •»

وانطلق معاوية • • كان حقاً غيره من قبل • على الأقل لاح هكذا فى عينى نفسه بعد عينى الزبير وعينى عثمان . الأطماع التى كانت تلمع أمامه دائماً عند حد الأفق كادت أن تلمسها أنامله الآن . . إنه برز إلى الصف الأول بين صحب الخليفة وقام على رأسه . . وتقدم قريشاً كلها بعد أن جرح ولاء شيوخها لعثمان وفيهم أهل السابقة والشورى وخيرة المهاجرين . . وأصبح سيد أمراء الدولة وأكثرهم غيرة على سلطان سيده وعلى سلامته . . ثم جمع إلى هذا كله السبق على أهله جميعاً وقد بات من بينهم المنفرد بولاية دم عثمان ••

أجل إن الأطماع الآن أوشكت أن تتقبض عليها كفاه •• وفى طريقه

إلى الشام لعله استذكر هذا وراح يجيله فى ذهنه . وانطلق به الركب إلى مقر إمارته وهو جد سعيد . وكلما ألقى عينه على بغلته تحته وهى تخب به استشعر الرضاء والطمأنينة . . ما كان ليحلم أن تسير الأمور بمثل هذا اليسر وهذه السهولة ، وما ظن مطلقاً يوم غادر دمشق أنه سيدخل المدينة بحال ثم يغادرها بغير تلك الحال . لعل نجمه إذن أوشك أن يبزغ ، وأن يعلو لامعاً فى سماء الحظوظ حتى يكسف غيره . لعل الزمن أخيرا شاء أن يسير سيره المرغوب وأقبل يمد نحوه يده . لعل نبوءة كعب صدقته ، فكعب كما علمه صادق النبوءات .. ما كان أقرب هذه الذكرى منه ، وما كان أحبها إليه .. إنه لن ينساها . لن يستطيع هذا ولو راض نفسه على النسيان ، ولو مضت أيضاً على قصتها أحقاب . وإنها لجديدة أبداً فى ذهنه ، ثابتة لا تكاد تبرحه ، تراوده فى كل لحظة كلما التقت نظراته على بغلته الشهباء

وانفرجت شفتاه عن رضا واطمئنان ، والركب يسير ، وموكب أفكاره أيضاً يسير . وكر ذهنه وئيداً إلى الذكرى الحبيبة وإلى القصة العاطرة التى أصبحت الآن رفيقة سفره . ولم يكن اليوم ببعيد . إن هى إلا أيام قلائل تقضت على الساعة السعيدة التى أطلعتها . . وإن هو إلا نفس المنظر الذى يحوطه الآن .. ركب كالركب ، وقافلة كقافلة تضرب فى لجج الرمل ، ورنة حاد لها صدى فى هدوء الصحراء . . كان إذ ذاك فى ركاب عثمان العائد بهما إلى المدينة بعد الموسم حين رجز ذلك الحادى الجرىء بصوت حنون :

قد علمت ضوامر المطى وضمرات عوج القسى

أن الأمير بعده على وفى الزبير خلف رضى

وطلحة الحامى لها ولى

وانتفض معاوية . إن شيئاً خشناً كالشوك أوشك أن يمس قلبه ، ولفحة مسعرة كالنار مرت به . ولكن رجلا بالركب أفاء عليه فى لمحة عين هدوءه ، وأسبغ الطمأنينة حين هتف بالراجز فى نبرة رصينة :

« كذبت ! . . . »

فاستدار معاوية يلتفت إليه . هذا هو كعب . وهذه أصبعه تشير نحوه . وهذه كلماته الهادئة تتم الحديث :

« الأمير بعده صاحب الشهباء ! »

فكأنما كان لنطقه مثل السحر ، رفع الكف الشائكة عن القلب وأبعد عنه لسع النار . . على الأثر تغيرت هيئة أمير الشام ، وأشرق وجهه ، والتمعت عينه راضية فرحة وهو يلقى بها فى جلال وهدوء على الدابة التى تخب تحته . . على بغلته الشهباء ! . .

٢٢

عام انقضى أو أوشك والحال هى الحال . الشكوى باقية ، والأمير ساكن ، والشعب يكاد أن يحتويه الاضطراب . الشام وحده هو الغارق فى الهدوء . وحاكمه وحده هو القرير ناعم البال وإن أيقن أن سيده يجلس على بركان . والكوفة لم يقر قرارها بعد . إنها وإن احتلبت بعض حقها عنوة وهنأت به ، إلا أنها ظلت بضعة أشهر أخرى تتوقع المزيد . هى حقاً نصبت عليها من ترضاه ونزعت عنها صلف الفتى القرشى سعيد بن العاص . ولكن هذا ليس كل ما صبت إليه . إن فى آمالها بقية تنتظر التحقيق . وفى شرعة المساواة سطوراً كثيرة ظلت مطموسة لم تظهرها براعة عثمان . كم أبلى أهلها فى نواحى فارس وأثخنوا فى أراضيها ، ثم عادوا وعلى أكفهم النصر وفى ركابهم الغنائم من سبى وأسلاب ، ففازوا منها بنصيب ، وفاز بالأنصبة غيرهم من القرشيين الذين لم يهزوا رمحاً ولم يرفعوا قدماً من مكان لمكان وكانت مصر أيضاً شاكية ، أبى حظها أن تهنأ بمثل هذا القليل الذى وسع أختها أن تناله ، وظلت مغلولة الصدر فى كنف ابن أبى سرح . وبقيت البصرة هى الأخرى قلقة ، ترقب نافذة الصبر قليلة الحيلة أن تطلع عليها شمس اليوم المأمول . .

ولكن شهوراً طويلة مضت منذ اجتماع العمال لم تسر فى ركابها بشرى واحدة بقرب انتهاء فترة القلق والانتظار . الأيام لها على النفوس وقع والليالى بطيئة راكدة تجر فى أعقابها مثيلات لها تعيى الصبر وتوهن التريث . الوقت كله متخاذل ، يزحف كما تزحف سلحفاة . طويل كهيئته فى عين مسهد طرف نبا به الفراش . شديد الوطأة ثقيل كوقعه على مريض .

كان الزمن هو العدو الذى ضاق به الناس ، وحاصر جلدهم حتى أوهاه ، وعاش بهم فى ظل حياة سقيمة مملولة هى إلى الموت أقرب منها إلى الحياة . ولقد وسعهم فى البدء أن يصطبروا ، وأن يتلبثوا به ويلاينوه . ولكن فترة الترقب كانت طويلة العمر ، بدت كأن كانت بغير نهاية . وموالاة الانتظار لا تأتى بخلاص وإنما بانتظار جديد . والتريث آفة توشك أن تورث النوم فكفى الشعب الآن ما انتظر وما نام .

كذلك انتهى الرأى إلى وجوب العمل ثانية ، ووجوب الإسراع فيه هذه المرة والحرص على استخلاص نتائج حاسمة منه . إلى هذا انتهى رأى الناس فى الأمصار وماهدوا نفوسهم عليه . حتى فى الكوفة استطاعوا أن يجدوا أسباباً ، بعضها نفسى والبعض مادى ، دعتهم لمشاركة إخوانهم الآخرين ، وكانت الرسائل ترد دائماً إليهم فيها علائم التذمر والخطوط التى رسمت لإبرازه ، ثم ترتد عنهم مثيلاتها عبر حدودهم لكل الجهات . وكانت طريقة ربط كل بلد بغيره دقيقة غاية الدقة ، منظمة أتم نظام ، قد أشرف عليها أناس وكانوا بهذه الشؤون فأحسنوها . أما رأس الحركة الذى دبر كل الأمر فرجل موهوب ، شديد الذكاء ، عالى الهمة حتى لاينام عن غايته أو يغفل عنها لحظة . . . إنه ذلك اليهودى الأسود ابن سبأ . الذى ذرع البلاد الإسلامية كلها من الجنوب حتى الشمال ، ثم استقر به قراره بمصر فأقام بها يعهد لبث عيونه وأنصاره بكل قطر ودرب ودار . هذا الداهية استطاع أن يقرأ خلجات الأنفس فدبر أموره قبل أن تنطلق من عقالها أعمالا تبدو للأعين أو أقوالا تلفظها الألسن .

عرف ابن سبأ أن الناس داورهم زمنهم حتى أيسوا من خليفتهم وبرموا بإمهاله أكثر مما مدوا له فى حبل الإمهال . وأن أفكارهم هفت ثانية إلى الأمير تعاود المناداة بالعدالة . وأنهم موشكون أن يفموا إليه ظلامات دعاهم أن يبثوه إياها عامهم السالف فأرجأوا رفعها طمعاً فيما حسبوا أن سيتمخض عنه مؤتمر العمال ... عرف هذا فكاد أن يراهم بعين التصور منطلقين من هنا أفراداً ومن هناك جماعات ، لا تجمع بينهم وحدة العمل وإن جمعتهم وحدة الغاية . يأتون الخليفة متفرقين ثم ينفضون عنه ثانية متفرقين بعد وعد منه أو بعد وعيد . أفليست هذه إذن هى اللحظة التى ترقب شيخ السبابية حلولها أعواماً ؟ .. هل ثمة فرصة خير من هذه يوشك أن يسفر عنها الزمان ؟ .. أو لم تحن بعد ساعة الصراع التى تربص بها الرجل طويلا ورتب لها طويلا بغير ونى ولا إمهال ؟ .. إنما الأجدى على دعوته ألا يدعهم يذهبون هكذا ، متفرقين ضائعى القوى من التفرق ، إلى الموسم حيث تبتلعهم أفواج الحجيج . بل الأجدى على دعوته الهدامة أن يرسم لهم خط السير وساعة التجمع وخطة العمل ليفجأوا الشيخ فى المدينة قبل أن يبرحها إلى البلدة الحرام .

ما كان أقصر مرمى عين عثمان إذ ذاك وما أشد ببصره كلالة ! ، ليكاد ألا يرى لأبعد من قيد يده . إنه غاف عما يحدث خارج نطاق بلدته ، غافل عنه ، وحتى ما دار بالمدينة كان يراه بعين سواه . استمار دائماً أبصار حاشيته لينظر ، وعقولهم ليفكر ، فلم ير الخطر إلا حينما رأوه ، ولم يبادره إلا بأكفهم وأيديهم . كل ما يشغل همه اليوم رجل واحد ، واحد فرد من الرجال ملأ سمعه وبصره وآفاق تفكيره . حياته كلها امتلأت به . إن سار لقيه ، وإن أصغى سمعه ، وإن تلفت رآه . كأنه الصخرة تسد طريقه ، وكأنه المزيم يؤذى أذنيه . وكأنه وهج النار المشبوبة يبدو له وإن أغمض دونه عينيه ... ألا فما بال هذا الكهل الخشن المظهر لا يكاد أن ينأى عنه . ليوشك أيضاً أن يفسد عليه لياليه كما أفسد أيامه ! ، وإنه لثابت فى خاطره أبداً وإن غاب

عن لمح طرفه ، كل من بالمدينة ينطق به وينطق عنه . وكل من خارجها أيضاً كما حدثته الأخبار .

إنه فرد واحد ضاقت به حياة عثمان . هو طوائف المتـذمرين مجتمعة فى شخص ، وعوامل التذمر حية تسير على قدمين ، إنه المـارد الذى يوشـك أن يهدم عليه صرح حكمه ! ، وكلـما استذكر الشيخ المـاضى عجب للصورة القديمة التى كان عليها إذ ذاك هذا الغريم . كلما ألم فـكره بناحية من نواحى شخصية على إبان صباه الأول ، وإبان شبابه ، وإبان رجولته ، لم يملك إلا أن يتهم هذه الصورة الجديدة عنه ، التى رسمها له مروان وأعوانه . ليكاد صاحب الأمس أن يكون غير غريم اليوم ، عهده به من قبل عنواناً على المروءة ، سباقاً إلى النجدة ، يسارع بيده ولسانه وقلبه إلى نصرة كل ضعيف مظلوم ، وإن الخليفة لمظلوم تجنى عليه قومه . فـماذا يا ترى أقعد ابن أبى طالب عنه ؟ ، بل ماذا عسى قد دفعه إلى مظاهرة النـاس عليه ؟ ، أفهو الآن آثر أن يخلع ثوبه القديم فبدا على غير ما كان ، أم هى صورة شائهة زيفتها حاشية عثمان ؟ .

ولـكن الخليفة لا يسعه اليوم أن يستجيب للماضى أو يهدأ له ، ليس له بعد ذهن خاص ، ولا فـكر محرر ، ولا عين ناقدة تنفذ إلى الحقائق التى سترت عنه . إنه أنس إلى طائفة من أهـله أمدوه بالعين وبالرأى . إنه لا يرى من الناس إلا أنهم خالفوه . ولـكنه لا يرى أن أسباب الخلاف كلها مبعثها منه ، وعلاجها كلها موكول إليـه . لقد أراده مشيروه الثقاة على الرؤية فرأى ، ثم أرادوه على ألا يعمل فلم يعمل . أجل لقى الفتنة الوشيكة التسمر بالسكون والجمود ، ولم يحـاول مطلقاً أن يمنع عنها الوقود الذى أرسلها مشبوبة . أو لم يحاول حقاً؟ ، بل علم أن أعوانه أشاروا له على ذلك الـكهل الخشن المظهر وقالوا : إن هو إلا مؤرث النار ! .

السياسة العثمانية إزاء الفتنة الناشـبة كانت مغالطة مرة . فى تلك الأيام بدا الشيخ كالنعامة لوت رأسها عن الخطر الداهم ثم حسبت أنه لا خطر

على الإطلاق ! . كذلك فعل عثمان . وأغمض عينيه عن الأحداث حتى نام . ورضي لنفسه بالخطة التي أشار بها أعوانه والتزموها حيال الخطر النامي فتجاهله ولم يأخذه بالعلاج الناجع السريع . في اعتقاده أنه لم يكن ثمة خطر من ناحية الناس لأنه لم يكن وحكامه يقرون بحق النـاس في النقد أو إبداء الآراء . فلما أن جاءه الخلاف من كل صوب ، وتكلم الناس فيه بما يشاءون ، أصبح يرى أن هناك امرءاً واحداً يستطيع أن يملك ألسنتهم لأنهم لا يسمعون إلا له . فإذا تركهم على وشأنهم يتحدثون فقد قصر إذن في حق الخليفة عليه . وإذا ظاهرهم وأيد عنده مظالمهم فهو الذي يجني وحده الثمرة التي يوشك أن يتمخض عنها هذا الخلاف ! .

بهذه النظرة العجيبة كان عثمان يرمق ابن أبي طالب ، ولا يني يضع تحتها كل حركة يأتيها أو كلمة يسوقها من أجل خير ممنوع يود أن يقيمه أو شر قائم ينادي بهدمه . ما من مرة مشى فيها إليه إلا سبق إلى ذهن الشيخ أنه رمى إلى كشف ناحية ضعيفة فيه ، وهتك الستر عن نقص كان هو يجهد أن يستره عن عيون أمته . ولو أن فكر الخليفة استقام حق استقامة ، ونظرته إلى الأمور كانت نفاذة بعيدة ، لوسعه أن يفتح صدره للنقد ويقبل عليه ، ولكن سوء ظنه كان يغلب فيه الحكمة ، والتوجس من المكانة الشعبية التي نعم بها علي بين الناس كان مغرياً له بالحذر منه . ولم يكن علي وحده هو المصطلي بنار النفور التي أججها الشيخ ، ولكنه كان من بين صحابة رســول الله أولاهم بالاصطلاء لأنه أولاهم بولاية الأمر عند الاقتضاء .

وكذلك عاش على هذه الفترة الصاخبة من عهـد عثمان كالعربة يتجاذبها فرسان ، واحد من جهـة وثان من أخرى . فلم يستطع مطلقاً أن يوفق بين رغبات الشعب وبين سياسة الأمــير ، وأصبح بين إن سكت متهماً من الأمة بالتقصير في أداء الواجب الذي وكلته إليه ، وإن تكلم متهماً من الخليفة بممالأة الناس وتحريضهم عليه ، وليس له للجمع بين الغايتين من سبيل .

لقي ابن عباس معاوية وهو بالمدينة أثناء اجتماع العمال ، فأقبل عليه هذا

يقول كاشفاً عن رأى بقية أهله وفيهم عثمان :

« يا ابن عباس ، إنا كنا وإياكم فى زمان لا نرجو فيه ثواباً ولا نخاف عقاباً ، وكنا أكثر منكم ، فوالله ما ظلمنا كم ولا قهرنا كم ولا أخرنا كم عن مقام تقدمناه ، حتى بعث الله رسوله منكم فسبق إليه صاحبكم . . . فوالله ما زال يكره شركنا ، ويتغافل به عنا ، حتى ولى الأمر علينا وعليكم . ثم صار الأمر إلينا وإليكم ، فأخذ صاحبنا على صاحبكم لسنه . ثم غير ، فنطق ونطق على لسانه . . . لقد أوقدتم ناراً لا تطفأ بالماء . . . » .

أبالدم إذن يستطاع الإطفاء . . . ؟ معاوية وحده يستطيع أن يفصح عن هذا وإن كان فى هذا المقام آثر الإخفاء . . . ومع ذلك فهل بغير هذا الخاطر جرت أفكاره تلك اللحظة التى أدل فيها بمكانة قومه وعزتهم قبل ظهور الإسلام ؟ إن هذه السلالة التى أعجبته جديرة بأن تنسى كل شىء ثم لا تستطيع مطلقاً أن تنسى أن سلالة أخرى بزتها أمام الناس — سلالة جاء منها هاشم وجاء محمد ، وجاء على الذى حسبوه اليوم يحاول أن يغلبهم على السيادة التى غلبهم عليها سلفاه .

وألقى إليه ابن عباس بأفره الهادىء المتسامح الذى يزرى بكل تفاخر واعتزاز .

« كنا كما ذكرت ، حتى بعث الله رسوله منا ومنكم ، ثم ولى الأمر علينا وعليكم ، ثم صار الأمر إلينا وإليكم فأخذ صاحبكم على صاحبنا لسنه ، ولما هو أفضل من سنه . . . فوالله ما قلنا إلا ما قال غيرنا ، ولا نطقنا إلا بما نطق به سوانا ، فتركتم الناس جانباً ، وصيرتمونا بين إن أقمنا متهمين ، أو نزعنا متبين ... وصاحبنا من قد علمتم : والله لا يهجهج مهجهج إلا ركبه ولا يرد حوضاً إلا أفرطه » .

لكأنى بهذه الأسرة لا تنى تتشكك فى منافسيها وفى رأسهم على الخصوص . ولكأنى بعثمان قبلهم وقد علم فيم كان الخلاف بينه وبين على لا يكاد أن تطمئن نفسه إلى على ، ولا إلى النصح الذى أولاه إياه . . . إن

سداً هائلا من سوء الظن وقف بين الرجلين ، وخاطراً بغيضاً لقنه الشيخ افسد عليه أمره ولطخ صـــورة صاحبه القديم بالاتهام . ولقد كان عثمان بتكوينه النفسي وتقدم سنه حقيقاً بأن يميل عن عقله لطته ، وأن يجنح إلى الوشايات التى لفقها آله ، وأن يجمح وإياهم فى الخشية من على والاضطغان عليه . فلقد كان الواشي والسامع كلاهما من فئة أتاها زمنها بخير حسبت أنها عليه محسودة . وكان ذلك الموشى به من أخرى غمطها الزمن حقها حتى حسب أنها موتورة . وكان هذا إجماع الرأى الذى آمن به الخليفة ودفعه نسبه الأموى قبل أى عامل سواه إلى الإيمان به . . لـكانى به لم تطب نفسه لأسباب الخلاف التى عرضها عليـه على ، ، فآثر أن يستكنه الحقائق من لسان هاشمى سواه عسى أن تبدر فى الحديث بادرة يعرف منها الدوافع الخفية .

قال ذات يوم لابن عباس وهو يتلطف به :

« يا ابن عمى ، إنه لم يبلغنى عنك فى أمرى شىء أحبه ولا أكرهه . على أو لى ، وقد علمت أنك رأيت بعض ما رأى الناس فنمك عقلك وحلمك من أن تظهر ما أظهروا ، وقد أحببت أن تعلمنى رأيك فيما بينى وبينك فاعتذر . . » .

فما اعجب أن كان الجواب خلاصة رأى على الذى أدلى به إليه من قبل .

قال ابن عبـاس :

ـــ يا أمير المؤمنين ، إنك قد ابتليتنى بعد العافية ، وأدخلتنى فى الضيق بعد السعة ، ووالله إن رأيى لك أن يجل سنك ، ويعرف قدرك وسابقتك . فوالله لوددت أنك لم تفعـل ما فعلت مما ترك الخليفتان قبلك ، فإن كان شيئاً تركاه لمـا رأيا أنه ليس لهما علمت أنه ليس لك كما لم يـكن لهما ، وإن كان ذلك لهما فتركاه خيفــة أن ينال منهما مثل الذى نيل منك تركته لمـا تركاه له ، فلم يكونا احق بإكرام نفسيهما منك بإكرام نفسك . .

ـــ فما منعك أن تشير على قبل أن أفعل ما فعلت ؟ .

ـــ وما علمى أنك تفعل ذلك قبل أن تفعل ؟ .

فصمت الشيخ . لا جديد إذن عند الرجل ولا حقيقة خافية كشف عنها حديثه ، وإنما الموقف كما كان . وأسباب الخلاف على عهدها الأول تلوح كالماء لقاطع الصحراء ، بعيـداً عن حد الأفق حتى ليحار أهو سراب خداع أم هو حقاً ماء .. ولقد بدا من بعد أن عثمان أبلى قدميه فى ابتغاء السراب ! ..

أجل . أولى الشيخ ظهره للحقائق السافرة وعنى بالتماس غيرها فى نفسية على .. وظل هكذا أبداً ، مخطئـاً أبداً ، ومتجنياً على هذه النفس الرائقة التى لم يكن لها من هدف إلا صـلاح الأمة بصلاح عثمان . ولـكن أمير المؤمنين لم ير الماء لأن أعوانه حولوا عنه نظرته ؛ وأطلقوه يبحث عنه فى سبيل مضاد .

ووسعه مرة أن يجمع أنفاسه ، وأن يهيب بشجاعة قلبه أن تحمله إلى على يحدثه بشكه فيه .. وكان هـذا قد انتحى ركناً بالمسجد بعيداً عن الضوضاء ينفرد فيه بوجهه ، وقد عصب رأسه ؛ وبدا على ملامحه وهن المريض .

وقال له عثمان بصيغة ، قد لا تحمل معنى من المعانى فى غير هذا المقام ، وإن أوشكت أن تسوق الآن معنى الشماتة إلى ذهن شاك عليل :

« يا أبا الحسن . ما أدرى أشتهى موتك أم أشتهى حياتك ! .. » .

فلعـل علياً تلقاه إذ ذاك بنظرة استغراب . ولـكنه على أى حال لم يقل شيئاً ، بل أنصت فى هدوء إلى بقية الحديث .

واستطرد عثمان .

« .. والله لئن مت ما أحب أن أبقى بعدك لغيرك ، لأنى لا أجد منك خلفا . ولئن بقيت لا أعدم طاغياً يتخذك سلماً وعضداً ، ويعدك كهفاً وملجأ ، لا يمنعنى منه إلا مكانه منك ومكانك منه .. فأنا منك كالابن العاق من أبيه ، إن مات فجعه ، وإن عاش عقه .. » .

أكذلك عنى الخليفة أن لا لوم عنـده لابن أبى طالب ، ولا نقمة لديه منه ؟ .. أهو حقاً قد خلت نفسه من شك فيه ، ومن موجدة لعـل هذا الشك أورثه إياها ؟ .. أصفحة على مازالت نقية صافية فى نظر عثمان لم تشبها

شوائب الريب التى ولدتها الوشايات ؟ .. لولا أن الشيخ أضاف على حديثه بقية لحسبنا هذا . ولكنه ما لبث أن أفصح عما انضمت عليه جانحته ، فأردف كلماته اللينة — التى لفهـا بثوب من المجاملة رقيق شفاف — بهذا الاتهام الصارخ والتحذير العنيف الذى كان له فى النفس البريئة النقية وقع أشد من ضربة سيف الاتهام .. قال :

« .. إما سلم فنسالم ، وإما حرب فنحارب . ولا تجعلنى بين السماء والأرض .. إنك والله إن قتلتنى لاتجد منى خلفا ، ولئن قتلتك لا أجد منك خلفاً .. ولن يلى أمر هذه الأمة بادىء فتنة .. » .

وأطبق الصمت الثقيل على الرجلين . لفترة بدت دهراً كاملا لكليهما ، ظل على يرمق صاحبه فى سكون . فى جبينه بوادر عبسة أخذت تتجمع كما تتجمع سحائب عاصفة فى يوم شات . وفى نظرات عينيه التى ارهقها التعب بدا لهب هائج سعره الغضب ، وفى صدره الضخم اضطرب قلبه حتى لأوشك أن يقفز منه .. هيئته توحى بثورة مجتاحه . وكيانه العليل العانى انقلب قوة وفتوة . وهيكله الراكد الهامد مشى فيه تحفز ليث .. ولكن هذا كله كان لفترة ، فترة لا تكاد تحسب بالدقائق وإن لاحت دهراً كاملا فى حساب التوجس والانتظار . ثم مسحت يد السكون ثانية عليه ، وعاد الهدوء يشمله . وانطفأت شعلة النار من ناظريه وتبعتها لمة نور .. بدا الآن وديعاً كما كان ، رائق النظرة ، تكاد أن تفيض كلماته بالرقة لهذا الشيخ التائه عن الحقيقة ، وتمتلىء رنة حديثه بالرثاء له وهو يقول :

« . . إن فيما تكلمت به لجواباً ، ولكنى عن جوابك مشغول بوجعى . فأنا أقول كما قال العبد الصالح : (فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون) .. » .

وبهت عثمان . وتمتم مروان على الأثر بكلمات . ولكن علياً آثر أن يغادر المكان . . . لا جدوى بعد من وراء الجواب والعتاب . . لا نهاية لهذا الأمر كله وقد بلغ اضطغان النفوس عليه غايته . وإنما الجدوى فى

البعد عن ميدان هـذا الصراع وفى النأى بنفسه عن المد والجزر اللذين يثيرهما دائماً عثمان والناس . لعله إن غاب خفت اللغط عنه ووقف السعى إليه .. إنه ليعلم أن الأمة وثقت به ولن ترضى لها بلسان ناطق بشكاواها إلاه . ولـكن غيابه قد يخفف من خلافها نوعاً ، ومن تذمرها نوعاً ، أو فى القليل سيقهرها على أن تضم جوانحهـا على مشاعرها وتصبر زمناً على المظالم . وإنه ليعلم أن ضميره المرهف لم يألف الصبر على حيف . وأن قلبه المشغول بالتماس الكمال سيزيد من همه صمت لسانه عن المناداة بالعـدالة . ولـكن بعده عن المدينة قد يرى عثمان الحال على حقيقتها فيجنح إلى إرضاء الناس .

وكذلك خلف على داره . وخلف جوار محمد وهو حزين مقهور . ولقد كان انصرافه عن البلدة عبثاً مرهقاً لأعصابه ، غير أن مكثه ليس خيراً منه . فليس اتهام عثمان بأول ماسمع ولا نما إلى سمعه ، وليس بآخر ماف جعبة الاتهام أيضاً .. وانطواؤه ببعض ميـاهه خارج المدينة فيه إخلاد إلى السكينة نفسه الآن أحوج إليه ..

ومع ذلك فهـل نعم بهذا الهدوء طويلا ؟ . لـكأنه رجل ولد والتعب فى زمان ومكان .. فلم يفز مطلقاً بالقرار ، ولم يعرف مطلقاً راحة الجسم أو راحة البال . بل مضت حياته كلها من بعد حلقات متواترة من الحركة الدائبة والـكفاح المرير .. حتى فى خلوته تلك كان أيضاً نهباً بين الرعية وبين الأمير ، لا تمضى أيام ثم يجيئه وفد يخرجونه ليكلم عثمان ، ثم لا تمضى اخر حتى يأتيه رسـول ليفض أناساً عن دار عثمان . وهو بينهم وبين خليفتهم ماض أبداً بالشكاية والوعيد ، والشكايات دائماً بلا نهاية . والوعود دائماً بلا قضاء . وإنه بعد هذا الموم من كلا الفريقين كأنه يملك وحده أن يكم الأفواه أو يحقق الشكاة ! ..

ثم جرى الزمن جريه ، وأقبلت الساعة الرهيبة التى جهد الرجل منفردا لردها عن الإسلام ، وبذل من لسانه وقلبه وأعصابه ماملك حتى لا تصبح أمته.. ولـكن جهوده راحت مع الريح ، وما هى إلا أيام قلائل ، ثقيلة كأعوام ، حتى ينطلق سيل الأحداث، قاسياً رهيباً ، يقتلع مايعترض طريقه من سدود وحدود.

حصاد الفتنة

١

إنها ليلة فى الشتاء قارة ، خاصمتها الرياح ، ومشى البرد فى ركبها السارى تحت عين النجم . كانت باهتة الظلمة وإن أوغل الزمن بالمساء ، لكأن لون الثرى انعكس على صفحة الأفق السوداء فأكسبها لوناً ، وكأن السماء تبسم من عل للرمال الوسنى ولكنها بسمة لا تحمل خفة الكواكب الزهر ، فيها صفرة وفيها مرارة ، ليست تفىء البهجة وإن غدت بلمحة نور . . . وكان السكون على الأرض كالسلام وإن أوحى إلى النفس أحياناً التوجس . مهيب تارة وتارة رهيب .

صفاء كأنه غيوم ، وهدوء كأنه مرسوم . . الجفون مثقلة على حذر ، والقلوب منطوية على اضطراب . . والقلق يكاد أن يشيع فى الجو كهذه الحبات السافية من الرمل كلما حركتها نسمة فارقها النوم . إن شيئاً مجهولا يزحف مع الظلام ، خافت النأمة كأنه حية ، لا ينى يسرى مع الليل إلى الصدور فيلمس الأفئدة بأصابع مثلوجة . إن هاتفاً يكاد أن يهمس فى آذان القوم ، الرقود منهم والأيقاظ ، له فى أسماعهم رنة نذير . والأولى أغمضوا العيون دونه عاشوا به فى كابوس ، والأولى انتبهوا باتوا منه كمن جاس بطلل ، فريسة لخوف خفى لا يعرفون مأتاه .

ليلة صفوها طلاء ، وحشوها بلاء . . قضاها عثمان على هم ، وقضتها معه نخبة أعوانه وخلاصة مشيريه وعمت خشيتها دار الإمارة كلها والمدينة من بعد . إنه حدث ليس كمثله حدث ، وفتنة توشك ألا تكون بعدها فتنة . ليكاد الناس يؤمنون أنها النهاية ، ويكاد الأمير أن يوقن أنها المصير ، عند ما نزل به رسول ابن أبى سرح منذ زمن قريب ، لم يحسب الشيخ أن الخطر بهذه القربة . . لم يسىء أبداً الظن فى الناس إلى هذا الحد . . لم يوف به حدسه على مثل هذا التدبير الخطير ، كان دائماً رجلا سمحاً ، رحيب القلب ، نفسه

لم تعرف السواد ، فطن الناس على شا كلته ٠٠ ولـكنهم بدوا الليلة من معدن مغاير ، طلب المدالة وحده ليس غايتهم ، بل الثأر ٠٠ منه هو جاءوا يطلبون القصاص ! ٠٠

وكان الفجر يوشك أن يسفر والرجـل جالس يفـكر ٠٠ إن عماله حقاً لم ينصروه ٠٠ إنهم قصروا فى أداء واجبهم فأساءوا إليه بهـذا التقصير وإن تمنوا نصره ٠ خانوه ٠ وهل التقصير هكذا إلا خيـانة ؟ ٠ قد كانوا جميعا أثيرين عنده ، رفعهم على هام الناس ، وقدمهم حين أخر من عداهم من خيرة المسلمين ، وكانت له فيهم ثقة تامة لا يشوبها شك ، وبقـدرتهم إيمان راسخ عميق ، وبحذقهم فى سياسة شؤون الدولة يقين ثابت ، فليته علم قبل اليوم أنه كان مخدوعا فيهم فنظر إليهم كنظرة الأمة ، لو أنه ساير الشعور العام نحوهم لـكان نحاهم عن مقاعدهم ولـكان جنب نفسه هذه الأزمة ، ولـكنه ظـل متعلقا بهم أبداً ، رابطا مصـيره بمصايرهم ٠٠٠ وها هو يرى الآن كيف كانوا أكفاء ! ٠

أثمة حاكم ، يقدر تبمته ويعلم واجبه حق علمه ، يعرف أن نفراً من رعاياه أرادوا شراً برئيس الدولة ثم لا يهم بهم ويزجرهم عنه ؟ ٠ عبد الله ابن أبى سرح كان ذلـكم الحاكم ، علم أن قوما من المصريين ممن عرفوا بشدة المداء لعثمان دبروا أمرهم فيما بينهم على شر مبيت فسكت عنهم ، كل ما فعله أن أرسل من لدنه رسولا للخليفة يخبره بنبأهم ، ويقول إنهم أظهروا الرغبة فى الحج والعمرة ، ولم يكونوا بضعة نفر يستطـاع أن يؤمن جانبهم وإنما كانوا عدة مئات .

وخرج الثوار من مصر بجموعهم الجيشة ، ومشى فى ركابهم زعيم خطير لهم يشيعهم حتى عجرود ٠ ٠ لقد كان سير هذا الزعيم وإياهم خير كاشف عن الغرض الذى أضمروه ، فلم يكن مجهولا عداؤه لعثمان ٠ ولا حقده البالغ عليه وإن كان قريبه وولى نعمته ، ولـكن ابن أبى سرح حاكم لا يعرف تبمته ، ولا يقدر عظم المهمة الملقـاة فى يديه ، وكان فيما يبدو واهن العزم

شديد التردد . ولو أنه كان فى شك من المهمة التى أرادوا الاضطلاع بها لـكان شكه وحده موجباً لحـذره منهم وتحوطه للأمر قدر وسعه ؛ وللزمه أن يقطع شكه فيهم بيقين ثابت ما دام قد عرفهم من أعداء سيده . ولـكنه كان شديد التردد ، يضطرب عند النوازل وتعوزه القدرة على الحسم .

وكذلك خرج أولئك وأكثرهم من السبأية ، تحت أنفه وعينه ، ومضى فى ركابهم محمد بن أبى حذيفة حتى ودعهم بعجرود ، ومضت جموعهم المائجة صوب الجزيرة كالسيل المنحدر . . أما ابن أبى سرح ، فقد كان يعلم أنه مامن شىء يعصم عثمان عنهم لو أنهم أرادوه . . ليس هناك جيش يحميه ، ولا أعوان أعزاء الجانب يحيطون به عند الخطر ، وليس له جدار منيع بمقامه فى المدينة لأن العبدان والموالى فيها ينقمون منه ومع ذلك فحاكم مصر حسب أنه بلغ الحـكمة كلها حين أرسـل إلى الخليفة يعلمه بالأمر . . وخرج رسوله فى أثر القوم ، واستبق دونهم الطريق إلى المدينة يركب البيد إحدى عشرة ليلة طويلة فى الشتاء ، لا لشىء إلا ليحمل عنه كتابا إلى سيده منتهى ما فيه :

« إن ابن عديس وأصحابه وجهوا نحوه ، وقدخرجوا وهم يظهرون العمرة ، وشيعهم محمد بن أبى حذيفة حتى عجرود » .

وتوجس عثمان ، واضطربت نفسه ، فقد وضح أمامه الأمر كله ، ولم يملك إلا أن قال حين جاءه الرسول :

« يريدون بزعمهم العمرة ؟ . والله ما أراهم يريدونها . . ولـكن الناس قد دخـــل بهم ، وأسرعوا إلى الفتنة ، وطال عليهم عمرى . . أما والله لئن فارقتهم ليتمنون أن عمرى كان طال عليهم مكان كل يوم بسنة ، مما يرون من الدماء المسفوكة »

ولعله عجب من هذا الجهد الأبتر الذى تكلفه ابن أبى سرح حيال أولئك الخارجين ، فراح يتناول الأمر بيديه ، ويبادره بالعـــلاج الذى وسعه . . . بعث إلى من بمكة يحـذرهم الفتنة التى حسب المصريين يوشـكون أن يشوها

فيهم . ثم ورد رسول عامل مصر إليها يأمر واليها أن يتعقب الثائرين .

ولكنها مبادرة كان أوانها قد فات . لقيت تدبيراً ضخماً وخطة محكمة ، فلم يذهب المصريون إلى مكة . ولم يستطع ابن أبي سرح رغم مسارعته أن يلحق بهم في الطريق ليردهم عما أرادوه لو أنه شاء ، بل هو في الحق لم يكن قد تهيأ لملاقاتهم بعدة تخضعهم . وكان من سوء إدراكه للأمور حتى بدا كأن قد خرج إلى نزهة ! . . لو أنه تلقى المسألة باحتفال وجد لدبر الأمر قبل خروجه ، ولأعد قوة تصحبه يستعين بها على رد جموع الثائرين أو مناهضتهم في المدينة إذا سبقوه إلى الخليفة ، ولكنه نسي في هذا الموطن الجدير بالتبصرة والحكمة أنه كان ذات يوم رجل حرب عليما بما يتطلبه الكفاح والجلاد . ومضى في سبيله لا يتعرف مواطىء قدميه ولا ما هو مقبل عليه . . . فلما كان بأيلة فجأته أخبار مروعة : جاءه من مصر نبأ بأن محمد ابن أبي حذيفة قد غلب على البلد واستجاب الناس له . وجاءه من المدينة نبأ بأن الثوار قد حصروا فيها عثمان . وأشكل عليه الأمر . وحار أشد حيرة وقد نازع همه على الخليفة همه على المنصب المضيع . . . فإذا بلغ به الأمر حد الموازنة والاختيار فإنه اختار أن يرتد ثانية إلى مقر إمارته دون الوقوف إلى جوار عثمان ساعة المحنة ! . .

نزل الثائرون قرب المدينة على مبعدة قليل منها ، ذلك اليوم في أعقاب الشتاء . ولم يكونوا زمر المصريين وحدهم ، بل كانوا أخلاطاً منهم ومن البصرة والكوفة ألفت بينهم وحدة الغاية ، وجمعتهم دقة التدبير وحسن التأهب للأمر الذي هم بسبيله . واضطربت بخبرهم دار الإمارة . ووجفت قلوب فئة من أهل المدينة الذين طالت عليهم عهود الدعة والسكينة وبعدت عن نواظرهم عهود الصراع . ولم يأمنوا أن يقعدوا عزلا خشية أن يحدث ما يفاجأهم ، فراحوا يلبسون السلاح ويتخذون الأهبة لحماية أنفسهم إذا حزب الأمر ... هذه فترة لم يمر مثلها بالبلدة منذ أيام أبي بكر حين أحاطت بها جموع مانعي الزكاة . لم تكن مهيأة إذ ذاك للدفاع عن نفسها بعد خروج جيش أسامة

للشام . وكذلك هي الآن . ليست بها حامية . ولا للخليفة قوة حرس خاصة كما استحدث بعض عماله في الأقاليم .

وضرب النازلون خياماً على حدود المدينة : ثلاثة معسكرات قريب بعضها من بعض ، لا تفصل بينها إلا مسيرة ساعات . في المروة نزل أهل البصرة ، وفي الأعوص أهل الكوفة ، وفي ذي خشب عسكر المصريون الذين كانت لهم الكثرة وزعامة قوى الثوار . وتلبثوا جميعاً قليلا يتشاورون في الخطوة التي يجدر أن يتخذوها بعد ... كرهوا أن يبدأوا أعمالهم بالعدوان والعنف ، أو يدخلوا البلدة على أهلها عنوة وفيها أزواج النبي وخاصته وأهل بيته ، وآثروا أن يستأذنوا حتى يقابلهم الناس بالعطف والتقدير . . . هم في عمومهم لم تكن نية إيذاء الشيخ تعيش في خواطرهم وإن لاح أنها توارت في بضعة رؤوس الكبار لهم حبسوها لحين فرصة . إنما أقبلوا ولهم هدف قوامه حمل الخليفة هذه المرة على الرضوخ لرغباتهم والنزول عند مشيئتهم . الوعود اليوم أصبحت لا تلقى لديهم السمع بعد أن ألفوها دائماً بلا قضاء . بل أيسوا ونفضوا منها الأكف لجاءوا وفي نيتهم أن يقهروا الشيخ على النزوع عما كان منه أو يعزلوه . ووطدوا العزم على البقاء لا يبرحون حتى تأتيهم منه توبة يتبعها تحقيق مطالبهم وقدروا أن يستجيب عثمان لهم حين تبدو له القوى التي صفوها له دون أن يطلقوها عليه ...

ومع ذلك فلم يكونوا مجمعي رأيهم على رجل واحد يولونه أميراً على المؤمنين إن دعت الحال إلى عزل عثمان . بل كانت أهواؤهم شتى ، تفرقت تظاهر ثلاثة من أصحاب رسول الله هم خير بقية أهل الشورى وأول من تتجه إليهم الأبصار عند الاختيار ... ولقد رنت إليهم أنظار الثائرين وانطلقت من معسكراتهم على البعد ترمقهم بالإعجاب والتأييد . هوى البصرة مع طلحة ، وهوى الكوفة مع الزبير ، وعلى علي التفت قلوب سكان النيل ...

ولم يكن أحد من الثوار قد دخل المدينة ، ولكن الأخبار توارت

فيها بأن القوم قاتلو عثمان . ولم تكن ثمة حركة تشى بالفتنة المرقوبة ، ولكن الناس تهيأوا لساعة الصرع أو لساعة الصراع . وكانت الرهبة تملأ الجو وتهيمن عليه . وكانت النفوس نهباً فى أيدى قلق الانتظار ، والقلوب تأكلها اللهفة وتكاد أن تسبق الزمن إلى الغد المجهول عسى أن يسفر لها عما يخفيه ...

ثم مضى رسول والليل ، ترك ذا خشب خلفه وسار قدماً إلى دار على . وكانت إذ ذاك جامدة ، يلفها من جوانبها هدوء أقوى من الصمت . وكانت الظلمة سابغة ، بدت لفرط كثافتها كأنها فراغ . وكانت الريح ساكنة سكون الرمل ، وانية لا تستطيع أن تنقل نأمة فى تلك الليلة الذاهبة فى أعقاب الشتاء ...

وبدا على لطارق الليل ، معلماً بسماته وصفاته ، تكاد بشاشته أن تنطق عنه ، وتلك الهيبة التى جللت محياه تشع سحراً يجذب إليه القلوب وإن أبقى أصحابها على قيد منه لفرط ما يحسون له من رهبة . وتكلم الرسول . وتكلم أيضاً من عساهم قد انطلقوا معه إلى هذا الكهل الذى هوت إليه الأسماع والنواظر وهفت القلوب والخواطر . فما أسرع أن تبدلت البسمة التى داعبت ثغره إلى عبسة انعقدت على جبينه . وإذا كلماته تندفع إليهم حادة صخابة . وإذا الغضب يستغرق كيانه كله فيبدو لهم بأسه . لم يكن بالثائر فيقرهم على الثورة ، ولا بالساعى إلى صولجان الحكم فيتخذهم مطية ، ولكنه طراز وحده فى الرجال . لا يقيس الأمور إلا بخلقه ، ولا يستجيب لغير نداء المثل العليا التى التزم نهجها من القدم حتى أصبح هو أكملها وأسماها مثلا . ولعله فى موقفه هذا قد تكشفت لعينيه وسائل العنف التى لا بد سيتخذها الثوار حيال عثمان ذات يوم فحرص على أن يقتل نواتها فى نفوسهم قبل أن تنمو . فما كانت الكلمة الطيبة إن نطقها فى مثل هذا المقام إلا إغراء لهم على السير فى طريقهم الشائك ...

عنف على برسول أهل مصر وهم الذين أقبلوا من ضفاف النيل يحملون

إليه تأييدهم له . وردهم عنه رداً غير جميل . وسفه موقفهم من الخليفة حين ظنوا أنهم جاءوا إلى نصير قوى يحملهم عليه ، وصاحب أولى به أن يظاهر قضيتهم التى لا تعدو فى نهاية الأمر أن تكون نصراً له ... إن النصر فى رأيه هو التعفف . والظفر الذى يأتيه من طريق العصيان خذلان كله وهزيمة نكراء . وما أحسبه فى هذا الموطن إلا قد ذكر أمثالا له أوشك إبانها أن يجتمع فى كفيه الأمر فقبض دونه يده لأنه رآه مدعاة لتفرقة شمل أمته وفتح ثغرة فى صفوفها المرصوصة .

حتى هذه الرسالة السرية أباها أيضاً — هذا الكتاب الذى بعثه إليه من مصر محمد بن أبى حذيفة — رفض على أن يمسك به أو يظهر على ما فيه حينما امتدت به إليه يد الرسول ... لود طارق الليل إذ ذاك لو لم يبعثوه فى مهمته . لأوشك أن يؤثر بطن الأرض على مكانه الآن أمام هذا الرجل المثالى العجيب . تجمع الدهر كله عليه فى لحظة ، وغلبه الخزى حتى جرد جسمه من الحركة ... وحينما استطاع فى النهاية أن يبرح موقفه ، كان كأن قد ولد من جديد . ومضت قدماه — كقدمى مولود يدرج فى مهده — تصارعان موطئه . وتدأبان به ليكون بعيداً عن تلك الدار ... وكانت دهشته تفر معه — العجب من هذا الكهل الذى يأبى أن يأخذ الثمرة المشتهاة إذ قدمت إليه وغيره من الناس يجهد كل عمره ليقطفها وإن قطع من أجلها سبلا شتى مليئة بالدماء والأشلاء ! .

كان هذا الموقف لعلى ضربة قاصمة للأهواء والمطامع التى أخذت فى ذلك الأوان تلعب بنفوس كثير من قادة الرأى وزعماء المسلمين . فهى سابقة لها أثرها . وخطة للعمل إزاء الثوار رسمها هو ولا يستطيع غيره من كبار الصحابة المرشحين للحكم إلا التزامها بدقة أو يثيروا على أنفسهم لغط الاتهام بالمساهمة فى الفتنة . قطع على الطامعين طريقهم وحصرهم فى مكان واحد لا معدى لهم عنه هو مظاهرة عثمان ومخالفة أولئك النازلين على حدود المدينة . وأصبح حتما على كل رجل منهم يرى لنفسه حقا فى أن

يلى الخلافة أن يعزف عنها هـــذه المرة برغمه . . . كذلك كانت النتائج ، وكذلك وقف الزعماء موقفهم من الثوار فساروا سيرة على ، وردوا عنهم الرسل الذين جاءوهم بغرار ما جاءوا ابن أبى طالب به ، وأصبح طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام ولهما موقفان إزاء أنصارهما من الكوفة والبصرة يماثلان موقفه من المصريين .

وسمع عثمان بما كان من على ورسول للثوار يستأذن عليه فارتاح وهدأ خاطره . . . وأمر بالرجل فأدخل عليه ، فإذا كتاب معه يشرح له غرضهم الذى جاءوا من أجله ، قالوا فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . . أما بعد ، فاعلم أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . فالله الله ، ثم الله الله ! . . إنك على دنيا فاستتم إليها معها الآخرة . ولا تلبس نصيبك من الآخرة فلا تسوغ لك الدنيا . . واعلم أنا والله لله نغضب ، وفى الله نرضى ، وأنا لن نضع سيوفنا عن عواتقنا حتى تأتينا منك توبة مصرحة أو ضلالة مبلجة . . . هذه مقالتنا لك وقضيتنا إليك ، والله عذيرنا منك . . . والسلام » .

فلم يزد عثمان على أن أمر بالرسول فأخرج من الدار .

غير أن الهدوء الذى اصطنعه الشيخ لم يكن وحده كافياً لاجتياز الأزمة ، بل أن الخطر من ضيوف الضواحى وإن توقف عن الظهور هنيهة حتى يرى القوم خطوة أخرى أجدى على قضيتهم من الركون إلى الأقطاب الثلاثة ومن ترك مهمة التوجيه فى أيديهم ، هذا الخطر بدا فى لحظة لاحقة أهون شأناً مما ظهر من سكان المدينة . . . كان عثمان عليما بأحوال حاضرته وبنفوس أهليها إلى أين تميل ، يعرف أنها اليوم فى يد طوائف الموالى والعبدان والعامة التى أوغر صدرها عليه انحيازه عنها إلى الأشراف من العرب والقرشيين ، وأنها لقوى كفيلة بأن تنتمر له بعد أن زودها وقوف الثوار على أبواب البلدة بزاد

معنوى تستطيع بعده أن تظهر موجدتها على الخليفة ثم تعصف به ، وهى آمنة أن تقف لها تلك الفئة القليلة التى ما زالت تظهر العطف عليه .

تفكر عثمان هنيهة ، واستعرض الخطر أمام عينيه ثم راح يجهد لإيجاد الوسيلة التى تخرجه منه . . . لا طاقة له بقتال القوم أو أخذهم بالشدة الكفيلة بإقرار النظام وإفاءة الأمن والسلام ، إن هو توفرت له العدة والرجال فإن الجرأة لم تتوفر له . . . ولم يكن هياباً يخاف الطعان ، ولكنه كان رجلا أفسده التسامح حتى ليتحرج أن يقيم صرح أمره على دم ، وكانت الرحمة فى قلبه تسبق الحزم ، واللين يتقدم العزم .

أدار فى خاطره الأمر كله فأبى أن يتخلى عن طبيعته السمحة فيقابل الناس بالعنف الواجب فى أمثال هذه الظروف ، بل آثر أن يعطيهم من نفسه ليناً وتسامحاً ورحمة ، وأن يبذل غاية ما يستطيع طبعه من ترفق ، فلن يلقى قوام الجيشة بأمثالها ، ولن يشهر فى وجههم عصا وإن هاجوه بعتاد الحرب وآلة الصراع .

على هذا قر رأيه ، وانتهى به التفكير إلى ضرورة فضهم عنه راضين ، ولم يكن ميسوراً أن يفوز بثقتهم فيه ، ولا بركونهم إلى كلمة يزجيها تحمل إليهم عزمه على إجابة ما يطلبون . . . إن أكداساً من الوعود القديمة تقف حائلا دون هذه الثقة ، عالماً منها برمته يفصلهم عنه . . . ولكن ساعة المحنة جديرة بأن تجلو ذهنه وترده صافياً تنعكس عليه الحقائق واضحة بغير إبهام . ولم يكن ثمة من وسيلة تؤيد وعده الجديد وتهبه قوة ينفذ بها إلى قلوب الناس إلا أن يسوقه إليهم رجل يثقون به ، له شخصية أخاذة وكلمة نفاذة إلى تلك القلوب ، ولقد نثر عثمان ذلك اليوم كنانة الرجال ، وراح يتخير من بينهم أقوامهم على المهمة وأحراهم بإنجازها على الوجه المطلوب . . . وأنسته اللحظة العصيبة عواطفه الشخصية ، ووشايات أهله ، فارتد رجلا آخر يتبلج أمامه نور الحق وهو ينترع الخطا إلى دار على متستراً بالليل .

والتقى الرجلان . . . التقى المدفوع إلى الظلم بالصاحب القديم — بالغريم الجديد المظلوم . . . وقال إذ ذاك عثمان :

« يا ابن عم . . . إنه ليس لى مترك . وإن قرابتى قريبة ولى حق عظيم عليك . وقد جاء ما ترى من هؤلاء القوم ، وهم مصبحى . وأنا أعلم أن لك عند الناس قدراً ، وأنهم يسمعون منك . فأنا أحب أن تركب إليهم فتردهم عنى ، فإنى لا أحب أن يدخلوا على ، فإن فى ذلك جرأة وليسمع بذلك غيرهم ... » .

فتلفت نحوه على يرمقه برهة . إن شيئاً جديداً يلوح فى وجه الشيخ . عاطفة جديدة بدت إلى جوار لهفته إلى النصرة كأنها الرغبة المضطرمة لإنقاذ عزم يوشك أن تتحدث به عيناه ؟ . .

وقال على وهو يريد أن يستوثق منه :

— علام أردهم ؟

— على أن أصير إلى ما أشرت به على ورأيت لى ... ولست أخرج من يديك.

ولكنها لم تكن الأولى مع ذلك ، بل سبقتها نوايا طيبة كثيرة طالما أبداها الخليفة لشعبه ثم عدل عنها بغير ما مسوغ للعدول... ولم يكن وعده الجديد هذا بوعده اليتيم ...

وأتاه على الأثر الرأى السافر الصريح :

— إنى قد كنت كلمتك مرة بعد مرة ، فكل ذلك تخرج فتقول ، وتعد ثم ترجع . وذلك كله فعل مروان وسعيد وابن عامر ومعاوية أطعتهم « وعصيتنى »

— فإنى أعصيهم وأطيعك .

وقبل على أن يركب إلى الثوار فيحدثهم ليرجعوا عن الشيخ بعد أن بانت له حرارة التوبة فى ألفاظه . وخرج ومحمد بن مسلمة ، وطائفة من الأنصار والمهاجرين إلى ذى خشب ليحدث الناس . وأمر الخليفة نفراً من أصحابه وأهل بيته ليصحبوه . وأمر أيضاً سعد بن أبى وقاص ليكون رسوله إلى عمار ابن ياسر على أن ينضم عمار إلى وفد التوفيق فيكون عوناً له بعد أن كان من

معارضيه .. بدا عثمان فى هذا حريصاً على أن يكسب إلى جانبه كل خارج عليه. ولـكنه كذلك بدا متشككا كثير الريب فى أصحابه وإن كانوا من الساعين بالإصلاح بينه وبين غيرهم من مخالفيه . . . فما كاد ينطلق سعد فى مهمته حتى بعث كثير بن الصلت الـكندى فى أثره ليرى كيف يكون الموقف بين الرجلين ، وليعلم فى خفية مدى إخلاص رسوله للرسالة التى وكلها إليه ، وهل هو حقاً سيحرض عماراً له أم يحرضه عليه ! . .

وجلس الرجلان يتحادثان ، ووقف كثير بنجوى عن عيونهما متجسساً برهف السمع ... قال سعد :

— يا أبا اليقظان ، ألا تخرج فيمن يخرج ؟ . . هـذا على يخرج فقم معه واردد هؤلاء القوم عن إمامك فإنى لأحسب أنك لم تركب مركباً هو خير منه..

وتفكر عمار برهة ، والتقطت أذنه حركة خفيفة خارج داره فارتاب فى الأمر . . . وانطلق خفيفاً إلى ثغرة الباب فإذا عين هناك ترقب فما أسرع أن مد يده بقضيب من خلال الثغرة ردت ذلك الجاسوس بصرخ وهو يفر من المكان وخلفه كلمات عمار المادرة تشيعه :

— يا ابن أم قتيل ! . . أعلى تطلع وتستمع حديثى ؟ . . والله لو دريت لفقأت عينك !

ثم انثنى غاضباً إلى سعد يقول له

— والله لا أردهم عنه أبداً ...

وفسد الأمر الذى أقبل فيه ابن أبى وقاص . وضاع جهده ، ثم لم يلق من عثمان غير الريبة والاتهام . . .

ولـكن علياً نجح فى مهمته الـكبرى ، وأثمر اللقاء بينه وبين الثائرين ثمرته المرجوة . فلم يلبثوا أمام سحر حديثه أن لانوا له ، وصفت قلوبهم على الخليفة .

ولما أن تهيأ على وصحبه للعودة ، أقبل ابن مسلمة على بضعة نفر من زعماء المصريين يحذرهم الفتنة وينهاهم ثانية عن عثمان . . . قال .

— ... إن فى قتله لاختلافا عظيما ، فلا تكونوا أول من يفتحه ، ولسوف ينزع عن الخصال التى نقمتم منها عليه ، وأنا ضامن لذلك .

قالوا :

— وإن لم ينزع ؟

— فأمركم إليكم .

وقام عنهم ليلحق بوفد التوفيق العائد إلى المدينة ، فهتف به ابن عديس :

— ألا توصينا يا أبا عبد الرحمن بحاجة ؟

فالتفت إليه وقال ثانية يحضهم على الاستمساك بوعدهم الذى قطعوه لابن أبى طالب منذ قليل :

— تتق الله وحده لاشريك له ، وترد من قبلك عن إمامه فإنه قد وعدنا أن يرجع وينزع .

— إنى فاعل إن شاء الله ...

٢

قال على حين عودته لعثمان يبصره بالموقف ، ويشير عليه بالعلاج الذى يراه حائلا دون قيام فتنة جديدة بعد أن انطفأت فتنة المصريين :

— يا أمير المؤمنين .. تكلم كلاماً يسمعه الناس منك ، ويشهدون عليه ، ويشهد الله على مافى قلبك من النزوع والإنابة . فإن البلاد قد تمخضت عليك فلا آمن ركباً آخرين يقدمون من الكوفة فتقول : يا على اركب إليهم، ولا أقدر أن أركب إليهم ولا أسمع عذراً .. ويقدم ركب آخرون من البصرة فتقول : يا على اركب إليهم ... فإن لم أفعل رأيتنى قد قطعت رحمك واستخففت بحقك .

ثم جاء محمد بن مسلمة على الأثر فقال له هو الآخر يحذره ويبصره :

— .. الله الله ياعثمان فى نفسك ! .. إن هؤلاء القوم إنما قدموا يريدون

دمك ، وأنت ترى خذلان أصحابك لك ، بل هم يقودون عدوك عليك ..

فتفكر عثمان . إن الحقـائق واضحة أمامه تحدث عن نفسها فى جلاء .
ولقد صـــدقه إذن على . وصدقه أيضاً ابن مسلمة ، لأن كثيراً من كبار رجال المدينة لم يعدوا له يداً معينة فى ساعة المحنة كأن ضياع أمره كان أمنية تجول فى نفوسهم .. وما أحسبه فى هذا المقام إلا استعرض أمام عينيه كيف غاب عن نصرته اليوم طلحة والزبير وكثيرون من أعلام الإسلام لولا أن بادر ابن أبى طالب فوقف إلى جانبه ثم رد الثائرين عنه ..

وقام الشيخ إلى المسجد . أيقن الآن أن وعد اليوم ليس له ما بعده إلا القضاء .. وأن نصيحة على جـديرة بأن تجنبه كثيراً من المتاعب التى لعلها تنتظر فرصتها لتنطلق . وأن كلمات قلائل لينة كفيلة بأن تجمـع حوله ثانية قلوب أمته وتفتح فى حياته السياسية صفحة نقية .. لذلك سارع يعمل بمشورة ابن أبى طالب . فوقف على المنبر يخطب الناس خطبته التى أعطاهم فيها الحق من نفسه ، ونزع تائباً عما سلف منه .. قال :

« .. إنى منتنى نفسى وكذبتنى ، وضل عنى رشدى . ولقد سمعت رسول الله يقول من زل فليتب ، ومن أخطأ فليتب ، ولا يتمادى فى الهلكة ، إن من تمادى فى الجور كان أبعد من الطريق .. »

ثم رفع يديه ووجهه إلى السماء ، وانطلقت عينـــاه تجودان بدمعه حتى اخضلت به لحيته وهو يتجه بالدعاء إلى الله :

« اللهم إنى أتوب إليك ،اللهم إنى أتوب إليك،اللهم إنى أتوب إليك » .

وكان فى ابتهاله حرارة ، وفى كلماته صدق ، وعلى قسمات وجهه مسحة من الطهر ساحرة أكسبتهـا الدموع رقة ودت معهـا قلوب سامعيه أن تخلف صدورهم ثم تلتف عليه .. وأجابته العيون من أنحاء المسجد . وجرى الدمع يبل كل وجه شهـده فى موقفه ذاك ، وصفت النفوس للشيخ حتى نسيت كل ماسلف منه وذكرت فحسب أنه شيخ هاض جناحه وليس يرى النصرة إلا فى رحاب الله ..

وأردف من بعد يتم الحديث :

« أيها الناس .. مثلى قد نزع وتاب ، وأنا أول من اتعظ . أستغفر الله مما فعلت وأتوب إليه . فإذا نزلت فليأتنى أشرافكم فليرونى رأيهم . فوالله لئن ردنى الحق عبداً لأستنن بسنة العبيد ، ولأذلن ذلة العبيد ، ولأكونن كالمرقوق إن ملك صبر وإن أعتق شكر . فمالى مذهب من الله إلا إليه . . . أيها الناس لا يعجزن عنى خياركم أن يدنوا إلى . فوالله لأعطينكم الرضا ، ولأزيدنكم على الرضا ، ولأنحين مروان وذويه ، ولا أحتجب عنكم . . ولئن أبت يمينى لتتابعنى شمالى .. »

وتفرج عنه همه حين فرغ من مقاله . وأحس أن القلوب النافرة قد أقبلت تمنو له . ودخل منزله ذلك اليوم وهو راض عن نفسه وشعبه ، لاتكاد تشوب قلبه على الناس شائبة من ضغن أو ريبة .. ثم أمر ببابه أن يفتح حتى يدخل عليه من أراد . .

كذلك كسب الشيخ بهذه الخطبة الرقيقة كسباً جما لو عرف كيف يستعين به ، وأوشك أن يثبت له أمره . ولقد تمت بينه وبين فئة من المصريين مقابلة أرضته عنهم وأرضتهم عنه حتى لقد قال :

« ما رأيت والله وفداً فى الأرض هم خير لحوباتى من هذا الوفد الذين قدموا على .. »

وأقرهم على ما طلبوه من خلع واليهم عنهم وتولية محمد بن أبى بكر عليهم، وإباحة العطاء مستحقيه من المقاتلة دون أهل المدينة الذين لاحق لهم فيه إلا من بقى من أولئك الشيوخ أصحاب رسول الله . وأقروا له هم أيضاً بحقه عليهم ألا يخلعوا طاعته أو يناوئوه . .

غير أن الأهواء الشخصية أبت أن تدع الريح تسير رخية طيبة . بل شاءت أن تثيرها عاصفة هوجاء مجتاحة تدمر . فما كان لأولئك النفر الذين ألفوا أن تسير الأمور فى طريق مطامعهم أن يدعوها تنحرف عن ذلك الطريق الذى لا جدوى عليهم فى غيره . . . ما كان لأولئك الذين نمموا

بالسلطة أعواماً طوالا ألا يتركوا صولجانها ينفلت من أيديهم ، وأن يخلوا بين الناس وبين خليفتهم يلقونه ويلقاهم فى خير ، ما دام صلاح ما بينهم لن يكون إلا على حساب تلك الأهواء . .

نظر مروان وذووه غب هدوء الحال فإذا عثمان رابح . وإذا الشعب أيضاً رابح . وإذا الخاسر وحده هو مروان وذووه . . إنهم المنبوذون اليوم من كلا الشعب والأمير . . إنهم الضحية التى توشك أن تقدم رخيصة على مذبح هذا الإصلاح ! .

وتربص الرجل الخاسر الذى أمضته مرارة الهزيمة .. تربص مروان ، الذى جزع من ضياع نفوذه وسلطانه حتى حانت له لحظة مواتية اجتمع فيها بتلك الشرذمة الجازعة كجزعه من بنى أمية ، فانطلق بمجلسهم يوسوس فى أذنى عثمان كأنه شيطـــان . . قال له وهو يحرص على أن يبدو فى هيئة المشير الأمين :

« ياأمير المؤمنين . . اتكلم أم أصمت ؟ »

ولـكن نائلة زوج الخليفة كانت أقرب إلى شفافية النفس فى تلك الساعة ، فألهمت أن الشر كل الشر فيما سيتكلم به مروان . . لم تنتظر لحظة واحدة .ولم تدع لهذا الدساس الطامع فرصة لبث سمومه ، بل بادرت تسد عليه سبيل الـكلام.. صاحت به :

« لا بل اصمت !.. لأنتم والله قاتلوه وميتموأطفاله . . إنه قد قال مقالة لا ينبغى أن ينزع عنها . . »

فثار الغضب فى جوانح مروان على هذه المرأة التى توشك أن تفسد عليـه تدبيره . وأعماه حتى عن واجب التظاهر بإجلالها فى حضرة سيده وولى نعمته حتى لقد قال :

«وما أنت وذاك ؟ . . فوالله لقد مات أبوك وما يحسن أن يتوضأ ! »

فلم يعجزها المنطق الذى لا يعجز فى مثل هذا الموطن أمثالها من النساء وانبرت ترد عليه .

« مهلا يا مروان عن ذكر ابى إلا بخير . أتخبر عنه وهو غائب وتكذب عليه ؟ .. أما والله لولا أن أباك عم عثمان وأنه يناله غمه لأخبرتك من أمره بما لا أكذب عليه ! .. »

وبهت الرجل . وأصابه الحصر من لسان امرأة .. على أنه ما كاد يخلو إلى الخليفة ثانية حتى راح يتهيأ للوقيعة التى فوتتهـا عليه نائلة . . أقبل وهو يصطنع الولاء والإخلاص ويبدو كمن يريد إزجاء الرأى الراجح السديد، فقال:

« بأبى أنت وأمى يا أمير المؤمنين . . والله لوددت أن مقالتك هـذه كانت وأنت ممتنع منيع فكنت أول من رضى بها وأعان عليهـا ، ولـكنك قلت ما قلت وقد بلغ الحزام الطبيين ، وخلف السيـل الزبى ، وحين أعطى الخطة الذليلة الذليل .. والله لإقامة على خطيئة تستغفر الله منها أجمل من توبة تخوف عليها ! فما زدت على أن جرأت الناس عليك .. »

فتردد عثمان . ماذا لو كان فيما بسطه صاحبه علائم كثيرة من الصواب ؟..

وهمس الشيخ المتخاذل فى استحياء :

— قد كان من قولى ما كان ، والغائب لا يرد ، ولم آل إلا خيراً ..

— إن الناس قد اجتمعوا ببابك أمثال الجبال ..

— فما شأنهم ؟

— أنت دعوتهم إلى نفسك . فهـذا يذكر مظلمة ، وهذا يطلب مالا ، وهذا يسأل نزع عامل . .

وسكت عنه وإن كانت نظراته ملأى بمعانى التوجيه والإيحاء ..

وقال عثمان بعد قليل :

— . . إنى أستحى أن أردهم . . فاخرج أنت إليهم فكلمهم .

وكانت هذه هى اللحظة التى ترقبها مروان ، واشتاق أن ينتهز سانحتها قبل أن تفوت فيضيع من يده كل الأمر ، ويغدو الضحية الرخيصة التى يقدمها عثمان على مذبح إرضاء رعاياه . .

خرج من الغرفة مزهواً بنصره ولو علم لعرفه نصراً أهون شأناً وأمعن فى استجلاب الشر من كل هزيمة وخسران . ومضى إلى شرفة الدار يلق ببصره على الجموع التى ازدحمت بالباب كالعباب . فلما أن وسعه أن يجتر هنيهة شماتته بهم ، ويغرق فمه وملامح وجهه كلها بألوان السخرية والازدراء ، صاح بهم فى جفوة وخيلاء :

« ما شأنكم قد اجتمعتم كأنكم جئتم لنهب ؟ . . شاهت الوجوه ! . . أتريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا ؟ . . أغربوا عنا ، فو الله إن رمتمونا لتمرن عليكم ما حلا ، ولنحلن بكم مالا يسركم ولا تحمدوا فيه غب رأيكم . . إرجعوا إلى منازلكم فإنا والله غير مغلوبين على ما فى أيدينا . . »

وعاد وقد خلف للناس مرارة فى النفوس كادت أن تتذوق طعمها الشفاه ، وحقدا على وليه سرعان ماعرف طريقه إلى الهدم وإن نجا من معوله هذا المجهول مروان ، وأصابت ضرباته القاصمة ذلك الشيخ المظلوم عثمان . . . مضى الناس عن الدار حيارى . خاب أملهم وغلبت دهشتهم كل ما سبق من إحسانهم الظن بالأمير . فما بمثل هذه المسرعة يمكن أن يكون نقضه الوعود . .

ولكنهم لم يثوبوا إلى نفوسهم من الدهشة الغالبة حتى احتوتهم ثانية دهشة جديدة أزرت بكل حيرة سابقة وبكل ماتستطيع أن تتنبأ به الخواطر والظنون . فلقد صعد الشيخ إلى المنبر كأنما ليقطع عليهم الشك باليقين ، وراح يخطبهم بأسلوب مشيره وعلى السنن الذى صوره له فقال :

« أما بعد أيها الناس ، إن هؤلاء القوم من أهل مصر كان بلغهم عن إمامهم أمر فلما تيقنوا أنه باطل ما بلغهم عنه رجعوا إلى بلادهم . . »

فبأى لسان كان يتحدث عثمان ؟. أتحسب أن كلماته تلك كفيلة بأن تحجب عن الناس حقائق الحال ؟ . . ولكنه فى كل سنى حكمه كان مقودا بيد مروان وبقى الزمام كما كان حتى وصل به إلى أسوأ ما تنتهى النهايات .

وصاح من أحد جوانب المسجد صوت مستنكر يقطع عليه الخطاب .

إنه ابن العاص يهتف به فى احتقــاد شابه الغضب لنفسه قبل الغيرة على صوالح مواطنيه :

— اتق الله يا عثمان . . . إنك ركبت أموراً وركبناها معك ، فتب إلى الله نتب . . .

فتلهب وجه الشيخ وثار به :

— وإنك ها هنا يا إبن النابغة ؟ . . قملت والله جبتك منذ تركتك من العمل ! . .

ولــكن المسألة فى عين الناس كانت قد عدت طور الخلاف على الشخصيات وأصبحت جلاداً على شأن عام يأباه عليهم عثمان . فما كادوا يلقفون كلماته حتى ضج المسجد عن فيه ، وجاءت كلمات الإنــكار من كل جانب حتى غرق فى لجتها صوت الشيخ الواهن الضعيف .

ولغطت المدينة بما كان . وتحدثت بسقطة الخليفة وحماقة مروان . وانطلق الناس إلى على يشكون إليه فأسرع غير مصدق إلى المسجد يريد أن يستوثق . . فلقيه هناك عبد الرحمن بن الأسود . .

قال على يسأله وقد عرف أنه يعلم قصة الأمر :

— أحضرت خطبة عثمان ؟ .

— نعم

— أحضرت مقالة مروان للناس ؟ .

— نعم .

فضرب الرجل كفاً بكف وقال وهو آسف حزين :

« عيــاذ الله ! . يالمسلمين . . ! إنى إن قعدت فى بيتى قال : تركتنى وقرابتى وحقى . وإنى إن تكلمت فجــاء ما يريد لعب به مروان . . لقد صار سيقة له يسوقه حيث شاء بعد كبر السن وصحبة رسول الله » .

ثم انطلق من فوره مغضباً حتى دخل على عثمان فقال له :

« أما يرضى مروان منك إلا أن يحرفك عن دينك وعقلك ؟ لأنت منه

كجمل الظعينة يقاد حيث يسار به ! والله ما مروان بذى رأى فى دينه ولا عقله ، وإنى لأراه يوردك ثم لا يصدرك . . وما أنا بعائد بعد مقامى هذا لمعاتبتك . أفسدت شرفك وغلبت على رأيك » .

وخرج بغير تريث . ودخلت على الأثر نائلة ، فإذا زوجها منقبض حزين كأنما ينازعه الأسف على ما بدر منه بعد أن تبين سوء المورد الذى قاده إليه مروان ، وأيقن بالخطر الداهم الذى يوشك أن يحدق به . وقالت المرأة الوفية الذكية تدلى بالرأى الذى تعلم أنه كفيل بكشف الغمة ورفع الملمة :

« قد سمعت قول على لك ، وأنه ليس براجع إليك ، وقد أطعت مروان يقودك حيث يشاء » .

فألقى ببصره إلى الأرض هنيهة يفكر ، ثم رفعه فبانت لها منه نظرة مغلوب مهيض ، وهو يحدثها بصوت مازجت فيه نبرات الحيرة لهفة السؤال :

— فما أصنع يا نائلة ؟ .

— تتقى الله ، وتتبع سنة صاحبيك ، فإنك متى أطعت مروان قتلك ، وليس لمروان عند الناس قدر ، ولا هيبة ، ولا محبة . فإنما تركك الناس لمكانه . وإنما رجع عنك أهل مصر لقول على . فأرسل إليه فاستصلحه ، فإن له عند الناس قدراً ولا يعصى .

غير أن علياً كان قد بذل للناس من ماء وجهه مع وعود عثمان ما لم تعد بعده بقية لبذل . فقال للرسول الذى جاء من قبل الخليفة يطلبه :

— قل له ما أنا بداخل ولا عائد ! .

وكأنما كان لمروان عيون بين الشيخ وزوجه تنقل له ما يتساران به . . مالبث هذا الشيطان أن أسرع إلى الخليفة خشية أن يكون فى استصلاح على ضياع أمره ، فقال له :

— يا أمير المؤمنين . . إن نائلة بنت الفرافصة . . .

فلم يصبر عليه عثمان فى هذه المرة ، بل ثار به يقاطعه وقد أيقن من سوء نيته :

— لا تذكرنها بحرف فأسوىء لك وجهك ! . . . إنها والله أنصح لى منك . . .

على أن نتيجة اللقاء بين على وبين الرســـول قد خيبت أمله . وأوشكت أن تذهب بالبقية الباقية التى مازالت تتعلق بها نفسه . وسكت الشيخ على هم . وطوى فى قلبه مرارته . وتلبث مضطرباً لا يدرى أين ينشـــد النصرة ولا النصيحة الرشيدة ، وهذا ابن أبى طالب قد أدار له ظهره . حتى إذا دخل الليـــل ، ونشر سواده على الكون كالستار ، رأى بقية من أمل تلمع فى أفقه . فما يستطيع أن يوقن أن علياً يخذله أو يتنكر له . . وانطلق فى هـــدأة المساء يقطع دروب المدينة ، ويسير فيها حائراً متستراً بالظلمة . وأشرف من بعد على الدار المنشودة . على الجعبة التى لا ريب تنضم على دواء دائه . طرق الباب ودخل على استحياء .

واستقبله على هناك بما يجمل به وإن بانت على محياه آثار غضبته الأولى عليه. وراح عثمان يبسط له الموقف ويلق بعذره ، ويحاول جاهـــداً أن يستهديه وهو لا يكف من بعد عن بذل الوعد تلو الوعد . . .

ونظر ملياً إليه على . بدا كأن لا جـــدوى من وراء نصحه فليس الرجل بسيد نفسه . ولا قضاء لوعد يسوقه لأنه لم يعد يملك القضاء . إنما لسانه وحده هو الطليق ثم على فكره وعلى يديه رقباء ! . . وقال أبو الحسن أخـــيراً وهو لا يستطيع أن يخدعه :

« أبعد ما تكلمت على منبر رسول الله ، وأعطيت من نفسك ثم دخلت بيتك تخرج مروان إلى الناس يشتمهم على بابك ؟ » .

وبانت عزمة التصميم فى وجهـــه . وبدا للشيخ أنه اليوم أمام قرار حاسم لا مرد له . وازدحمت فى نفسه همومه . وجاورتها أيضاً شكوكه وريبه وهو يذكر ما كان يحدثه به أهله عن على : « لو شاء لما كلمك أحد » . . . ولـكنه الآن لا يشاء ! . . . وحضرته أيضاً مواقفه منه ، وشدته عليه كلما استهداه . لـكأن كلمات مروان هذه صدقت فيه :

« هكذا يستقبلك وأنت إمامه وسلفه وابن عمه ... فما ظنك بما غاب عنك عنه ؟ . . »

وأوسعت له الذكرى فى الاستراية . وأحس بقلبه تقبضه يد قاسية مدها خذلانه . فقام عنه متهافتاً يقول :

« خذلتنى يا أبا الحسن وجرأت الناس على » .

فالعجب له ! . . لا يزال دم خطيئته على كفه ثم يلقى بوزرها على كاهل سواه ... وأجاب على وهو يشيعه إلى الباب :

« والله إنى لأكثر الناس دفعاً عنك ، ولكنى كلما جئتك بشىء أظنه لك رضا ، جاء مروان بغيره فسمعت قوله وتركت قولى . . . »

فلم ينبس الشيخ ، بل مضى مطرقاً بلا كلام . وغاب هيكله الضاوى عن عينى ابن أبى طالب . ولكنى أحسب تلك العينين قد غامتا برهة وهما تنظران خلفه فى جوف الليل . . .

٣

اضطربت خواطر أهل المدينة ، وقلق بالهم ، وملك نفوسهم يأس جامح من إصلاح خليفتهم بعد ما سمعوا منه ومن صاحبه مروان . ثم لعلهم أوشكوا أن يروا بعيون الخيال بوادر العاصفة التى همت أن تتجمع فى أفق البلدة .

ولم يكونوا يأسون على مصير الشيخ . ولا مالت نفوسهم إلى الرثاء له . لو أنا عنينا بإحصاء محبيه إذ ذاك لما جاوزوا عدة الأصابع . ثم لنحسبهم بضعة من الخاصة لم يربط بينهم وبينه وفاء بل استعبدتهم له الهبات والأفياء . . أما الإجماع فقد انطوت قلوبهم على النقمة منه . لعلهم اقتنعوا اليوم بضرورة مخالفة هذا الخليفة الذى لاح دائماً كالحريص على إغضاب شعبه لحساب أهله .. لعلهم رأوا صلاح الحال فى تنحيته عن الطريق ليستقيم شأن أمته . .

لعلهم جنحوا لأهواء لهم تحقيقها رهن بالخلاص منه . . على أى حال ضمت البلدة زمراً من كل أولئك وهؤلاء تحالفوا عليه .

ولم تخل أيضاً من عيون لأصحاب الثورة بثوها عسى أن تنقل لهم ما يجد بها من حركات بين حين وحين . فما نزل عثمان عن المنبر بعد أن نقض عهده حتى انطلق جار له إلى القوم ، وهو عمرو بن حزم أحد رجال الأنصار . ذهب ليخبرهم بما كان من عثمان . فما انقضت أيام حتى جاء النبأ بأن المصريين عادوا ثانية إلى ذى خشب وبعضهم بالسويداء .

أفكان أولئك الثوار قد ارتدوا حقاً عن ضواحى المدينة وركبوا الطريق إلى بلادهم بعد حديث على وابن مسلمة ، أم هم يا ترى تلبثوا بمكان قريب حتى يعلموا ما يكون من أمر عثمان ؟ . . . أغلب الظن أنهم ، وقد فقدوا الثقة فى وعوده ، انتظروا ببعض الطريق حتى يأتيهم من ينبئهم بحقيقة الحال . فإما وفاء من الشيخ وصدق توبة فترحل جموعهم ، وإما نقض كما عودهم فتكر إليه .

وريع عثمان . واختلط عليه أمره . وألقى ببصره على أصحابه وقد أوشك الخطر أن يحدق به فما وسعه أن يرسل ثانية إلى على بعد ما سلف منه فى حقه . بل حسب الخير عند محمد بن مسلمة ، فأرسل إليه عساه أن يكون أرفق به وأحنى عليه .

قال له :

— يا أبا عبد الرحمن ، هؤلاء القوم قد رجعوا ، فما الرأى ؟

فقلب ابن مسلمة كفيه حيرة وأجاب :

— والله ما أدرى . إلا أنى أظنهم لم يرجعوا لخير ! .

— فارجع إليهم فارددهم .

فهتف الرجل مستنكراً :

— لا والله ، ما أنا بفاعل ! .

— ولم يا أبا عبد الرحمن ؟ .

— لأنى ضمنت لهم أموراً تنزع عنها فلم تنزع عن حرف واحد منها . فلا والله ، لا أكذب الله فى سنة واحدة مرتين !.

فسدت أمامه جميع المسالك أو كادت بعد أن أبى عليه هذا الرجل مطلبه . ليس له من سبيل إلى آخر غيره من أصحاب رسول الله . . . فلم ؟ . . وكيف لم يدر بخاطره أن يلجأ إلى سعد ؟ . . أما زالت نفسه تحمل الشكوك منه ؟ . . وأين ذهب عنه طلحة بن عبيدالله ؟ . . . وفيم سكوته عن طلب النصرة على يد الزبير ؟ . . كلما أطلق المرء لتساؤله العنان ارتد به التساؤل ثانية إلى نقطة البداءة ، ووقف حسيراً لا يستطيع أن يرى لهذا كله إلا معنى واحداً ليس له سواه هو أن الشيخ أيقن أن النصرة لا تأتيه من هذا الاتجاه ! . .

واستعصى الحل على ذهنه المكدود . وزاد من متاعبه أن أهل المدينة أنفسهم لم يترفقوا به فى هذه المحنة النازلة . فقد جاءه من لدنهم كتاب يحتجون به عليه ، ويقسمون فيه ليقتلنه أو يعطيهم ما يلزمه من حق . . . بدوا كأن قد وجدوا ظهيراً لهم عليه بعد عودة الثوار .

وجمع الشيخ مشيريه من أهله وقد عز أن يجد فى غيرهم المشير ، وقال لهم عسى أن يجيئوه بالنصيحة :

— قد صنع القوم ما قد رأيتم ، فما المخرج ؟

فأجابه مروان :

— يا أمير المؤمنين ، مقاربتهم حتى تقوى أمثل من مكاثرتهم على القرب . فأعطهم ما سألوك ، وطاولهم ما طاولوك .

— إنهم لن يقبلوا التمليل . وقد كان منى فى قدمتهم الأولى ما كان . فتى أعطهم ذمك يسألونى الوفاء به .

— إنما بغوا عليك فلا عهد لهم . . . فأرسل إلى على أن يردهم عنك ، ويعطيهم ما يرضيهم حتى تأتيك أمدادك . . .

فبئس النصح لا ينطوى إلا على خلف للوعد بعد خلف ! . . ولكنها

النفسية الأموية التي تستعين دائماً بالغدر والدهان نضحت بها عقلية مروان!..

وأقبل على من بعد يستجيب لدعوة الخليفة وقد علم أنه أصبح في حال توجب الدفاع عنه.. حتى إذا استقر المجلس بالرجلين قال عثمان:

— يا أبا الحسن، إنه قد كان من الناس ما قد رأيت، وكان مني ما قد علمت، ولست آمنهم على قتلي، فارددهم عني فإن لهم الله عز وجل أن أعتبهم من كل ما يكرهون، وأن أعطيهم الحق من نفسي ومن غيري وإن كان في ذلك سفك دمي..»

قال له مترفقاً وهو يبصره بحقيقة الحال:

— يا أمير المؤمنين، الناس إلى عدلك أحوج منهم إلى قتلك، ولكني أرى قوماً لا يرضون إلا بالرضى. لقد كنت أعطيتهم في قدمتهم الأولى عهداً من الله لترجعن عن جميع ما نقموا منك، فرددتهم عنك، ثم لم تف لهم بشيء.. فلا تغرني هذه المرة فإني معطيهم عليك الحق.

— فأعطهم يا أبا الحسن، فوالله لأفين لهم.

وخرج ابن أبي طالب من لدنه، فإذا طوائف من الثوار تقبل عليه بعد أن سعت تلتمسه في كل سبيل وقرأ في وجوههم علائم حنق جائع، وفي عيونهم ومضات غضب جبار، ولكنه لم يعن بمعرفة أسباب الفورة النفسية التي كانوا يعانونها إذ ذاك بقدر ماضاق صدره بنقضهم وعدهم له بالارتداد والرحيل.

قال مستنكراً وقد قاربوه:

— ماردكم بعد ذهابكم ورجوعكم عن رأيكم؟

فأجابه متحدث من المصريين:

— أخذنا مع بريد كتاباً بقتلنا.

وسلموه الوثيقة التي عثروا عليها مع خادم للخليفة أوشك أن يجتاز بها الصحراء إلى مصر لولا أن صادفوه، وعجب على دون أن يبدى لهم، فهذا كتاب عثمان لعامله، يأمره أن يقتل منهم نفرا ويحبس آخرين،

وكانت علائم الغدر واضحة فى الكلمات . وهذا خاتم الشيخ على الكتاب ، وهــذا خادمه أيضاً بعد أن أمسكوا به قبل أن يقطع شوطه ، ويبرم لهم أسوأ مصير .

وتفكر أبو الحسن ملياً فى الأمر . . وأدار بصره بحذر فى القوم وفيمن تزاحم حولهم من الناس . . ها هنا طلحة يحدث نفرا من البصريين . . وثمة الزبير يحدث نفرا من الكوفيين . . وفى لمحة خاطفة كومض البرق قفز خاطر إلى ذهن على ، فهذه ثغرة يستطيع أن ينفذ منها شكه .

قال وهو يجيل عينه فى أنصار صاحبيه :

— وأنتم فيم جئتم ؟

فأجابوه :

— لننصر إخواننا هؤلاء ونعنهم .

فما أسرع أن صاح بهم وهو يرمق متحدث البصريين بجانب عينه :

— وكيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقى أهل مصر وقد سرتم مراحل ! .

فبهتوا واستعصى عليهم أن يثبتوا لحجته ، لعلهم كانوا قد أجمعوا الرأى على الوقوف ببعض الطريق بعد أن تظاهروا أمامه أنهم تهيأوا للرحيل . . لعلهم لم يأمنوا أن يتركوا الشيخ قبل أن تبدو لهم بادرة تطمئنهم على إنقاذ وعوده . لعل بعض عيونهم بالمدينة قد علموا بأمر هــذا الكتاب وما انطوى عليه من الكيد لهم فأبلغوهم عنه فكان أن تربصوا بالرسول . . إن فرضاً من هــذه الفروض يفسر عودة القوم مجتمعين وكان كفيــلا بأن يلقى ضوءاً على القصة لولا أنهم شاءوا — لأمر من الأمور — أن تظل مجهولة التفاصيل . أما وقد رآهم على يلوذون بالصمت فلم يسعه إلا أن يقول :

— هذا والله أمر أبرم بالمدينة . .

فما زادوا على أن أجابوه فى تبرم وضيق :

— فضعوه على ماشئتم ! . . . لا حاجة لنا فى هذا الرجل ، فليعتزلنا .

ورأى منهم الجد والتصميم فراح يحاورهم ، ويعمل جاهداً ليوفق بينهم وبين الشيخ . ولعله راح يعتذر عنه بأنه مظلوم . وأن الغدو الماثل فى سطور الكتاب أولى بأن تفضح به غير نفس عثمان . . لعله قال هذا وكثيراً مثله وهو لا يعلم أنه هو الآن مطية لغدر جديد . .

وقال لهم أخيراً وقد أنس فيهم الميل إلى الاستماع له :

« . . إنكم إنما طلبتم الحق أيها النـاس ، فقد أعطيتموه . . إن عثمان منصفكم من نفسه ومن غيره ، وراجع عن جميع ما تكرهون فاقبلوا منه . . »

فأجابوا وقد لانت نفوسهم ثانية للشيخ :

« قد قبلنا . فاستوثق لنا منه فإنا والله لا نرضى بقول دون فعل » .

« على ذلك لكم » .

وتم الاتفاق بين على وعثمان على أن يجيب هذا مطالب الناس ، ولا يتركها اليوم وعودا لا تساوى حروف الكلام الذى ينطق بها بل ينجزها على الفور ويخرجها إلى حياة الأفعال . . وقال عثمان يستمهله :

« يا أبا الحسن ، اضرب بينى وبينهم أجلا يكون لى فيه مهلة ، فإنى لا أقدر على رد ما كرهوا فى يوم واحد . »

« ما حضر بالمدينة فلا أجل فيه ، وما غاب فأجله وصول أمرك » .

« فأجلنى فيما بالمدينة ثلاثة أيام . . »

فكتب له عهداً أجله فيه ثلاثاً على أن يرد كل مظلمة ، ويعزل كل عامل كرهوه . ثم أخذ عليه ميثاق الله أن يفى بوعده ، وأشهد عليه أناساً من الأنصار والمهاجرين . .

وكف الناس عن الخليفة . واطمأن بال المصريين فعسكروا بذى خشب ينتظرون أن تأتيهم أنباء المدينة بإنفاذ العهد . وصفت النفوس كلها ، أو هى تجردت حيناً من أضغانها واتجهت إلى المستقبل متفتحة للرجاء . ولكن فئة قليلة ظلت وحدها طاوية قلوبها على الضغن ، تشحذ همها للكيد وتود لو أسعفتها هذه المهلة القصيرة بإنفاذ خططها الغادرة . . . أولئك كانوا بطانة

عثمان وعلى رأسهم مروان مشيره وصاحب الكلمة المسموعة لديه . فلقد سل الرجل سلاح غدره ، ومضى يجيش القوى التى يستمين بها على القصاص من أولئك الذين أرادوا أن يسلبوه سلطانه . كان كل همه أن يحفظ على نفسه وأهل بيته أبهة الحكم والصولة التى حلم بها أجيالا طويلة ذووه من بنى أمية. وعاونه فى مهمته نفر من أهله لأن قضيته قضيتهم ، ولأنهم خشوا هم أيضاً أن تضيع هيبتهم المكتسبة من تقبض أيديهم على الصولجان .

أما الخليفة فقد ظل مغمض العينين عما يدور حوله كأن الأمر كله لا يعنيه فى قليل ولا كثير . وجلس هادئاً يرقب سياسة مروان التى رسمها لفض الأزمة عنه . بل لعله كان مطمئن النفس واثقاً من خطة صاحبه أشد وثوق . أفلم يقاربهم حتى يقوى ويبذل لهم من الوعود ما يسكتهم عنه ؟ ولقد وعدهم فسكنوا ، واتخذ من ابن أبى طالب مطية لهذا السكون . والرأى عنده أنهم لن يلبثوا حتى يتفرقوا عنه كما فعلوا من قبل مرات ومرات . وكان مروان فى الحق رجلا لا يستطيع منصف إلا أن يشهد بحمقه إذ ذاك . فقد أوغل فى الأخطاء وفى التحدى وهو يحسب القوم أهون من أن يصلوا إليه . وبدا مستصغراً لشأنهم يحمل أميره على التسويف والمطل كما يشاء . فمن عجب أن تكون هذه خطة يقره عليها عثمان مع ما انطوت عليه من الغدر ونقض ميثاق الله الذى أخذه الشيخ على نفسه . ولكنهم — فيما حدثه مروان — كانوا قوماً باغين فلا عهد لهم عليه ! !

وانقضت المهلة كما بدأت ، فلا مكروه تغير ، ولا عامل عزل ، ولا حق من حقوق الناس رد عليهم . لم تبدر بادرة من ناحية القصر تحمل الناس على إحسان الظن بساكنيه . ولغطت بالخليفة الألسن أولا بالمدينة ثم جاوز اللغط حدودها إلى منازل الثوار . وبات البناء ، الذى جهد على دائباً حتى أقامه ، مهدداً بالانهيار . ولكن مروان ظل مطمئن القلب كما كان ، لا تختلج له جارحة ، بل لعله كان يسخر فى ضميره من تلك الجموع التى أغضبها نكث الوعود ، فما لغضبها ذاك من جدوى ولا أثر فى تغيير سياسته ما دام قد أعد

لها العدة وأحاط الدار بطائفة كبيرة من رقيق الخمس هياها وأحسن إعـدادها بالسلاح . وإن هى — فوق هذا — إلا أيام حتى تصل الأمدات التى راحت الرسل تستمدها من البلاد .

وكان النازلون بالضواحى قد أعياهم المطل وأمضهم طول الانتظار . فـمـا هو إلا أن حزموا أمرهم حتى هجموا البلدة بجموعهم المجيشة . وانتشروا فى نواحيها يعلاونها بالتهليـــل والتـكبير ، وينادون أهلها أن كفوا أيديكم فتصبحوا آمنين . وهل كانوا بحاجة لهذا النداء وأهل المدينة من علم موقفهم من تصرف عثمان .

كذلك غدت البلدة صاخبة تمج بالجموع التى ملـكها التذمر . وأشكل فيها الأمر على الناس فما يتبينون أملا فى غد مقبل أو يوم قريب ، وباتوا من سياسة خليفتهم فى ظلمة لا بصيص فيها من نور الرجاء ، ولـكن الدفعة التى تأسر عادة نفوس أصحـاب الثورات لم تأسرهم ، بل راحوا أميل إلى الهدوء والتريث . فما هجموا الشيخ الذى لعبت بهم وعوده ، ولا آذوا صاحبه الذى كان يتحين بهم الفرص للايذاء والنـكال ، وإنما حكموا العقـل فى الأمر ، ومدوا فى حبل اصطبارهم ماوسعهم أن يعدوه . ومضوا إلى الرجل الذى كان دائماً الصـــلة بينهم وبين أمير المؤمنين ، وطالـما سكن من حدتهم وسخطهم عليه . . أجـــل ، فلم يكن لهم مفزع إلا إلى على فراحوا يلاحقونه فى كل مكان ؛ ويستنجزونه أن يفى لهم بالوعود التى قطعها باسم عثمان . فما أشده موقفا لابن أبى طالب رمته به الأحـداث ، كله حرج ، لا هو به يستطيع أن يقهر هذا على الوفاء ، أو يحمل على الرضا هؤلاء ! .

ومضى الناس إلى محمد بن مسلمة يحدثونه فى الأمر وألم بهم الحديث على قصة كتاب عثمان إلى عامل مصر لينكل بهم ، فقال محمد لهم :

« وما يدريكم أن عثمان كتب بهذا ؟ »

فأجابوه مستنكرين :

« فيفتات مروان عليه بهذا ؟ . . فهذا شر . . فليخرج إذن نفسه من الأمر » .

ثم قالوا له :

« يا أبا عبد الرحمن ، انطلق معنا إليه ، فقد جئنا سعد بن أبى وقاص فأبى وقال لا أدخل فى هذا الأمر ، وجئنا غيره فقال كما قال . فانطلق معنا فقد كلمنا عليًا فوعدنا إذا صلى الظهر أن يدخل عليه . . »

ووقفت جموعهم بباب عثمان فى الموعد المضروب . ودخل على وابن مسلمة على الشيخ فحدثوه :

« إن المصريين يا أمير المؤمنين بالباب ، فأذن لهم . . »

فهتف مروان كأن مرجع الأمر كله إليه :

« دعنى — جعلت فداك — أكلمهم . . »

فما أسرع أن صاح به عثمان :

« فض الله فاك ! . . ما كلامك فى هذا الأمر ؟ . . اخرج عنى . . »

وأيقن ابن مسلمة أن الكتاب بأمر مروان لأن الغدر الذى نضح عنه هو أدنى إلى طبعه وما جبلت عليه نفسه . وأقسم الشيخ أنه ما كتب ولا علم ولا أمر ، فلما بانت لهجة الصدق فى كلامه قال على :

« فأدخلهم عليك فليسمعوا عذرك » .

فكأنما استحيى أن يواجههم وهو على ما هو فيه من النكث وقلة الوفاء بما بذله لهم من وعود ، فأجاب :

« يا أبا الحسن ، إن لى قرابة ورحما ، والله لو كنت فى هذه الحلقة لحللتها عنك . . اخرج أنت إلى القوم فكلمهم فإنهم يسمعون منك » .

فأبى هذا عليه . حسبه ما فات من بذل ماء وجهه ، فهم براضين من بعد بألف وعد ووعد . . ورضخ الشيخ أخيراً وهو كاره لمشيئة على ، فأدخل عليه الناس ، وطال بينه وبينهم النقاش فى قصة الكتاب ، وفى أحداثه ، وفى عماله ، وفى نقضه التوبة المرة بعد المرة دون أن يقرن القول بالفعل ،

وعلى وابن مسلمة لا يني الواحـد منهما يظاهره ويؤيد جانبه مرة بعد أخرى حتى انتهى الحديث بالناس أن جنحوا إلى القهول منه .

وقالوا له :

« .. فإنا لا نعجل عليك وإن كنا قد اتهمناك ، فاخلع عنا عمالك الفساق واستعمل علينا من لا يتهم على دمائنا وأموالنا ، وأردد علينا مظالمنا » .

وأحسبهم بهـذا قد فاقوا كل مأمول ، ولـكننا لا ندرى أى يد أمسكت بلسان الشيخ فانحرفت به عن المفروض منه فى هذا المقام إلا أن يكون أحب أن يتحـدث إليهم بلسان مروان ! .. أفلم يطلب ذلك الشيطان منذ قليل أن يتحدث عنـه إلى القوم ؟ .. فـكذلك كان ، وإن نطق لسان عثمان !..

قال الشيخ الغافل وقد ركبته عزة المنصب فأنسته الحـكمة الواجبـة فى هذا المقام :

« ما أرانى إذن فى شىء إن كنت أستعمل من هويتم وأعزل من كرهتم.. الأمر إذن أمركم ! »

فبهت القوم ، وحار على وصاحبـه كيف تأتى لأمير المؤمنين أن يجىء هكذا بمنطق سقيم ، ولـكنه على أى حال المنطق الذى يفسر نـكث وعوده الـكثيرة ومطله المتواصل لمـا أخذ به نفسه . وهل يشك الآن من يحب أن يتلمس للشيخ المعـاذير فى أنه كان دائماً يقول وقد وطن نفسه على كل شىء سوى الوفاء ؟ . .

فما لبث أن أجابه ابن عديس بصوت هادىء رهيب .

« والله لتعزلن ، أو لتقتلن ! . . فانظر لنفسك أو دع ... »

ووقع هـذا الإنذار كوقع الصاعقة على نفس الصاحبين اللذين جاهدا لإنقاذ الشيخ فأبى إلا أن يحرم نفسه ثمرة الجهاد . وراحا يرمقانه عساه أن يفىء إلى الحـكمة ، ولـكنه كان أسرع من لمح عيونهمـا إلى الجواب ، فقال بعناد :

« لأن أقدم فتضرب عنق أحب إلى من أن أخلع قيصاً قمصنيه الله » .

« فلسنا إذن بمنصرفين عنك حتى نعزلك ونستبدل بك ، ولئن حال دونك من معك من قومك وذوى رحمك لقاتلناهم حتى نخلص إليك فنقتلك أو تلحق أرواحنا بالله ! . . » .

٤

تلبثوا ينتظرون أن تصل الأمداد لتكون ردءاً لهم من الناس ، فقد ساءت الأمور ، وتربص القوم بالخليفة الدوائر ، وأصبح كل يوم يمر يزيد ثغرة الخلاف بينهم وبينه .

وكانت الرسل قد مضت بكتب للشيخ إلى النواحى يستحث أهلها أن يسارعوا لنصرته ، ويكونوا عوناً له على عدوه .

قال فى كتبه هذه وهو يذكر قصة الكتاب الذى وقع فى أيدى الثوار :

« . . . إنما انتكث الشر بأهله ، وبدت ضغائن وأهواء على غير إجرام ولا ترة فيما مضى إلا إمضاء الكتاب . . وازدادوا على الله جرأة حتى أغاروا علينا فى جوار رسول الله وحرمه وأرض الهجرة ، وثابت إليهم الأعراب فهم كالأحزاب أيام الأحزاب . . فمن قدر على اللحاق بنا فليلحق . . »

وأرسل إلى معاوية — ولى دمه ! يستنىء بعطفه وقوته ، ويلتمس عنده العون الذى حسب أنه لايبطىء به . . فقال :

« . . إن أهل المدينة قد كفروا ، وأخلفوا الطاعة ونكثوا البيعة ، فابعث إلى من قبلك من مقاتلة أهل الشام على كل صعب وذلول . . » .

ولكن ابن أبى سفيان كان ذا رأى آخر أمام نصرة الشيخ ، وله شأن فى البدار إليه يخالف العجلة والاسراع وإن أحس الغيلة تكاد أن تفجأ صاحبه ، وإن علم أن القتل يتربص به منذ عام !

أجل . لم يبادر صاحب الشام بالنجدة التى كانت توجبها عليه قرابته

قبل أن توجبها وظيفته • بل اصطنع الأناة بغير موجب لها إلا ما فى نفسه من غرض خفى ، وتلبث سا كنا لأنه — فيما حدثتنا الأسفار — قد كره أن يظهر مخالفة أصحاب الرسول كأنهم قهروه على هذا التريث المرذول ! . . أفكانوا إذن من القوة بحيث يخشاهم ذلك الجبار الذى عهدناه يدل عليهم بصولته ودولته ويخوفهم بعلشه كما شاء التخويف ؟ . . .

ولكنه معاوية فحسب ! ... وإذا ذكر فقد ذكرت معه التدبيرات الخفية والأغراض المشتبكة الملتوية ... أما عثمان فقد كان رجلا سليم النية شديد صفاء النفس حتى راح ثانية يستحثه ويثير فيه العطف الذى حسب ألا يلقاه عند سواه ، فبعث كرة أخرى يقول له :

« ... إن القوم طال فيهم مقامى ، واستعجلوا القدر فى • • • فياغوثاه ياغوثاه ! • • • ولا أمير عليك دونى ، فالعجل العجل يا معاوية ، وأدرك ثم أدرك ، ولا أراك تدرك . . . »

فكان الجواب أن أعد الرجل قوة أمر عليها يزيد بن أسد القسرى ، وقال يأمره وهو يتأهب بجيشه للمسير :

« إذا أتيت ذا خشب فأقم بها ، ولا تتجاوزها ، ولا تقل الشاهد يرى ما لا يرى الغائب فإننى أنا الشاهد وأنت الغائب . . . »

فكفاه بهذا أنه كان — وإن أرسل — كأن لم يرسل ! • • فلم تدخل قواته المدينة ، ولم تنجد سيده ، ولم تفرق عنه الثوار لأنه أراد لها موقف الغريب المشاهد دون خطة الولى المجالد ! ...

وكذلك فشل تدبير الأمداد الذى علق عليه مروان كل آماله ، ودفع بعثمان إلى التهلكة فى سبيله • ومضت الأيام ثقيلة عليه وعلى سيده ، مظلمة لا يبدو فى سمائها رجاء • ومع هذا فقد ظل متشبثاً بالخيط الضئيل الذى بقى له وهو احتمال أن تصل النجدة بين حين وحين • ومضى فى غيه معصوب العين لا يحاول أن يعالج الداء بالدواء الحاضر • • • وهل كان بوسعه أن يفعل وهذه جموع الناس لا تنى الآن بعد الآن تهتف بالخليفة أن يسلمها مروان ؟ • • •

دون الرجل المستبد الأحمق دماء الخليفة والله ! . . . فما زال عثمان يراه جديراً بأن يضن به ويدخره ويحميه ، ولعل مروءته وحدها هى التى دفعته إلى هذا الاستمساك الخاطىء بعشير أثبتت الأحداث أنه ما من مصيبة داهمة إلا حركتها أصابعه . . .

لكم آذات أحداث هذه الفترة العصيبة عليا وأخذت منه ! . . . كلما سار تبعته الجموع تهتف له وتدعوه أن يفض هذه الأزمة الحازبة التى نالت من قدر الحاكم ومن راحة المحكوم . . . وكلما انطوى على نفسه بداره أقبلوا يخرجونه ويستحثونه أن يفرج عنهم الضائقة . ولم يكن يملك أن يفعل شيئاً ، ولكنهم لفرط ماشهدوه يسعى بينهم وبين الخليفة بالتوفيق حسبوه صاحب كلمة مسموعة لديه . أما عثمان فقد آذاه منهم التفافهم هذا بغريمه ، وحز فى نفسه أن يراه معقد الرجاء وهو ملوم محسور ، وزاد فى مرارته ما عسى أن يكون ذووه قد أوغروا به صدره على ابن أبى طالب من ألوان الوقيعة وسط الاتهام .

وقال الناس له :

« فليدفع إلينا مروان حتى نعرف كيف يأمر بقتل رجال من أصحاب رسول الله وقطع أيديهم بغير حق ، فإن كان عثمان كتب عزلناه ، وإن كان مروان كتب نظرنا فيما يكون من أمره . . . »

ولكن عثمان آثر أن يصم أذنيه دائماً عن أمثال هذا النداء ، وأحنق موقفه الناس وأثارهم فرأوا أن ينفضوا أكفهم من اللين به . حسبهم ما بذلوا له من الصبر والأناة ... وعنفوا عليه فى اللقاء والمقال ، وجروا فى سيرته بأسوأ ما تقول ألسنة ... ثم أجمعوا على أن لا يدعوه بخير ...

فلما كان ذات يوم من أيام الجمعة واقتعد المنبر ليخطبهم كدأبه ، لم يلق منهم الإصغاء الذى عودوه من قبل ، بل لغطوا ، وامتلأت عليه نواحى المسجد بالضجيج ، وأرادت طائفة أن يمنعوا العنف الذى هم يوشكون أن يضربوه فثاروا بها وأخرجوها من حرم الله ، واشتعلت الفتنة فتحاثوا

بالحصباء ، وأصيب عثمان وهو بموقفه ببعض ما تراشق به القوم فصرع وأدخل داره وهو غشيان . .

وعلم على بالنبأ — وكان قد آثر منذ مدة أن يحتجب بعيداً عن الصراع — فأسرع منى داره إلى دار عثمان . ودخل عليه يعوده ويستخبره ما كان . . قال بنبرة المطوف الملهوف .

« مالك يا أمير المؤمنين ؟.. »

فما أسرع أن ثار به بنو أمية ... وما أعجبه جزاء ما ناله من هذه الفئة التى دفع عنها كما لم تدفع هى عن نفسها قط !..

قالوا له بمنطق واحد كله موجدة واحتقاد :

« أهلكتنا يا على ، وصنعت هذا الصنيع بأمير المؤمنين . . إنا والله لئن بلغت الذى تريد لنمرن الدنيا عليك ! . . »

فأجال فيهم نظرة حيرى صوبها من بعد إلى الخليفة ، فإذا على وجهه سكون الراضى بما كان . فما كان أقل عرفانه بالجميل إذ ذاك . .

وقام على عن المجلس مغضباً ، ولم ينطق ، بل مضى لتوه إلى داره وفى نفسه مرارة . لكأن عثمان نسى هذا الجهد الجبار الذى بذله أبو الحسن ، ثم عاد قلبه سيرته الأولى من البغض له أو الريبة فيه . . كيف يا ترى ينكر الشيخ اليد الطولى التى أوشكت أن تقيم ملكه لولا هذه الطغمة الحمقاء من ذويه ؟ . . أم حسب أن علياً ترك سلاحاً واحداً فى جعبته لم يسله من أجله ؟ . . أم غاب عنه أنه دافع عنه حتى خشى أن يكون قد أسخط ربه لأنه دافع عمن آثر خفر العهد ونكث الوعود ؟ . .

ومع ذلك فلا تثريب على الشيخ الغافل عما يدور حوله وهو ساكن كأن قد أغمضت عيناه . . فها هى المدينة تثور به ، وهاهم الناس يتربصون به ويتحينون كل سانحة للقصاص منه ، وهاهم أولئك أصحابه أجمعين قد سكتوا عن نصرته وقفوا من موطن الكفاح بعد الأعين المشاهدة دون الألسنة والأكف لتنضح عنه . . . ومن لم يسكت عن خير فقد تكلم

بشر ومضى ينصب من نفسه داعية للثوار ، أو قائداً لهم يسير بهم لجهاد الخليفة والنيل منه . فكثير ألبوا وأعانوا عليه ، وكثير عصفت بهم الأهواء والمطامع حين لمت لهم من بعيد شمس الإمارة . وهل فات عثمان كيف كان موقف طلحة بن عبيد الله منه ؟ .

هذا الرجل من تيم له فى الخلافة مطمع قديم يرتد إلى أيام ابن عمه أبى بكر، وهذه هى الأيام تواتيه ، والظروف الرخية عليه الشديدة على خصمه تحالفه ، وها هى الجموع تلتف به بعد أن أعجزها أن تغرى ابن أبى طالب بمقطر الصولجان .

ومع ذلك فعثمان ينسى المكروهة تأتيه من كل إنسان ، ثم يسعه أن يقابل إحسان علي له بالإساءة إليه لأن بنفسه الأموية ضغناً يرتد إلى بضعة أحقاب ، ولأن أهله الأمويين يربون فى قلبه هذا الضغن ، ويتعهدونه بدسائسهم حتى يفرع عوده ويضرب إلى السماء . . ولقد سمع لهم ، وأخذ مراراً بآرائهم فأبعد علياً عن المدينة لئلا يلتف به الناس ، وأمره أن ينزل خارج المدينة بعيدا عن عواطف القوم . . . ثم لطالما بعدها أعاده ليدرقهم عنه ، ثم عاد فرده لعلهم ينسونه فلا يكون ثمة منه كبير خطر على إمارة الأمير .

ولكن الأيام وحدها كفيلة بأن تفتح عينى عثمان . . . فما استطاع الخليفة بعد يوم الحصباء أن يسير بين الناس ، ولا أن يجتمع بهم فى مكان . حتى المسجد أصبح حراماً عليه وإن كان مكثه فيه لا يزيد عن لحظات إقامة الصلاة . حرموا عليه كل موقع من مواقع المدينة ولم يبيحوه منها إلا داره . وتركوه محصوراً يكاد لا يملك من حرية المشى إلا خطوات . ولقد ثقل هذا عليه وبرح به ، ولكنه كان امرءاً مصابرا لا يعيبه التسليم بحكم الضرورات. وكان أيضاً شديد الوثوق — كما يبدو — بدهاء مروان وقدرته على حل الأنشوطة التى انعقدت بعنقه وشددت عليه الخناق ؛ فقد ظل حتى نهاية الشوط لا يفرط فى مشيره ، واستمسك به فى إصرار . وكلما مضى يوم عليه فى الحصار زادت الحلقة ضيقاً ، وزاد الثوار إمعاناً فى الضغط عليه بقدر

ما كان يزيد تأليب المؤلبين وإثارة المثيرين . وأخذت الأطماع الشخصية تلعب دورها وتأسر نفوس العامة بكل ما يستعبد النفوس الساذجة التى أضربها طول الحرمان . وكلما مرت فترة من الزمن تفتحت عينا الشيخ على صورة جديدة بغيضة من صور الأهواء التى عصفت بقلوب فئة من الخاصة ظن من قبل أنها ممتنعة على الأهواء . . . جلس الخليفة يوماً داخل بيته ومعه ضيف يناجيه ، وكان الناس كدأبهم جموعاً تلغط خارج باب الدار . فإذا عثمان يهم من مكانه واقفاً ويقول للزائر على حين غرة :

« أفلا اسمعك كلام الناس يا عبد الله ؟ »

وأمسك بيد الرجل يقوده إلى حيث لم يفصل بينهما وبين الجمهور إلا الباب . . وسرى إلى السمع حديث الناس واضحاً حيناً وحينا مبهماً مشوش الكلمات . ولكن الضجيج لم يكن يمنع الزائر أن يتبين ما أراده على تبيينه عثمان ثم يهتف كالمذعور :

« طلحة بن عبيد الله ؟ . . »

فأجابه الشيخ فى ألم بدت آثاره على وجهه كضربات سوط :

« هو والله يا عبد الله . . »

وأصغى الرجل ثانية لما يدورخارج الدار ، فإذا القومقد استغرقهم الحديث وانتثرت زمرهم ها هنا وهنالك ، كل طائفة لها رأى ولها نوع من أنواع البيان . . وسمعهم يتحاورون :

« ما تنتظرون به ؟ . . »

« بل لا تعجلوا به ، فعساه ينزع ويرجع . . . »

ثم استرسل بهم الحوار فى مصير الشيخ هكذا بين فرقة المتعجلين وفرقة المتريثين . . .

وألقى عبد الله من بعد نظره فى القوم . وراح يحدد البصر فى ناحية معلومة لا يتركها . فإذا طلحة بن عبيد الله قد انثنى إليه ابن عديس أحد زعماء ثورة المصريين فتناجيا برهة بصوت خفيض . فلما غاب طلحة عن عين الزائر كان ابن عديس قد عاد ثانية إلى أصحابه يقول :

« أيها الناس ، لا تتركوا أحداً يدخل على عثمان أو يخرج من لدنه . . »
فما سمعها عثمان حتى حال لونه ، وقال وهو يرفع بصره إلى السماء :

« هذا ما أمر به طلحة ! . . اللهم اكفنى طلحة فإنه حمل هؤلاء القوم وألبهم على . . والله إنى لأرجو أن يكون منها صفراً ويسفك دمه ، فقد انتهك منى ما لا يحل له . . »

ولم يمض قليل وقت بعدها حتى كان هشام مولاه قد انطلق من المدينة مستخفياً قدر وسعه حتى خرج من نطاق الثوار . ومضى مسرعاً لا يستأنى إلى خيبر ؛ فيها الرجل الذى يدخر دائماً للملمات . . بها على بن أبى طالب قد اعتزل الناس حتى لا تمشى عليه ظنون عثمان ، قد خرج اليوم رسول عثمان يدعوه . .

وأسرع أبو الحسن يلبى النداء فإنها لحظة حازبة ينسى فيها كل خلاف . فما أشرف على الدار حتى هاله ما هى فيه من حصار . فلم يكن قد تركها كذلك. ولم يكن الثوار بمثل هذا الطغيان حين غادر المدينة إلى خيبر ، بل كانوا بها كأهلها وأمير المؤمنين حر الحركات حتى ليخرج إليهم ويؤمهم والناس فى الصلاة . . وأدار على فى الناس عينا تتلهب . ومضى فى بحرهم الزاخر فما وسعهم إلا أن يفتحوا الصفوف له ، وجاز حلقتهم المضروبة على الدار حتى خلص إلى عثمان .

وقال له الخليفة المغلوب يشكو ويطلب العون :

« يا أبا الحسن ، إن لى عليك حقوقا : حق الإسلام ، وحق القرابة ، وحق الصهر ، وما جعلت لى فى عنقك من العهد والميثاق . . . فو الله لو لم يكن من هذا شىء ثم كنا إنما نحن فى جاهلية لكان عاراً على بنى عبد مناف أن يبتزهم ملكهم أخو بنى تيم » .

ولم تكن الحال لتخفى على بصيرة على الذى أسرع فقال :

« أنا على ما ذكرت يا أمير المؤمنين . وسأكفيك . . »

ثم انثنى خارجاً إلى دار طلحة فلقيه قد التف به الناس واجتمعوا له حتى غص بهم المكان . . فدعاه إليه ، وقال بغير تمهيد :

« ياطلحة ، ما هذا الأمر الذى وقعت فيه وصنعت بعثمان ؟ »

فرفع الرجل حاجبه كالمستغرب ولون ثغره ببسمة دهاء ، ثم أجاب فى هدوء :

« ياأبا الحسن ، أبعد أن مس الحزام الطبيين ؟ . »

فلم يتريث على . لم ير جدوى من وراء محاورة هذا الواثق من أمره وخطره . وقام مسرعا فلقى أسامة بن زيد فصحبه ، ثم مضى وإياه إلى بيت المال . .

كانت النظرة التى ألقاها على الذين امتلأت بهم دار طلحة كفيلة بأن تكشف له عن أمور تكاد تجرى فى الخواطر مجرى اليقين . ولم يكن غراً ليشتبه عليه الأمر ، بل كان نفاذ البصيرة فى المستغلقات والمجاهيل . وكان أيضاً عليما بأولئك العامة ، عارفاً إلى أين تنزلق أقدامهم وأى الأشياء يقسرها على الانزلاق . وكان الحرمان وحده باب السر . . الحرمان المر الذى عانوه طويلا وجاهدوه طويلا ثم لم يتحرروا من قبضته بعد . وكان البذل هو مفتاح الباب . ولمن ملك المال أن تفتح له المغاليق ولا يستعصى مطلقا عليه رتاج . . .

أفايقن على إذ ذاك ان طلحة قد أوشك أن يملك أولئك العامة المحرومين ؟ . .

الرجل حقاً ثرى ، وليس مقبوض الكف ، بل هو أميل إلى إسباغ البذل والسخاء . قد فشت له فاشية من أموال اتخذ على بيوتها وخزائنها — فيما حدثتنا عائشة — مفاتيح . فهلا إذن كانت سيرته مع القوم الثوار خاضعة لجوده المعروف المأثور . .

على أى الحالات موقف القوم اليوم لا يستطيع أن يملكه غير الجود . ونفوس الكثرة الغالبة فيهم كانت أولى بأن تسارع إلى استقبال البذل بعد أن حرمت أعواما طويلة إحدى متعتى الحياة . ولم يغب هذا عن نفس على التى تعرفت نفسية الجماهير ، ولا عن ذكائه وخاطره اللماح . وأحق

بالبذل اليوم أناس حرموا أفياءهم أو انتقصت عليهم . وأنسب الساعات له . ساعة بلغ فيها التذمر من الحرمان إلى حد الثورة والجموح فى العصيان . . بهذا الخاطر مضى على إلى بيت المال ، وقال لمن حضره هناك :

« افتحوه . . »

فأرسلوا إلى خازنه . فلما وجده قد ابطأ عليه ، ضرب الباب فكسره بنفسه ، وراح يفرق ما فيه من الأموال ...

وشاع الخبر فى المدينة فأقبل الناس عليه من كل ناحية عسى أن يكون لهم فى هذه الهبات نصيب . وسمع المجتمعون ببيت طلحة فأخذوا يتسللون تباعاً حتى فرغ عليه المجلس ...

وأثمرت الخطة . وفرح عثمان أيما فرح فقد نصر على غريم قوى عنيد . وتلفت طلحة نخشى أن يفقد مكانته عند عثمان بعد أن أوشك أن يفقدها عند الناس . . . لكأنما حسب الرجل فى تلك اللحظة أن تيار الأمور قد تحول إلى غير مجراه ، وريحها جرت بما يخالف هواه ، وأراد أن يكسب إحدى الحسنيين فسارع يدخل للخليفة محاولا أن ينفى عن نفسه الظنة ، ويعتذر عما قد يساء تأويله منه ...

ولكن عثمان فى ساعة نصره المفاجئة أبى أن يلين له ، بل قال بلهجة الشامت المسرور :

« أجئت تائبا ؟ .. والله ما جئت إلا مغلوباً ! .. فالله حسيبك يا طلحة .. »

٥

« لا أصلى بكم والأمام محصور ... »

هذه هى الكلمة التى ألقى بها على فى وجوه الثوار حين جاءوه يعرضون الإمامة والخليفة محصور عليه حلقة منهم حالت بينه وبين الخروج للصلاة . وهى بمغزاها بيان لرأيه فيهم ، وإنكار تام لوسيلة العنف التى ركبوها لنيل

مراميهم ... أفظنوه الرجل الذى يجنح كثلهم للعدوان ولو أريد به حق ! . إنما دنس الذرائع منبىء عن دنس الغايات . والحق لا يستعين مطلقاً بباطل أو يكون قد خالف ذاته وأقر على نفسه بالبطلان . وهل النور والظلمة يجتمعان ؟.

كانت معنى فى خاطره قبل أن تجرى مبنى على لسانه . ما قصد بنطقها إلى دلالة الألفاظ ، ولكنها صورة من صورخلقه تنضاف فى سجله النقى إلى مثيلات ومثيلات . . . لو علموا إذ ذاك لردوها إلى أختها التى طالعهم بها عند ماجاءوه بكتاب ابن أبى حذيفة ، ولرأوها تماماً كما رأوا الأخرى ، ولأيقنوا أنهم بإزاء شخصية فريدة ديدنها سمو ، ونهجها ترفع ، وهدف حياتها كله رسم المثل العليا بمدها لكل حياة .

لم يفته أن فى الإمامة سمة سياسية قد يؤخذ عليه أنه استباحها والإمام محصور . وأنها مظهر للزعامة الرسمية قيامه بها كفيل بأن يعتبره البعض سمياً وراء تلك الزعامة . وأن قبوله إياها فى هذه الآونة أولى بأن يكون — فى الأذهان والعيون — اعترافاً خفيا بشرعية ابتزازها من الشيخ . . . فإذا سلف منه فى حق الثوار ما هو معروف من مخالفة وإنكار فقد وجب إذن أن يأبى على الفور عرضهم ويرده دون تمهل فى الإباء .

ومضى عنهم وتركهم مقهورين . . . لم يغلبهم بأسه وعدته ، بل غلبهم إباؤه وأنفته . فلقدحسبوه بحاجة إليهم فوجدوه الغنىعنهم . وجاءوه يعرضون المجد والسلطان فعلمهم أن للنفس المترفعة مجداً أخلد وسلطانا غير محدد ، دونه ما قدموه وعرضوه . ووقفت حصانة روحه ثابتة أمام زخرف الإغراء .

وكما ذهبوا من قبل يلتمسون الموافقة عند سواه فكذلك ذهبوا اليوم . ومضوا إلى طلحة بن عبيد الله يقلدونه الإمامة فقبلها فهى بلا ريب خطوة إلى الأمام ! .

وبقى عثمان قعيد داره . كأنى به نام وأسلم نفسه للأحلام ! . فلم يحرك

يدا ، ولم يفعل شيئا ، بل ظل أليف استخذائه وتسليمه ، أسيراً خاضعاً لحماقات مروان يأمل كثل أمله فى وصول الأمداد .

حتى الفرصة التى أتاحها له على حين فرق المال على العامة لم ينهزها الشيخ، بل تركها تمر دون احتفال وهى الجديرة بأن يفيد منها بعد أن قاءت بها نفوس أكثر الناس إلى الرضاء . وبقى كدأبه الأول ساكناً لا يخطو شبراً واحداً ليقترب من شعبه ، ولا ينطق بكلمة واحدة تصل ما بينه وبين هذه القوى التى أمسكت بالزمام . وغلبه دائما عناده ، وملكته كبرياؤه . وزاد من استمساكه بموقفه شعور قوى بأنه صاحب حق إلهى فى الحكم لا يملك أن يغير فيه إنسان! • أو لم يكن هو القائل للناس حين طلبوا إليه أن يعتزل الأمر :

« اتبرأ من الأمارة ؟ • • لأن تصلبونى أحب إلى من أن أتبرأ من أمر الله وخلافته ! • • »

وأخذت السحب الداكنة تتجمع فى الأفق فلم تعد المدينة معلمة كعهدها بالهدوء والسكينة • وصار الأمر فيها للجموع المضطربة النفوس والجوانح ، والكلمة النافذة لزعماء الثوار • حكمها عقل الثورة إن كان ثمة عقل يمسك بجماح الثورات • ثم سادتها شريعة الإرهاب حتى منع الناس غيرهم من الكلام والاجتماع • • حتى طلحة أصبح اليوم سواه بالأمس • وبدت الجماهير لا ترمقه إلا كما ترمق قناة فى أيديها إن شاءت هزتها أو شاءت تركتها معطلة حتى حين • فلقد كان رجلا — فيما يبدو — جرفه السيل ، لم يؤت القدرة على قيادة الجموع ، وكما منحوه كرامة الإمامة فى يوم فقد استطاعوا أن يسلبوه إياها فى آخر لأنهم لغير قدره منحوه، بل ليكون هو خطوة الانتقال الوئيدة من سلطان لسلطان ، فما عادوا من بعد يحرصون على أن يؤمهم فى الصلاة بعد أن فازوا بإقراره لهم بشرعية منعها عن عثمان ، بل استوى الآن قيامه بها أو قيام سواه ، فإذا انتهوا إلى هذا فأولى بها ابن الغافقى وهو زعيم المصريين الذى دانت لهيبته طوائف أهل

البصرة والكوفة وألقت فى يديه الزمام .

عقل الثورة هو الذى كان يدبر . وشريعة الإرهاب هى التى سادت البلدة فى تلك الحقبة العصيبة من تاريخ الإسلام. أما عثمان فقد لاح كمن أعجزه الداء وأعياه أن يبادره بأى دواء. وبات لا يعرف له وسيلة يركبها سوى الإخلاد إلى السكون والإمعان فى الهدوء والركود ... لكأنما فرغت البلدة منه وفرغت أيضا من داره . لكأنما الأحداث سلبته القدم واللسان .. وأما مروان فقد ظل أسير حمقه ، كليل البصر فى العواقب والخواتيم . كان شديد الكلف بنفسه ، بالغ الأثرة ، حريصاً على سلطانه وسلطان ذويه فلم ير مطلقا أن يسارع إلى التضحية الوحيدة الكفيلة بتجنيب البلاد ويلات الانقسام ... هذه التضحية التى لم يكن يملكها سواه أباها الرجل على دينه وأمته لأن متعة النفوذ — عنده — غاية لا يعز فى سبيلها إتيان كل محظور ، ويهون دونها أن تسلم البلاد وما يتبع الانقسام من وهن الإسلام .

سدر فى الغى وركب غروره ، وأبى أن يتنحى عن سلطته وإن علم تنحيه كفيلا بأن يفىء الهدوء والسلام ، وراح يصابر الزمن ما وسعه عسى أن تجيئه لحظة سعيدة بأنباء وصول الأمداد . إن أمله فيها لم يقعد به ، وحلمه الهانىء عنها لا ينى يراوده فى اليقظة وفى المنام ، وإنه لعلى يقين من حضورها ذات يوم فيشتفى بها لنفسه ، ويقمع عدوه ، ثم يقف على أشلاء أولئك الذين أرادوا هدمه وهم لقى شائه تحت قدميه ، ممزقين هامدين ، لا يستطيعون دفع بلائه ولا كبريائه .

ولكن الزمن كان عدواً له ولعثمان ، فلم تصل الأمداد ، ولم يسارع أهل النجدة بالأمصار إليه . بدا عمال الخليفة الذين علق عليهم حياته كأن قد حالفوا الثوار عليه ! ... فلقد أبطأوا ، أو هم لم يقدروا هول الخطر المحدق به حق التقدير ، أو عساهم لم يلقوا استغاثته بجد واحتفال لأنهم ظنوها أزمة كغيرها

من أزمات كثيرها لن يلبث حتى يجتازها بسلام، أو غلب عليهم ترددهم القديم المعهود فأعياهم أن يتبينوا موقفهم وما عسى يجمل بهم أن يعملوه . فإذا المرء أحسن بهم الظن فهم غير جديرين بمناصبهم ، وإذا حاسبهم فالتزم الجد فى الحساب فهم متهاونون أجرموا فى حق وليهم الشيخ ، وإذا قدمنا فى خواطرنا ما سلف من مواقفهم لما وسعنا إلا أن نراهم — كمن قبل — حريصين على ما فى أيديهم من سلطان ، يؤثرون السلامة لأنفسهم ولتلك الإمارات التى ارتفعوا بها على هام الناس .

أم هم ياترى اختاروا دور المشاهد من بعيد انتظارا لما قد تسفر عنه الأحداث ؟ .. السلامة تنادى بالموازنة بين أمر وأمر ، وبين مغامرة ومغامرة وإن كانت المغامرات لاتستهوى المعنيين بالسلامات . . . ولكن عمال عثمان قهرهم الزمن على الاختيار بين نوعى مغامرة فوجب أن يستعينوا بالحذر عند الاختيار . أعلى عثمان أم على الثوار ؟ .. أى أولئكم ياترى ينصرون — بل أى أولئكم سوف يعقد له فى نهاية الأمر لواء الانتصار ؟ . ما أحسب إلا خواطر من هذه الشاكلة طافت برؤوس ابن عامر ومعاوية وسعيد وهم يقرأون كتب عثمان . وما أراهم إلا تدبروا طويلا ، ثم ترددوا طويلا قبل أن يستقر أحدهم على حل يرضاه . ولكنى أراهم جميعالم يسارعوا لإنقاذ الشيخ الذى حوصر عشرات الأيام وكان فى استطاعة جيوشهم أن تصل إليه فى أيام قليلات .

ثم دنت اللحظة الفاصلة التى توشك أن تحسم بين عهدين وتسير ببدء النهاية إلى النهاية .. فلقد أسرع الثوار بالأزمة إلى ذروتها ، وجردوا على الأمير أعتى سلاح ينجز الكفاح : منعوه الماء فأصبح ، وهو بداره ، كمن فى متاهة صحراء وإن كان قاطع البيد يستطيع عادة أن يعلل النفس بالسراب دون الشراب !..

سلوا على عثمان سيف العطش ، ووقفت جموعهم ببابه تحول بينه وبين من عسى تأخذهم الشفقة فيسمون إلى بل أوامه بشربة ماء . . . عذيرهم فى هذه

القسوة أن الأيام تصرمت تباعا وهو على عناده ، مسرف فيه،لا يتقدم إلى وفاق، ولا يسمع لهم وإن جأروا لديه بالنداء ، ولا تجيبهم لمطلب واحد مما طلبوا . وسعوا إليه جاهدين آنابا لنصح والملاينة ، وآنا بالعف والمخاشنة . فإذا جاءتهم الأنباء بمدطول اصطبارهم وكفهم عنه بقصة أمداد تزحف عليهم من لدن عماله، فقدرأوا إذن حقاً عليهم نحو نفوسهم ونحو مراميهم أن يراعوا ثورتهم ويتحصنوا عن أهدافها بكل سلاح .

ويعلم على فيسترجع ويأسى لحال عثمان . ويفيض به الحنق أضعافاً على الثوار ، ولكنه يفور على أصحاب رسول الله آلاف الأضعاف ، فهذه الفئة المعلمة بين الناس بالهدى والرشاد نامت عن المحنة النازلة بصاحبها وقعدت عنه ، ولم يتقدم منها واحد إلى كفاح ذلك البغى المرذول، بل لاحواجبعاً كمن يؤثرون السكوت على تصرف الثوار عن رهبة منهم أو عن مصانعة . وهرب الكثير بأنفسهم من حلبة الصراع لتبعد الظنة عنهم . ومن لم يقم منهم بدور كأدوار هؤلاء فقد شارك أهل الثورة وركب مركبهم إن لم يكن قد ألبهم على الشيخ بزخرف الأقوال وبذل المال ...

ولكن علياً أبى عليه قلبه الكبير أن يخلى — كغيره — بين الثوار وبين الخليفة المحصور . وهاله قذر الأداة التي جردها القوم لنضاله . فما كان أي كفاح عند أبي الحسن إلا مبارزة نظيفة بين خصمين ، لاتصح بغير تعادل السلاحين . . . امتثالا لشرعة الفروسيه أملى عليه هذا ، أو قل إنها نفسه الكريمة النقية التي رسمت هكذا شريعة الفروسية . . . فلما أن رأى الثوار يجحفون ولا يلتزمون الرحمة،ويجورون فى سبيل النصر على مروءة الانسانية ، هب من فوره رجلا فرداً تظاهره مثله ويؤيده نبله ، ليناضل وحده كل هذه الآلاف .

كان يعلم أن رجال الحصار تحينوا دائماً أيام غيابه عن المدينة بخيبر أو بعاء ينبع ليشددوا حلقتهم على الأمير . ولكنه لم يكن يملك شيئا من أمر مكثه أو ذهابه ، بل هو رهين بمشيئة عثمان ، إن شاء نفاه أوشاء أبقاه . فلقد أبى الشيخ

حتى فى أحلك ساعات محنته أن ينزع أصول الشك من قلبه . وظل كمهده واجداً على على ، لا يستطيع أن يتحرر من ذلك الشعور الموروث بالنقمة منه ... لكأن مر الأعوام عجز عن استلال ما فى صدره أو إخفائه بالنسيان فى قرار سحيق . لعل شجرة الحقد لا تعرف الخريف ، بل هى مورقة أبداً ، خضراء أبدا ، تتجدد أغصانها وتخرج طلعا مع كل صباح ... أفنسى عثمان يا ترى الجهود الدائبة التى بذلها على من أجله وجاوز فيها كل مأمول من ولى محالف فضلا عن غريم مخالف ؟ بدا هذا من تصرف الشيخ وعت فعاله عنه . فما زال ابن أبى طالب نفس الهاشمى القديم والمنافس القريم . ولئن ألزمت الظروف يوما عثمان على محالفته فإنها إذن محالفة ضرورة، موقوتة بحين ... كذلك ظللت حال الخليفة نحو على بالرغم مما خبره من دأبه على صيانة حكمه المنذر بالانهيار. فإن هى إلا حال نفسية لا سلطان للشيخ عليها وليس له إلى إصلاحها سبيل . وما دمنا عرفنا إبان سطوته واستتباب أمره شديد الريبة فيه فلسنا إذن ننكر عليه ريبته . وهو فى إبان محنته وخاطره فريسة سائغة فى فم الظنون ... وكذلك راح ذهنه الكليل المكدود يراوده على النقيض والنقيض. إذا تحزبت عليه الأمور وخاف الناس على نفسه بعث إلى على فأدناه ، وإذا رآهم لانوا له وسكتوا عنه رأى فى سكونهم هذا مدى سلطان غريمه عليهم فخافه واقصاه . ثم لا ينى هكذا يدنيه ويقصيه والرجل صابر لا يبرم به ولا ينقم منه قلبه الكبير الكريم . بل يستجيب له فى النفى وفى الدعوة كليهما سواء بسواء ...

استسفره ذات مرة إلى الثوار يردهم عنه ويترضاهم له ، فلما علمهم قد فاءوا إلى السكون ، لعب الوهم بعقله وخشى مغبة افتتانهم به ما دامت له عندهم هذه الكلمة المسموعة من دون الناس ... وأرسل ابن عباس يقول له .

« يا أبا الحسن ، إن أمير المؤمنين يأمرك بالخروج إلى ينبع ... »

فابتسم . ولم يزد على أن قال فى هدوء وهو يهم بالرحيل :

« ما يريد عثمان إلا أن يجعلنى جملا ناضحاً بالغرب. أقبل وأدبر !.. بعث إلى أن أخرج ، ثم بعث إلى أن أقدم ، ثم هو الآن يبعث إلى أن أخرج . . . أما والله لقد دفعت عنه حتى خشيت أن أكون آثماً . . . » .

ومع ذلك فلم يحمل ضغناً ، بل انطلق إلى نصرته سباقاً وقد علم أن الحصر جاوز فى الشدة كل حدود ، وأن مرد الأمر فيه لطلحة دون زعماء الثوار الذين اتخذوه ستاراً يدفع عنهم العيون والظنون ، ويضفى على حركتهم سمة الحق الجديرة بها شخصية هذا التيمى صاحب رسول الله . علم هذا كله فجاوز الجموع حتى خلص إليه ، وقال له يهيب بمروءته وأريحيته :

« يا أبا محمد ، نشدتك الله إلا رددت الناس عن عثمان . . . » .

فهز الرجل رأسه بإباء ورد فى اعتداد

« لا والله . حتى تعطى بنو أمية الحق من أنفسها .. »

ولكن الساعة لم تتسع للمساومات . وإنما هى مسألة حياة حفظها رهين بأيدى اللحظات قبل الساعات . .

ولم يطل بعلى غياب ، بل أقبل على القوم من بعد تتبعه على الأثر ثلاث قرب تنضح بالماء ، فما بدت لأعين أصحاب الحصار حتى لغطوا ، وشمل الهمس شفاههم ، وملأت الدهشة نواظرهم من هذا التحدى الذى يطالعهم به ابن أبى طالب ، ولكنهم تهيبوا أن يمنعوه . ومضت أبصارهم تلتف بطلحة وتستقر على وجهه كأنها تناجيه أو تستوحيه . . .

وأقبل الرجل على على ، متمهلا كأنه يقسر نفسه على السير ، وراح يرمقه فى هدوء وسكون . وتحدث فى عينيه إباؤه على صاحبه ما جاء فيه ، ولكنه لم يقل شيئاً . وأخذ الناس يلتئمون عليهما من كل ناحية حتى ضربوا حلقة حولها ، ثم وقفت فئة متأهبة فى وجه حامل الماء تسد عليه الطريق . . .

فما أسرع أن صاح على بهم صيحة غضب واستنكار وهو يوجه حديثه إلى ذلك الزعيم :

« أدخلوا عليه الروايا أيها الناس » .

فاستخذى القوم، وانفرجت صفوفهم على كره . وأخذ الغضب من طلحة مأخذه وهو يرى القرب تدخل الدار . ولـكنه طوى فى نفسه سخطه حتى غادر على المـكان .

ولـكنها كانت مرة واحدة ، المفاجأة فيها شلت حركة الثوار وظاهرت علياً حتى أنجحت مسعاه . فلما أن انقضى الأثر الذى خلفته بنفوس القوم راحوا ثانية يحزمون أمرهم ويضيقون حلقة الحصار ...

ثم عادت الحال إلى ما كانت عليه ، وأصبح عثمان يتلفت فلا يرى قطرة ماء بداره تبل صداه وصدى أهله وفيهم نسوة وأطفال . وأرسل كرة أخرى يستنجد بعلى . فمن عجب أن يكون رسوله إليه هو أحد أبناء الرجل الذى مهد لقتله وأعان الثوار عليه ! . . لم يكن يستطيع أن يبعث أحد مواليه لأن القوم ضيقوا على الدار ومنعوا كل خارج منها كما منعوا كل داخل إليها ، فـكان رسوله هذه المرة ابن جار له من بنى حزم ذهب عنه يطلب المعونة من على ، ثم انثنى إلى بقية الصحابة ومنهم طلحة ، فأزواج النبى ومنهن عائشة ، عسى أن يستطيع أحدهم أن يبادر إليه . .

ولـكن الحلقة كانت اليوم من حديد، وطريق الدار قد سدته كتل متراصة من الثوار لا تريم عن مواقفها . . حتى ابن أبى طالب لم تسعفه هيبته عند القوم ، بل أبوا عليه ، وحالوا دونه ودون بغيته ، ووقف يهيب بهم فلا يسمعون له ، وينصحهم فلا يرعون عنه . .

قال لهم عسى أن تنفذ كلماته إلى قلوبهم فتلين :

« يا أيها النـاس ... إن الذى تصنعون لا يشبه أمر المؤمنين ولا أمر الـكافرين . لا تقطعوا عن الرجل المـادة ، فإن الروم وفارس لتأسر فتطعم وتسق . وما تعرض لـكم هذا الرجل فبم تستحلون حصره وقتله ؟ . . » .

فما زادهم حديثه إلا عناداً ، وقالوا له :

« لا والله ولا نعمة عين ! ... لا نتركه يأكل ولا يشرب ... »

وكان الليل قد مضى إلا أقله ، وظلمة الغلس تلف المـكان كله فى ستار قاتم

يحجب الدار عن الأعين . وتلفت على برهة إلى ناحية بيت عثمان لعله يرى أحداً من ساكنيه فيشير إليه بأنه فشل فيما جاء فيه عسى أن يدبروا أمرهم بطريقة أو بثانية ، ولكن الظلام رد طرفه .

وتفكر هنيهة . وجب إذن أن يعلم عثمان أنه صدع بأمره وقام له ثم حيل بينه وبينه حتى لا يركن الشيخ إلى أمل وصوله ساعة بعد ساعة . وحتى لا يذهب باله إلى أنه تخاذل عنه ... فلما أن أعياه أن يشير لأهل الدار بما أراد ، خلع عمامته ثم طوح بها إليهم لتكون مغنية عن أفصح الإشارات .

وكذلك أفلت زمام الأمر وأصبحت ثورة تنقاد كغيرها لعقل الثورات ، وزاد طغيان أصحابها بقدر زيادة الأنباء بقرب وصول الأمداد ، وعنفوا بكل مخالف وإن أتاهم بنصح أو حضهم بخير ، ولم يعودوا بعد يرعون مكانة أحد أو يجلون قدره ، بل ركبهم الغى حتى اجترأوا على أم حبيبة زوج الرسول حين أتت تريد أن تعطف قلوبهم على الشيخ المحصور ليدخلوا إليه الماء ، وضربوا بغلتها حتى ندت بها ، وأوشكت السيدة أن تتردى عن مركبها قتيلة لولا أن تلقفها بعض الناس .

بهذه الروح الجامحة وبأمن منها فى الجموح والعصيان كانت تسير الثورة المشبوبة حتى أيقن على أن الشر النازل بات يطرق الباب ، وأن على الخليفة اليوم حقاً حيال نفسه يسبقه آخر حيال أمته ، وكلا الحقين رهين بالآخر متوقف فى البدء والنهاية عليه ، كان العلاج فى يده وحده ، فى يد هذا الشيخ العنيد الذى أبى طوال عشرات الأيام أن يأخذ بعلاج واحد يحسم سريان الداء ، ولم يكن دواء عصياً يستحيل عليه ، بل هو فى مقدوره وقيد يده ، فلو أراد الجد فى استصلاح الأمر لما أعياه أن يلتمس الخير ، ولوسعه أن يلين مرة لمشيئة الإجماع ، ولاستطاع وهو بعيد عن الخطأ كل البعد أن ينحى مروان عنه ، ويخرجه من أمره فيستقيم له الأمر . فما أحسب أحداً من الناس كان يطمع من خليفته فى أكثر من هذا الإجراء ، بل أحسبهم به جد قانعين ، وما دام الرجل

الذى كانت أصابعه تحرك أميرهم كما تشاء ، وعلى غير ما يشاءون وتشاء الأمة جمعاء قد أريد له البعد عن السياسة لغير عود ، فإنه إذن قد صلح الحال واستقر السلام . ولكن عثمان أبى عليهم مطلبهم وأوطأ رقابهم كرها صاحبه مروان ، وراح فى سبيل إبقائه يتخبط فى الوعود دون وفاء . . . أفهو يا ترى قد آمن بحسن سياسة مروان فأبى إلا إقراره ؟ . . . أم قد خجل — وهو الأريحى البر بأهله . . . أن يخذله ويقعد عن نصرته فى ساعة محنته . . أم قد أيقن أنه مظلوم تجنى عليه الناس ؟ . . لا نراه فى أى هذه الحالات قد التزم الصالح العام حين أبقاه ، لأن إجماع الرأى على عزله كان أجدر بأن يلقى عند عثمان أذناً سميعة ونفساً راضية مطيعة . وما نرى مروان إلا رجلا أعماه حبه لنفسه حتى استمسك بصالحه وإن كان دونه حتف ناصره وانقسام صفوف الإسلام .

تفكر على جاهداً فى الحل الذى يكشف الغمة عن الأمة . فما وسعه أمام عناد الشيخ إلا أن يراه فى تفريق الثوار بأية وسيلة من الوسائل عسى أن يتيح للخليفة مهلة بعد ذهابهم لإحسان التفكير ، ولم يكن يستطيع إلا أن يشير وإن كاد ليعلم أن مشورته ستكون دبر أذن فهم عثمان ، ولكنه رغم هذا رأى على نفسه حقاً نحو ضميره قبل أميره ، فهم ليسعى إليه بالرأى فى جعبته التى فرغت بعده من ذخر الآراء . . .

هم ليخرج من منفاه فاذا رسول يأتيه فينبئه باشتداد الطعن على عثمان بعد أن أبعده عن المدينة ، فقد اغتنم الزبير وطلحة كدأبهما غيابه فنشطا فى العمل ، ورجوا أن يميلا إليهما قلوب الناس . . . ثم قدم إليه الرسول كتاباً من عثمان يقول فيه :

« ... أما بعد ؛ فقد بلغ السيل الزبى ، وجاوز الحزام الطبيين . وارتفع أمر الناس فى شأنى فوق قدره ، وزعموا أنهم لا يرضون دون دمى ، وطمع فى من لا يدفع عن نفسه .

وإنك لم يفخر عليك كفاخر ضعيفٍ ولم يغلبك مثل مغلب

وقد كان يقال أكل السبع خير من افتراس الثعاب ... فأقبل على أولى :
فإن كنت مأكولا فكن خير آكل وإلا فأدركنى ولما أمزق »
فما شاب صفاء نفسه هذا الغمز الذى دسه عثمان فى طوايا الكلمات. بل غفره ومضى سريعاً إلى الدار وفى خاطره أن الساعة لم تعد ساعة توفيق بل ساعة جهاد وأن عثمان وقد أبى طريق الموافقة والانقياد فعليه بطريق الكفاح والجلاد ، وأن الثوار اليوم لن يسمعوا لأى كلام ولكنهم قد يذعنون للحسام وانطلق بطائفة من أهل بيته قليلة فيهم الحسن والحسين ابناه ، وعبد الله بن جعفر ربيبه وابن أخيه ، وقد اعتم بعمامة رسول الله وتقلد سيفه، وحوله وأمامه مشى أولئكم الفتية الأمجاد .

وأشرف على جموع الثوار وقد لمعت فى أكفهم النصال والحراب كأنهم فى ميدان قتال . وعلم أنهم اليوم لن يوسعوا له إلى باب الدار إلا أن يقهرهم بسيفه صاغرين ... فهجم سريعاً . وبغت بنفيره آلافهم المجيشة . وبدت الآن منه صورة صادقة لذلك الرجل الذى قال فيه رسول الله إنه جيش وحده فى سبيل الله . فما أسرع أن فرق القوم أمام هيبته وتفرقوا له . ومضى بينهم غير مدافع حتى دخل الدار ..

ولقى عثمان هناك قد أخذ منه الهم مأخذه . كئيباً محزوناً قد أثقله وقر الأحداث فراح يبين له الأمر ويهديه إلى ناحية العمل التى لم يعد له إلى سواها سبيل ..

وقال له بعد تمهيد قليل :

« يا أمير المؤمنين ، لا أرى القوم إلا قاتليك .. »

فأجاب الشيخ بتهافت واستسلام :

— حسبي الله ونعم الوكيل .

— فرنا فلنقاتل يا أمير المؤمنين .

فرفع الشيخ يديه كأنما ليحول بينه وبين ما يريد ، وقال :

— أنشد الله رجلا رأى لله حقاً وأقر أن لى عليه حقاً ألا يهريق فى

سبى ملء محجمة من دم أو يهريق دمه ..

— يا أمير المؤمنين مرنا .

وأبى عثمان . وأصر على الإباء كما أملت نفسه الرقيقة . فهل علم أن وصول الأمداد كان كفيلا بقمع الفتنة دون إراقة دماء ؟ .

وخرج على من لدنه وهو أسيان عليه ، فارغ الجعبة من كل أداة بمقدوره أن يسخرها فى عون الشيخ ، ولكن عثمان التزم دائما سياسة الإباء ، فأبى كل العروض المبذولة لإعادة السلام وإقرار النظام ، سواء بطريق القوة أو بطريق التوفيق ، فلا هو أجاب مطالب الثوار ، ولا هو اعتزال الأمر ، ولا هو قابلهم بالقتال قبل أن يقتلوه ..

ولكن علياً لم يرض أن يدع الرجل وشأنه لأنه عهده لا يحسن القيام على أمر نفسه ، بل بعث إليه ابنيه سبطى رسول الله ، وبعض أهله ، ونفراً من مواليه زودهم بالعدة والسلاح ، وأمرهم أن يلزموا باب الدار فلا يفارقوه

قال للحسن والحسين وهما يتأهبان للذهاب :

« اذهبا بسيفيكما حتى تقوما على باب عثمان ، فلا تدعا أحداً يصل إليه بمكروه .. »

فصدع الفتيان . وتوجهت هذه الطائفة من بنى هاشم ومواليهم إلى باب عثمان يترسون بصدورهم دونه ، ويذودون عن الشيخ الضعيف المغلوب ، عن ذلك الرجل الذى غلبه تردده ووهن عزمه قبل أن تغلبه عدة عدوه وخصمه . وكانوا بهذا أول من سلوا سيفاً لرد الثوار .

وخجل بضعة من الصحابة من أن يقوم على فيما قعدوا عنه ، فترسموا خطاه وبعثوا بأبنائهم كبعث الحسنين .. حتى طلحة بعث ابنه ، وحتى الزبير أيضاً خشية أن يرميا بقلة المروءة . فما كانا فى الواقع يريدان قتل عثمان وإن أرادا نزع ملكه عنه ..

ودخل الحسن من بعد على أمير المؤمنين ، متأهباً بعدته ، وفى يده سيفه ، وعليه لباس القتال .. وقال له كأنما ينطق بلسان أبيه :

« يا أمير المؤمنين .. إنى طوع أمرك فرنى بما شئت .. »

فلم تتغير لهجة الشيخ عنها من قبل ، وأجاب :

« بل اجلس يا ابن أخى فى بيتك حتى يأتى الله بأمره .. »

ذاك رأيه الذى التزمه حيال مشورة على حين أراده على التوسل بالقوة لفض الثوار وإعادة النظام ، تقيد به الشيخ حتى آخر لحظة من عمره ، وأراد أن يلزم به مناصريه .. ولكن الحسن كان قد تلقى الأمر من أبيه فوجبت له الطاعة . وحق عليه أن يدفع عمن أبى الدفع عن نفسه وبات منها بمنزلة غريم ! !

٦

أجال عثمان بصره فيمن وقفوا ببابه ، كاملى العدة ، مشرعى الأسنة تأهباً لرد الخطر عنه إن كان ثمة حاجة للكفاح ، وراح يستعرض الوجوه النبيلة التى لم تفسدها بعد الأيام ، فكلها مرايا لهذه القلوب الفتية الصافية التى تخفق فى صدور هؤلاء الفتية الأمجاد .. هذه زهرة هاشم ، نسله الطيب الكريم ، تنم عن قدر ذلك الرجل الأول الذى أصبح ذكرى شذية تعطر التاريخ ، وتعيد الآن إلى الأذهان بموقفها النبيل صور نبله وأريحته . لا قرين إذن له ولا شبيه فى النفوس لهذه المروءة التى أنجبها على الزمن رجالا تعز فى الرجال ، وتقل فى الأشباه والأمثال ، وكفى بهم رفعة دونها تطاول الأعناق والجباه أن كان منهم سبطا رسول الله ..

ثم أدار فى عقله خواطره .. ها هو الموسم يقبل ، والناس يتهيأون فى المدينة وفى بلاد الإسلام للخروج لبيت الله الحرام . والأمة كلها توشك أن تمضى إلى مقام إبراهيم . والشوق يملأ قلبه أن يسير فى طليعة الركب فيزور دار الهجرة ودار دين الفطرة القويم . ولكنه الآن خاصمه يومه وتبدل قومه . وأصبح من بيته فى قيد حديد لا يستطيع معه أن يبرح إلى قريب أو إلى بعيد ..

وأعاد عينه ترمق الفتية ، وتمر بالوجوه النبيلة التي أحالها غضبها من أجله وجوه أشبال ، وبالعيون النقية التي انعكس في صفاتها لهب الغيرة عليه وتلونت نظراتها بإشراقه . وبالأجساد القوية التي بدت لطرفه رماحاً .. داره الآن كعرين بدر ، تلك الجنة التي أشرف منها على المعركة رسول الله ، وقام أصحابه حولها يدافعون عنه .. فياالطوباه اليوم وهو بمرين يذود عنه حفدا رسول الله ..

وهفت للذكرى نفسه . وغامت عينه برقائق دموع ، ولكنه سارع فرقأها ليفرغ لما جاء فيه . فما عاد ثمة وقت يجوز أن يضيع .

ونادى بصوت رقيق بين الجميع :

— يا عبد الله .. يا عبد الله بن عباس .

فانطلق الرجل إليه خفيفاً ليسمع منه .

— لبيك يا أمير المؤمنين ..

— اذهب أنت على الموسم يا عبد الله .

فاعترضه دون إمهال وهو يشير بسن سيفه إلى خارج الدار :

— والله لجهاد هؤلاء يا أمير المؤمنين أحب إلى من الحج .

— بل نشدتك الله أن تنطلق . إني قد استعملت خالد بن العاص بن هشام على مكة ، وقد بلغ أهلها ما صنع الناس فأنا خائف أن يمنعوه الموقف فيأبى ويقاتلهم في حرم الله وأمنه . فرأيت أن أوليك .

وبعث معه بكتاب ليقرأه بالموسم عسى أن يعطف عليه القلوب فيقدم الناس من مكة ناصرين . وخرج ابن عباس يلتمس علياً لينبئه ويستأذنه في السفر والقيام بالمهمة الموكولة إليه . والقوم إذ ذاك خارج الدار قد أوهى جلدهم تواتر الأخبار بوصول الأمداد من الكوفة والبصرة والشام . كانوا يديرون الأمر في أخلادهم فلا يستطيعون أن يجدوا حلا ينقذهم من النازلة التي أوشكت أن تدهمهم وهم على الوعد الذى قطعه لهم عثمان من زمان طويل ، وهو على النكث الذى أصر عليه ... فلقد ظل الشيخ معانداً أبداً

لا يستمع لنصح راشد . ولا لمشورة أمين . ولا يعمل من جانبه لفض هذه الفتنة التى همت أن تسيل فيهـا الدماء وقاربت أن تفرق أمر الإسلام . بل استكان لتلك الطغمة الخاسرة من ذويه حتى قال على — ذلك اليوم — فيه :

« ... ما يريد عثمان أن ينصحه أحد . اتخذ بطانة أهل غش ليس منهم أحد إلا قد تسبب بطائفة من الأرض يأكل خراجها ويستذل أهلها ... »

فقال ابن عباس وليس يسعه فى هذا المقام إلا الاسترحام :

« فلو رأيت أن تقوم دونه يا أبا الحسن ... فإن له رحماً وحقاً . . »

فتكلمت الرقة فى عينى ابن أبى طالب ، وتكلم الرثاء ... ثم تكلمت معهما قلة الحيلة بعد ما بذل فى استصلاح شأن الأمير الذى نفـدت معه كل وسيلة .

ومضى عبد الله ، وأوشك أن يخرج من المدينة اليوم كل راغب فى زيارة بيت الله الحرام والطواف بالكعبة الغراء ... وعلم عثمان ومن بداره أن عائشة تتأهب هى الأخرى للمسير لمكة فلعله بعث إليها إذ ذاك يريد أن يستأخرها عساها تستطيع أن ترد عنه الثوار . أو لعل أحداً آخر من أهله أراد أن يرمى بهذا السهم الذى لم يبق سواه ... أو لعل مروان نفسـه وقد رأى القوم يتحلبون للشر وقد أثارهم نبأ اقتراب الأمداد قد أراد أن يعمل على تسكين الناس حتى تفاجأهم الأمداد ... على أى حال لا نرانا نلبث إلا قليلا ثم نجد ابن الحكم يستطيع بوسيلة أو بأخرى أن يغادر البيت الذى ضربت عليه حلقة الحصار ، فيمضى إلى أم المؤمنين ومعه زيد بن ثابت ، يحاولان معاً أن يحملاها على البقاء وعلى تسكين الثوار .

وتصغى السيدة لما يقولان ، وتقسر نفسها على الصمت والسكون حتى يفرغا من الحديث ، ثم لا تستطيع فى نهاية الأمر إلا أن تهتف بزيد فى لهجة ساخرة مبطنة بالاستنكار .

« وما منعك يا ابن ثابت ولك الأساريف قد أقطعكها عثمان وأعطاك من بيت المال عشرة آلاف دينار ! .. »

فبهت زيد ولم يرجع عليها بحرف . وحاول مروان من بعده أن يتكلم فنهرته ، وأشارت له بالقيام ..

ونهض الرجل من مجلسها مستاء . وألقى حديثها العنيف بقلبه مرارة ارتدت خلال حلقه فهمهم بكلام وهو يهم بالخروج ..

ولكنها سمعته بأذن المرأة التي لا يعز عليها سماع الهمسات .. فما أسرع أن صاحت به :

« يا ابن الحكم .. أعلى تمثل الأشعار ؟ .. قد والله سمعت ما قلت. أتراني في شك من صاحبك .. والذي نفسي بيده لوددت أنه الآن في غرارة من غرائري مخيط عليه فألقيه في البحر الأخضر !. »

ولكنها حين خرجت فرأت كيف اشتد أمر الثوار خشيتهم على الشيخ وامتلأت نفسها بالرثاء له إلى جوار سخطها عليه .. فلم تكن لتريد له ذلك المصير المخوف الذي بات منه على قيد ساعات ، لم تكن تريد أن يراق دمه وإن جاهدت طويلا لتخرجه من أمره بعد يقينها بأنه أساء السيرة في الأمة ولم يعطها حقها عليه .. غير أنها — مع ذلك — لم تستجب لرغبة مروان في البقاء حين عاد إليها يقول :

« يا أم المؤمنين .. لو أقمت كان أجدر أن يراقبوا الرجل .. »

فأجابت . وهي تحاول أن توائم بين السخط وبين الرثاء :

« أتريد أن يصنع بي كما صنع بأم حبيبة ، ثم لا أجد من يمنعني ؟ .. لا والله ، ولا أعير ، فلست أدري إلى ما يسلم أمر هؤلاء ... »

ثم رحلت عن البلدة ، كما رحل غيرها من كبار الرجال ليكونوا بعيدين عن مهد الفتنة . فلا حقا نصروا وقاموا فيه ولا باطلا ناهضوا وأعانوا عليه . ولكنهم فروا من الميدان تهيبا من الكفاح ، وتركوا الخليفة المهيض الجناح لا يجد من يحمي ظهره أو يكفكف عنه ، بل هم في غالب الأحايين كانوا قد ألبوا عليه من البدء لغاية عامة أو لغرض خاص وفي حسبانهم أن تسير الأمور على ما يشتهون ، فلما أن رأوا زمامها قد أصبح دونهم في أيدي

الثوار توارروا عن الأعين عسى أن تنام عنهم الظنون .

سار بها الركب حتى شارف الصلصل فلقيها هناك ابن عباس وهو يشق طريقه إلى قبلة الإسلام ••• ورأى لزاما عليه أن يتقدم فيحييها ، فإذا بها قد نسيت رثاءها لحال عثمان ورقتها له حين غادرت المدينة ، وهى طعمة سائغة بأيدى محاصريه ، ونسيت أيضاً استرحام مراون ومازالت كلماته فى سمعها ندية لم تطل عليها الأيام ••• وأقبلت على الزائر توغر صدره على الخليفة ، وتدعوه كسابق عهدها مع سواه للتأليب عليه .

قالت له تخاطبه :

« يا ابن عباس ••• أنشدك الله — فإنك قد أعطيت لسانا إزعيلا — أن تخذل عن هـــذا الرجل ، وأن تشكك فيه الناس . فقد بانت لهم بصائرهم وأنهجت ، ورفعت لهم المنار . وتحلبوا من البلدان لأمر قد جم ••• وقدرأيت طلحة بن عبيد الله قد اتخذ على بيوت الأموال والخزائن مفاتيح . فإن يل يسر بسيرة ابن عمه أبى بكر ••• »

فما أسرع أن أجابها على الأثر ، كأنه علم خلاصة عرضها فأعد له الجواب من زمان طويل :

« يا أمة ... لوحدث بالرجل حدث مافزع الناس إلا إلى صاحبنا ! ... »

واكتفى بهذه الاشارة القصيرة التى تغنى دلالتها عن كل بيان . وأحست بحرارة الخيبة وقد كانت تطمع فى نصرة ابن عباس ووقوفه إلى جوارها للكفاح من أجل الهدف المرموق الذى ترجوه . وبان لها هى المنار ووضح السبيل الذى سوف تسير فيه رغبات الناس ! ... فما هم إذن بناصرى صاحبها ولا بمجمعى رأيهم عليه . وليس المال أداة الترجيح فى هذه الحال ، ولكنها مزايا وصفات دون أثرها الفعال إغراء المـــال . أفئن دهم الأمر لن يفزع الناس لغير على ؟ ... لغير غريمها القديم الذى لا تملك إلا أن تضيق بسماع اسمه فضلا عن ضيقها به ؟. لودت فى هذه اللحظة أن تكشف عن دخيلة نفسها نحوه أمام ابن عمه ... وأن

تذهب فى إطفاء موجدتها عليه إلى المدى الذى يستطيعه لسان ناطق عن قلب حانق ... فما نسيته قط منحرفا عن شد أزرها إبان قصة الافك ، ولا منافساً خطراً أراد أن يتزأباها خلافة الإسلام ، ولا شريكا لها فى حب زوجها يأخذ بعض نصيبها من قلبه الجدير بأن تضن به على غيرها من نساء ورجال ... إنها المرأة الخالدة ! .. إنها ذات الطباع والخلال والميول وإن هذبها كساء زوج الرسول ! .. وهل المرأة إلا أهواء ؟ ..

وفى هـدوء يخفى ماثار بصدرها من الضيق وشعورها بالخالان ، هتفت ترسم نهاية الحديث ،

« إيها عنك !. إنى لست أريد مكابرتك ولا مجادلتك .. »

وانطلقت بالركب إلى غايته : وانطلق كذلك عبد الله ليتاو على أهل مكة ومن حضرها من حجيج رسالة عثمان :

«... وجئت نسوة النبي حتى كلمتهن ، فقلت ما تأمرننى ؟ . فقلن تؤمر عمرو بن العاص وعبدالله بن قيس ، وتدع معاوية فإنما أمره أمير قبلك، فإنه مصلح لأرضه راض به جنده . واردد عمراً فإن جنده راضون به ، وأمره فليصلح أرضه . فكل ذلك فعلت . وإنه اعتدى على ... كتبت إليكم وأصحابى الذين زعموا فى الأمر استعجلوا القدر ، ومنعوا منى الصلاة ، وحالوا بينى وبين المسجد ، وابتزوا ماقدروا عليه بالمدينة .. كتبت إليكم وهم يخيروننى إحدى ثلاث : إما يقيدوننى بكل رجل أصبته خطأ أو صواباً غير متروك منه شيء ، وإما أعتزل الأمر فيؤمرون آخر غيرى ، وإما يرسلون إلى من أطاعهم من الأجناد وأهل المدينة فيبرأون من الذى جعل الله لى عليهم من السمع والطاعة . »

ومع ذلك فلم يكن الشيخ قد أرضى حقاً الثوار وفعل كما أشاروا عليه ، بل هو أنف أن يخضع لمطالبهم ويستجيب لها ... وحتى عمرو بن العاص لم يكن رده بل بقى بعيداً عن الإمرة التى اختارها له .. ولو أن امرءاً فى هذه اللحظة التى قرئت فيها رسالة عثمان استطاع أن يقطع الأطوال والمسافات

فى لحظات ، لوسعه أن يرى ابن العاص جالساً بقصره العجلان بناحية السبع من أرض فلسطين ، بعد أن ألب الناس على عثمان فى المدينة، و بعد أن راح يؤلب نفوس من يلقاهم بأى مكان وبكل مكان ، وبعد أن غادره محصوراً ببيته تهم به زمر الثوار . . . لو أن امرأ شاهده بمجلسه إذا ذاك لرآه شديد اللهفه على مصير الأمير ، لاعن خوف من خطر دائم أن ينزل به ، وإنما تعجلا لهذا الخطر أن ينزل ... يستطلع كل ركب يمر به فيقول :

« من أين قدمتم ؟ »

فإذا جاءه جواب السؤال : « المدينة » قفز قائماً وسأل بلهفة وفضول :

« وما فعل ذاك ؟ »

« تركناه محصوراً شديد الحصار ... »

هنا يطمئن باله ويهدأ خاطره ، ثم يهتف بغبطة ومباهاة :

« أنا أبو عبدالله ! .. قد يضرط العير والمكواة فى النار ... »

ثم لايمضى به سوى قليل حتى تأتيه الأنباء بمشتهاه ... فما انقضت بضعة أيام قلائل ، حتى جلس هـذا الحاقد الموتور نفس مجلسه ، بقصره ذاك ، وقد أحاط به ابناه — محمد وعبد الله — ومعهم سلامة بن روح الجذامى ، ومر بهم إذ ذاك ركب راح عمرو يسأله كعادته حتى جاء الجواب الذى فيه شفاء نفسه :

« قتل ! »

فلعله أوشك على الأثر أن يطلقها صيحة ابتهاج ... ثم قال يفخر بموقفه من الشيخ ، ذلك الموقف الذى أثمر انتصاره على غريمه بعد طول اصطبار :

« أنا أبو عبد الله ! .. إذ حككت قرحة نكأتها ! »

وتريث هنيهة يجدد فيها زهوه ، ثم أردف يقول :

« ... إن كنت لأحرض عليه حتى إنى لأحرض عليه الراعى فى غنمه برأس الجبل ... »

ولقد صدق فيما قال . فلقد فعل ، ولقد ألب المدينة على عثمان ، وألب

صحبه . ومضى يعترض الحاج فيخبرهم بما أحدث الخليفة ويحرضهم عليه ... صدق ابن العاص وملأ الأرض والفضاء بالدعوة إلى الخلاص من عثمان ... حتى إذا أينع ثمره ، وقتل الشيخ ،وسالت دماؤه المسفوكة ، قام هو نفسه لا يأخذه تلوم ولا استحياء ، وقد سل حسامه ليطالب بدم الخليفة المظلوم عثمان ! . .

ولكنها نفس ابن النابغة التى تبيح المحظورات حين تشاء ! وهى صورة صادقة لكثيرين من معاصريه الذين لا نحسبنا مستطيعين تخيل حال نفوسهم قبل الإسلام عادامت هذه أحوالهم بعد تمالثمة الهادية الغراء ... ولعل ما يملأ نا اليوم بالدهشة قد ملأ بعضه إذا ذاك قلب الجذامى ضيف عمرو ... فقد بهت الرجل حين سمع حديث صاحبه ، وأخذه العجب ، وهتف به فى استنكار :

« يامعشر قريش . إنه كان بينكم وبين العرب باب وثيق فكسرتموه ، فما حملكم على ذلك ؟ . . »

فما وجد ابن النابغة من جواب يحضره إلا التمويه والتمسح فى الحق فقال :

« أردنا أن نخرج الحق من خاصرة الباطل ، وأن يكون الناس فى الحق شرعاً سواء ... »

أما المدينة فقد باتت بعد خروج عائشة هشيما جافا ينتظر الشرر . الناس فيها على الأهبة ، والقلوب متحفزة ، والسيوف مشرعة ... وكان زيد ابن ثابت قد راح ينشد فى الأنصار مالم يفز به عند أم المؤمنين . وأطمعه فى مناصرتهم إياه أنهم قومه . ولكنهم قعدوا عنه ولم يجيبوه،بل ركبوه بالسخرية وعرضوا به . وكان الجواب الذى لقيه منهم تكاد ألفاظه تكون صورة أخرى من رد عائشة عليه ، كأنهم والسيدة كانوا على اتفاق :

« تريد أن ننعمه ؟ . . . فما يمنعك يازيد أن تذود عنه وقد أعطاك عشرة آلاف دينار ، وحدائق من نخل لم ترث عن أبيك بمثل حديقة منها !؟ ... »

ووضح اليوم مدى الخذلان الذى أصابه الشيخ لدى كلا الطائفتين :

المهاجرين والأنصار . وعظمت الفتنة ، واشتد الأمر وإن بقي مروان كدأبه ينتظر أن يغير وصول الأمداد اتجاه الريح ...

ولقد جاءت أخيراً لحظته المرقوبة ، اللحظة التي ملأت قلبه ابتهاجاً ونفسه طمأنينة وثقة وردته كسالف عهده رجلا يستطيع أن يزهى ويتيه على الناس ... وصلت الأمداد ... جموعهم من الشام في طريقها الآن ، وجموعهم من البصرة تكاد أن ترى المدينة رأى العين . فقد نزلوا بصرار ولم يعد يفصلهم عنها إلا مسيرة ساعات .. لا تكاد ليلة واحدة تمضي حتى يكونوا طوع أمره وتصلى بنارهم زمر الثوار ! . .

وفزع الناس ، وانطلقت جموعهم صوب الدار ، وأحاطوا بها من كل جانب ينادون عثمان وقد ملكهم الغضب عليه . فقصة الأمداد لم تعد شائعة تجول بالخواطر المضطربة وعلى الألسنة اللاغطة ، بل أصبحت حقيقة توشك أن تدهمهم ببلاء ...

وانفلت من بينهم شيخ مهيب . طالت به أعوام عمره ، فتقدم الصفوف ، ونادى بصوت رافع جهير :

« يا عثمان ... يا عثمان بن عفان .. »

فأقبل الخليفة على النداء ومعه طائفة من أهله ومواليه . وتطلع من أعلا داره يشرف على القوم ، ويجيل عينه في الجموع الزاخرة تحته لا وفاق إذن اليوم ... ذهبت اللحظة التي كان يستطيع فيها أن يسيطر على عواطف الناس!.. جاوز ركب الأحداث ركب تفكيره وتخلف هو وحده عن الزمن السباق !.. وتطاير . وتمدت عنه ثقته بنفسه وثقته بغيره ، فلم تعد الوجوه التي يطالعها الآن تنبيء عن خير ...

وعاد يسدد بصره إلى حيث جاءه الصوت . وتفرس طويلا في هذا البحر الزاخر من العيون التي أوشكت أن تغرقه بنظرات السخط ، ومن الوجوه التي اكتست نقاب الغضب الفوار . . وتبين أخيراً بينها صاحب النداء ، فهتف بصوت أراد له الثبات فخذله ووشي بسوء ما يعانيه :

« نيار الأسلمى ! ... »

أجل نيار ، صاحب رسول الله ، قد أقلقه ما أصاب أمته من اضطراب ، وخشى عليها الفتنة ، وأوشـــك أن يرى الفرقة دانية منها تهم أن عزق وحدة الإسلام ...

« اتق الله يا عثمان ! »

« فما تريد يا نيار ؟ »

كف عنا وعن نفسك البلاء ، واخلع عنك ما ألبسك الناس ، وقل هذا أمركم فاختاروا له أيها الناس ...

لم تبق وسيلة إذن إلا الاعتزال ؟ . . . لبئس ما أشـار به الرجل وأشار الثوار !.. ومع ذلك فهل من سبيل إلى اعتزال إمارة يؤمن عثمان أنها أمر له من عند الله ؟..

وغضب الشيخ . وعز عليه أن يكون شأنه على قومه بمثل هـذا الهوان . وانطلق يجادل صاحبه ويعنف به ؛ ويعنف بالناس فى المقال . ومضت لحظات على الجمع وهو صامت منصت ليرى ما سوف يسفر عنه هذا الجدال . . .

فإن هى من بعد إلا لحظة خطفت كالبرق ثم اختفت كومضة ، تلفت القوم على أثرها مذعورين ، ثم سيطر عليهم وجوم رهيب .

ثم دبت الحياة فيهم بغتة . وأقبل بضعة منهم على صـــاحبهم الطريح . يكذبون العيون ويقلبون جسده الهامد مشدوهين ، ولـكن نفسه فارقته حقاً . وانطوى سجله فى الدنيا فلم يعد ثمة نيار ... لشد ما أسرع به حينه ، كأنه السراج نفخته الريح !.. مضى إلى مصيره المحتوم فى لمحة ، وانتهى عهـــده بالأرض وإن بقى عليها جثمانه ، وانقطع ما بينه وبين الحياة إلا جرحا ما زال يتنفس ويلفظ بقايا الحياة ... فهذه دماؤه ما برحت تنزف وتسيل تحت الأقدام تخالط الحصى والتراب ..

— عادوا إلى الوعى ، وانتبه فيهم وحش الغضب على رائحة الدم المسفوك ؟ . إنهم لا يعرفون أى العصبة المجتمعة فوق الدار قد أصماه . لا يذكرون من

مصرعه إلا أن سهماً لمع فى الجو وحجراً ضخماً قد انقض ثم انطرح الصريع .. وتحركت جموعهم كوجة صوب الدار . وعلت أصواتهم المهتاجة كأن الأرض تحتهم أضحت غابا يمج بزئير أسود ...

وبهت عثمان . وتلفت ترمق عينه أهله ومواليه وفيها نظرة حرج ونظرة إنكار . فما كان يقر هذا الغدر أو يرجو أن يتناول الأمر بمثل هذا الأسلوب . وتصايحت تحته الجموع تطلب أن يعينها على القاتل ويسلمها إياه . فليس ثمة صراع يمكن أن يستباح فيه هذا الدم الحرام ، ولا زاد نيار عن إزجاء رأى ظنه يحسم الشر وينتهى بالفتنة الناشبة إلى أحسن انتهاء ...

وتردد عثمان وهو يصغى إلى الزئير المهتاج . وملكت نفسه رهبة هذه الفترة العصيبة الحرية بأن يفلت فيها زمام الجماهير من كل قائد وأمير . ولكنه عالج هيبة الموقف بإظهار العزم والتوسل بالكبرياء والصلابة . وبقى هادىء الوجه يجيل طرفه فى الناس ثم يرده إلى العصبة الملتفة به لعل أحدها أن يشير عليه . ولكن أفرادها جميعاً آثروا السكون ، وتركوا الخليفة وحده يواجه الأمر حسبما يستطيع أن يسعفه جنانه ، ويزوى لسانه .

قال عثمان للجموع برنة قليلة المبالاة فيها مروءة وفيها كبرياء :

لم أكن لأقتل رجلا نصرنى وأنتم تريدون قتلى ...

فسرعان ما تلهب غضبهم كما تلقى زيتاً على النار .

وتأهب الفتية الواقفون بالباب . وأشرعوا الأسنة فى وجوه من عسى ستحدثهم نفوسهم لاقتحام الدار إلى الأمير الشيخ ... وعصف القلق بنفس عثمان . وسرى منه إلى العصبة الملتفة به وهى توشك أن تلمس الخطر الوشيك النزول ... ولكن رجلا منهم كان راضى النفس ، بقى وحده ناعم البال فى هذا العباب المصطخب الفوار ثم انثنى يتسلل من بينهم فى هدوء ، وقد ومض ناظراه بلمعة انتصار وأوشكا أن ينما عما بقلبه من شماتة بالقتيل وأصحابه الغضاب . وكانت بسمة غامضة تلعب بشفتيه تخفى خلفها كل عاطفة ثم لا تخفى مطلقاً معانى الاشتفاء ... أفهو يا ترى الذى قدر الحساب ثم نفذ

فأصاب ؟ ... أ كانت الخطة حقاً من نتاج تدبيره ؟ ... ألاح له شبح النصر من وراء الأمداد التي باتت على مسيرة ساعات فهان عليه الآن ما كان يخشى من بطش أعدائه مناجزى عثمان ؟ ... أ أراد أن يتعجـــل ساعة الجلاء فأوحى لمن ألقى في الميـــدان بأول سهم ليـكون البادىء بإراقة دم ؟ ... كلما سار المرء بذهنه خلال هذه الفترة استطاع أن يوسع فيه لـكل هذه الفروض التي لا تغاير طبيعة مروان . أجل مروان ... فما نحسب غيره كان وراء هـــذا الغدر وهذا العدوان . وحسبنا حماقته المشهور بهـا لتقرن به فعلته تلك . وحسبنا الرغبة الملحة التي كانت تسيطر عليه وتدفعه دائماً إلى التزام وسائله الخاصـة في الغدر ومجافاة الوفاء . وحسبنا تلك الخشية التي أقضت مضجعه وتركته حليف هم وهو يرى كيف هدفت ثورة الثوار إلى تجريده من جاه المنصب وأبهـــة الحـكم ... ليوشك الزمن أن يطالعنا بصور شتى من أسرته الأموية التي لا يقف بها خبث الذرائع والمقدمات دون بلوغها المقاصد والغايات .. ليوشك بين عهد وعهد أن يكشف لنا في سجلهم عن ألوان الغدر تزرى بكل إثم ووزر وإذا كان الأمس قد كشف لنا عن هند ووحشى العبد الحبشي تدفعه ليصمى أسد الإسلام ، فإن اليوم انـكشف عن مروان وعتيقة أبى حفصة اليمانى يدفعه ليصمى داعيـــة السلام ... ثم لعل الغد لا يعجز من بعد عن مطالعتنا من هذه الصور البغيضة بأمثال وأمثال على تعاقب الأجيال .

٧

ثبت الفتية الواقفون بالباب فلم يرعهم الموقف ، ولم يذهلهم حماس الثـوار عن مراسهم وشـكيمتهم ، بل ألفوا بالرماح والسيوف سوراً دونه الحتوف ، لا يكاد يقترب منه جمع حتى يتفرق ، ولا ثائر هائج حتى يعيده إلى وعيه خيال حينه . ووقفت الآلاف المجيشة دون اقتحام الدار .

وبدا مروان من قريب ، على وجهه سمات اعتزاز ، وفى عينيه نظرات تهاون وبيده سيف مصلت حديد السنان ، يتيه به ، ويدل بقدره وحسن بلائه كأنما يحله الحسام ملاك الحمام يوشك أن يفرقه على أخصامه كما يشاء ، ثم راح يرتجز ويقول :

قد علمت ذات القرون الميل والكف والأنامل الطفول.
أنى أروع أول الرعيل بغارة مثل قطا الشليل .

فما رآه عثمان حتى سارع إليه يحول بينه وبين ما يريد ، ويجذبه من ردائه ، ويناشده ألا يزيد فى استعار النار .

« اجلس يا مروان . »

« يا أمير المؤمنين ... »

« اجلس فلا أراك تخرج . »

« والله لا تقتل ولا يخلص إليك وأنا أسمع الصوت . »

ثم انفلت خفيفاً إلى الباب يعيد ارتجازه ، بنفس اللهجة الساخرة ، وبنفس النظرة المستهترة ، وسيفه يكاد أن يمس العيون التى ودت نظراتها الملتهبة أن تحرق كيانه المقيت ، وهو لا يكف عن تحديه إلا حين أخذ يهتف فى خيلاء :

«رجل رجل أيها الناس ! . ألا من يبارز ؟ . »

وخطر أمامهم فى تيه وتجبر ، فما وسع القوم إلا أن يضيقوا بصلفه . وغلبت عليهم الحمية فأنشبوا القتال . وانطلقت جموعهم كالسيل المتحدر صوبه إلى ناحية الباب ، وكان ابن عديس قائماً إلى قريب يسند ظهره بمسجد الرسول ويشهد الأمر عن كثب ، فما رآه وسمع تحديه حتى أشار بهدوء إلى فتى من أعوانه وقال :

« قم إلى هذا الرجل يا غلام . »

فاستجاب للأمر شاب طوال مديد القامة ، أسرع فتمنطق بدوعه ، وسل حسامه ، ثم مضى إلى مروان .

وكأنما رأى عثمان الخطر الذى يجثم وراء هذا التحدى ، والمصير القاتم

الذى ينتظره وينتظر أهل بيته غب المبارزة . فلا الناس مردودون إن أصاب صاحبه واحداً منهم ، بل هم أولى بأن تفيض بهم فورة الغضب وحمية الثأر فينقلبوا إلى الدار كحمم النار ، ولا هم إن فازوا بمروان غير طامعين بعده فى الظفر بمن عداه . هذا خاطر كفيل بأن يجول إذ ذاك بذهن الشيخ فيبصره بعواقبه ويرده إلى اصطناع الحذر قدر ما يستطيع . ولقد انكشف له من خلاله مصير ليس يحمد معه السكوت فهم يحاول درأه ، ويعمل جاهداً على الخلاص منه قبل استفحال الأمر . ولكن الحمية المروانية — أم الحماقة ؟ — كانت قد تناولت وحدها الزمام ووجد الناس فيها جسراً للعنف فعبروا عليه . فإذا الموقف فى لحظات قليلات ينتكث فيقابل الكيد بالكيد ، والصمام الذى حكم حتى الآن بغضاء الثوار يفسد فلا يمسكها شىء .

الحماقة المروانية أرثت النار النائمة تحت الرماد ، ودفعت الناس فى ركاب الأحقاد . فما رفع الرجل سيفه فى وجه الثوار حتى فتح على نفسه وصحبه باباً للفتنة ليس ثمة من يستطيع أن يسده اليوم ، وانطلقت الجموع إليه مشتعلة النفوس تزأر وتصخب ... وتنادت من كل جانب تطلب الثأر ، وتطلب قبله الظفر بالشيخ الذى جرأ هكذا عليها صاحبه ، وركب حقها — الذى طالما أقر لها به — بباطله الذى أبى إلا الإصرار عليه ... أما عثمان فقد أوشك صوته أن يضيع فى ضجة المكان وهو يصيح بحواليه :

«من أغمد سيفه فهو حر أيها الناس ... نشدتكم الله ... من أغمد سيفه ... »

ولكن حماسة الجلاد أصمت دونه الآذان ، وراحت طوائفهم تتبع الفتية القلائل الذين وهبوا أنفسهم للذود عنه . ولم تحل النار التى أنشبها الثوار بالباب وبالسقيفة بين كتيبة الدفاع وبين ما أخذت أنفسها بالاضطلاع به ، بل لعلها كانت سياجاً حائلا دون الناس وولوج الدار ... ووقف الحسن فى اللهيب المشبوب يضرب بسيفه ، ويشد أزره صحبه الشبان من أهل بيته

ومواليه وأبناء صحاب رسول الله ، لا ينكلون ، ولا تنبو فى أيديهم السيوف ، وتصايح بهم ثانية عثمان :

« الله الله ! .. أنتم فى حل من نصرتى ... من كانت عليه طاعة فليمسك داره ، فإنما يريدنى القوم ... »

ولكنهم لم يسمعوا له . واستغرق الكفاح وعيهم كله ... حتى إذا رأى الشيخ أن شجاعة الحسن وحسن بلائه ابلاهما أغريا الفتية على الثبات ، أقبل وقد بدت فى عينيه نظرة تقدير وبانت خشيته عليه يناشده أن يكف ليجنب أباه رزأه فيه ، فيقول :

« يا ابن أخى ، إن أباك الآن فى كرب عظيم ... فأقسمت عليك لما خرجت ... »

فما ألقى الفتى بالا إليه ، ولا توقف عن القتال سيفه كأنما كان نذره لرقاب الثور ! . . ولم يقعد به جرحه عن مواصلة الجلاد ، بل هو كان أدعى لإثارة حماسه . ولم يلق الخشية فى قلبه أن أصيب الحسين وأصيب قنبر خادم أبيه وهما ذراعاه والذائدان عنه وعن عثمان فى آن . بل الدم السائل دعاهم داعيه فلبوا النداء ... ومضوا غير هيابين فى قلب المعركة يختلط فى وجوههم العرق بالدماء وهم من النار التى التفت بهم كأنهم فى إتون .

وعسر على الخليفة أن يحسم القتال الناشب . فما استجاب له إلا نفر من مواليه آثروا السلامة مع العتق على المناجزة مع الرق ، ومضى مهموماً إلى حجرته يفىء إلى كتاب الله فيستروح به . وجلس والمصحف بحجره يرتل حتى غاب مع التنزيل فى عالم من الفكر بعيد .

وعسر أيضاً على الثوار أن تفشل حركتهم ، وأن يكون فشلها هكذا على يد بضعة نفر من الفتيان قربوا صدورهم للأسنة المشرعة فأخطأتها ، وقدموا للموت رقابهم فنكل عنها الموت واجتبتهم الحياة . . . وراحت الجموع الزاخرة خارج الدار تجهد الأذهان فى بلوغ غايتها ، وتفرقت هنا وهناك طوائف ، بعضها يجالد الحماة ؛ وآخرون يدبرون وسيلة لإنجاز ملجاءوا

فيه ، وثالثة تعلق الأنظار بهذه الصــــورة الجديدة التي أراد أن يرسمها لهم مروان .

أجل ، كان مروان إذ ذاك قد خرج يصاول ، والتأم سيفه بسيف غريمه الغلام ، وكانت فئة واقفة لا تنشب قتالا قد راحت تلتف بهما لتشهد لأيهما سوف ينعقد النصر ، وتمنى الجميع أن يسقط الخصم المبغوض ، وأن ينزف — مع دمه — صلفه من جرح قاتل يصيب قلبه ، وأن تنجاب المبارزة عن جسده لقى على الأرض لعل نفوسهم أن تشتفى به ، ولكن أمنياتهم هـذه كلها ظللها خوف على غلامهم ألا يكون ندا لهذا الشقى وقد رأوه يدل بسيفه كالواثق من قدره وخطره .

وتصاول الخصمان ، وحسب الناس أن سيشهدوا مبارزة تجل فى النظائر ، وعلقوا الأنفاس من خشية ومن رجاء ، ولكنها كانت لحظة مضت كلمح الطرف تحرك فيها السيفان ثم سقطا ، وسقط بعدهما الغريمان .

وبادر الثوار إلى صاحبهم ، فاطمأنوا إذ وجدوه قد أخطأته ضربة مروان فلم تصب إلا من قدمه ، وأسرع بعضهم إلى غريمهم ليشتفوا منه فأزعجهم أن سيف فتاهم لم يسلبه حياته وإن قطع بعض عنقه . وانطلق إليه على الأثر رجل منهم رأى السلامة فى اقتضائه كل نفس ما زال يتردد فيه .

فسرعان ما أنقذه حسن طالعه كأنما الأقدار أرادت أن تملى له وتبقيه على هـذه الأرض حتى يفرغ كل ما فى جعبة طغيانه ! . بدت فى التو فاطمة ابنة أوس كأنها نبت أطلعته أنفــاس الشيطان ، ووقفت بهيكلها الذاوى لتحمى الطريح وتدفع عدوه . ثم مالت عليه تجره إلى مأمن وتبتعـــد به ، فما كانت حياته لتهون عليهــــا وهى ظئره التى ألقمته فى مهده ثديها فأصبح منها بمثابة ابن .

وصاحت بالرجل الذى عدا خلفها يحاول أن يدفف على الجريح :

« يا ابن رفاعة حسبك ! إن كنت إنما تريد قتـــل الرجل فإنه قتل ، وإن كنت تريد أن تلعب بلحمه فهذا قبيح . »

فكف يده عنه وفى حسبانه أنها صدقته . وردته عن الشق خديعة العجوز . .

غير أن القتال لم يتوقف ، بل تسعر واشتد ، فما صبر رجال عثمان حين رأوا مروان بادىء الأمر يخرج إلى الوطيس ، ولا تريثوا عساه يصيخ لنداء الخليفة . بل انطلقوا عصبة خلفه يحملون على جموع الثوار ، ومضى فى أثره سعيد بن العاص فى طائفة تحاول أن تشق حلقة الحصار . وخرج بعدهم المغيرة ابن الأخنس بن شريق يصول صولتهم . وينضم إليهم بين فترة وثانية من وسعهم أن يغادروا الدار ليظاهروهم ويرجعوا كفتهم ، فما هى إلا سويعة حتى تفرقوا فى الغمار كالقطرات ، ولقوا من شكيمة القوم ما ردهم عنهم فآثروا أن يلوذا ثانية بالدار أو يستخفوا بدروب البلدة من الثوار . وبدا الميدان بعد قليل خالياً إلا من أشلاء فريق منهم ودماء آخرين ... أما الفتية حماة الباب فلم يبرحوا ، ولم تكل فى أيديهم السيوف ، وإنما ظلوا ينضحون عنه كأنما تعاقدوا بأرواحهم عليه ، وجرح سبطا رسول الله ، وشج قنبر مولى على ، وأصيب عبد الله ابن الزبير ، ثم جرت دماؤهم تحت مواطىء أقدامهم كلون اللهب المشبوب فوق رؤوسهم بالسقيفة ، فلا فرقتهم ألسنة النار ، ولا أرهبتهم أسنة الثوار .

وتفكر زعماء الثورة فى الأمر وهم يرون هذه الحفنة من حماة الباب ثابتة لا يفل عزائمها لسع ضرام أو حد حسام . وأوشك اليأس يقعد بهم دون ولوج الدار ، وأوشك أيضاً أن يعصف بقلوبهم القلق من مصير مجهول يكاد أن يفجأهم بعد قليل ، فما نسوا أن جيش الأمداد فى الطريق لا يفصله عنهم إلا ساعات ، وأن أنباء المعركة دخلت الآن كل بيت وهى حرية من بعد أن تخرج سراعاً من المدينة فيلقفها الجيش وينبرى يناجزهم حتى تذهب ريحهم إلى غير بقاء ، وما نسوا أيضاً أن خطراً آخر يكاد أن يدهمهم من داخل البلدة ثأراً لصرعى سيوفهم وجرحاها ، إن قريشاً لن تصبر لهم على إيذائهم رجالها . وإن بنى هاشم قبلها لن يدعوا دماء زهرتهم تجف على الأرض دون أن ينهضوا

لكفاح مريقيها . وإذا ذكرت هاشم فقد ذكر على ووجفت قلوبهم لذكره ، ثم أيقنوا بانتقاض أمرهم عليهم وضياع ثمرة نصرهم هذا وثمرة ثورتهم .

أداروا الفكرة فى رؤسهم فما رأوا غير البدار إلى اقتحام الدار ليحفظوا عليهم نتائج الكفاح . ولكن دون الباب فتية كالليوث الغضاب ، وقفوا يمنعون الخليفة الشيخ من أيدى قدره . وما نحسب عثمان فى هذه الآونة وهو يرتل مصحفه إلا كان هادىء البال إذ أودع أكفهم مصيره . إنه بسيوفهم فى قلعة وإن ولى عنه أكثر أهله ومواليه ، وبصدورهم فى جنة حصينة لا يخترقها أشجع مناجزيه . قد أمن بمجاسه أن يناله سوء وقد سدت السبيل الوحيدة التى يجتازها الخطر إليه .

ولكن النازلة لا يعييها التماس الأبواب والمسالك إذا فرغ الأجل ولم تعد فيه بقية لإمهال . . . فمن مأمنه أتى عثمان . تسورت عليه داره عصبة من الثوار نفذت خلسة من دار جيرانه بنى حزم أولئك الذين كانوا أحيانا يمدونه بالماء حين تضيق عليه حلقة الحصار . وكان إذ ذاك هادىء البال قد استراح إلى مصحفه فوضعه بين يديه وراح مع الآيات فى عالم روحى بعيد عن هرج الناس، وبعد عن الحومة باله ، وفنى فكره فى السطور التى كان يطالعها بصره ، وصفت نفسه فما عاد يشغلها هم دنياه ولا هذا الخطر الذى أخذ يزلزل تحته الدار. فالموت والحياة إبان صفاء الروح سيان ، بل لعله فى هذه الآونة كان جد مشغوف بالرحيل عن الأرض ، يود لو استطاع تعجل قدره واستباق الزمن إلى اللحظة التى ستكون مجازه إلى العالم الأخير ، لشد ما طال عمره فطال به شوقه إلى لقاء الرسول ! وما أبطأ زمنه اليوم من أداة لهذا اللقاء !.. إن روحه لتهفو إلى محمد وتحن حنيناً لم تعرف له من قبل هذه الحلاوة ، وإن قلبه ليكاد أن يثب إلى دار الخلد ويخلف جسده لو استطاع ، وإن سمعه ليستطيب الآن الكلمات القلائل الرقيقة التى سمعها بحلم ليلة الأمس فيستعيدها مشوقاً فتنساب إليه شجية بغير صوت لأنها حديث روح لروح .. هذه هيئة محمد ، تبدو له فلا يراها بعينه فحسب

وإنما يستشعرها بكل كيانه وقد ملأت عليه مسرى أنفاسه ، لا تغيب عن خاطره ولا ناظريه ، بل تلوح له فى فضاء حجرته ، وعلى صفحات المصحف ، وفى حيثما امتد بصره ، ثم لا ينى يسمع منها نفس الدعوة التى أسمعته بالأمس أثناء الحلم :

« ... افطر عندنا الليلة ... »

ومضى فى التلاوة وقد زاده الصوم رقة وصفاء . يتنقل بين السور والآيات ولا يكاد أن يلقى نظرة إلى ما يدور فى الخارج . وأحس بالشغب يقترب منه وترامى إلى أذنه صوت كلام مضطرب كأنه الهمس أخذ رويداً رويداً يبين له ... ولكنه كان مشغولا عنه بما فى يديه . فما كرثه ما سمع ولا نال من هدوئه ، بل طفق صوته يرتل كلام الله .

ووضح الضجيج بعد قليل يختلط بصوت الخطا السائرة فى اضطراب ، وعلت الحركة ، وسادت الردهة خارج الحجرة ضوضاء فيها لغط وفيها وقع أقدام كلها تنم عن طائفة استطاعت أن تقتحم على الشيخ داره وتخلص إليه ، وكلها يومىء إلى الخطر الداهم الذى يوشك أن ينقض عليه . ولكنه فى هذه الآونة كان فى عالم من صفاء الروح ، القرآن فيه حاديه ، قد سار به أشواطاً باعدت بينه وبين الناس حتى نسيهم فلم يأبه لما يبيتوه من شرور ، بل كان هادىء الوجه ، عامر القلب بالطمأنينة وقد بلغ من تلاوته إذ ذاك قول الله :

(... الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيماناً ، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ...)

ثم بدا من فرجة الباب رويجل كأنه ذئب ، صاغ الله وجهه على هذه الشاكلة ليكون مرآة صادقة للغدر الذى ينطوى عليه قلب إنسان ، تطلع بعينيه الماكرتين برهة فى الحجرة ، ورمى بنظرة صفراء إلى عثمان ، ثم ارتد سريعاً كما جاء ، أكان هو يا ترى طليعة الطائفة التى دخلت الدار ؟ .

وفاتت لحظة ، وتبعتها ثانية كأختها فى هدوء . ثم امتلأت على الأثر الحجرة بالجمع الغدار ... ولم يرفع عثمان إليهم عينيه ، ولم ينح المصحف عن

موقعه من حجره . ولم تصمت شفتاه مطلقاً عن التلاوة بل ظل يردد الآيات في هدوء ، حتى حين تعاوروه بالأذى كان كمن غاب عنهم بوعيه وإن حضرهم جسمه . وأقبل بعض نسوة الدار على الضوضاء . وصرخن وقد شهدوا الواقعة فانجفل عنه العادون . ولكن خلفوه هامد الحركة وقد حسبوا أنه فارق الحياة.

ولكنها كانت غشية أفاق منها الشيخ بعد قليل ، فما فتح عينيه حتى دخل عليه محمد بن أبي بكر ... في البدء ظن الفتى — وقد سمع الصراخ — أن عثمان قد انطوى من الدنيا سجله . فلما اجتاز باب الحجرة إليه ورآه معافى ، صاح به وهو لا ينسى موجدته عليه مذ أوشك أن يغري عامل مصر بالفتك به :

« أما أخزاك الله يا نعثل ؟ » .

فابتسم عثمان بسمة مرة ، فقد أوشك في هذه الآونة أن يسمع عائشة بلسان أخيها ! .. ثم قال يجيب الفتى في هدوء :

« ما أنا بنعثل ، ولكني أمير المؤمنين » .

فابتدره محمد بقهقهة ساخرة ، وقال في استنكار :

« فعلى أي دين أنت ؟ .. »

« على دين الإسلام » .

« بل بدلت كتاب الله » .

« كتاب الله بيني وبينك » .

ومد بالمصحف يده وهو هادئ الوجه فأثار غضب الفتى حتى قفز يمسك بلحيته مستهيناً بشأنه ويصيح :

« ما أغنى عنك معاوية ؟ .. وما أغنى عنك مروان ؟ .. وما أغنى عنك ابن عامر ؟ .. إنا لا يقبل منا يوم القيامة أن نقول : ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيل .. »

فما دفعه عثمان ، ولا حرك يده نحوه ، بل قال بصوت هادئ رقيق وعينه تبعث نحوه بنظرة عتاب وحنان :

« يا ابن أخى ، دع لحيتى فقد كان أبوك يكرمها ، ووالله لو رآك لبكانى ، ولساءه مكانك منى ... »

فكأنما الزمن قد ارتد بمحمد إلى طفولته وكلمات الشيخ لم تجف على شفتيه ، انتفض الفتى ، وهزته الرقة التى خاطبه بها عثمان . وبدا كأن عاد ثانية إلى محضر أبيه قبل عشرين عاماً ، طفلا طرى العظام يتهيب مجلس أبى بكر ولا يكاد من حيائه أن يصوب إليه بصره ، لاح كأن أباه اليوم قد امتدت عينه من خلال الماضى فرمقته بإنكار ، وتقبلت فعلته بالزراية الواجبة لكل فعلة تنطوى كفعلها على إغفال التوقير المفروض على الصغار حيال الكبار ، من خلف الأعوام مثل أبو بكر فى خاطر ولده فرده كما كان فى حياته ، يستشعر الرهبة والخشية فى حضرة أبيه ، ويتوقى أن يمد لسانه فضلا عن كفه بما يثير غضبه عليه ، فى مثل اللمح فنيت شخصية الفتى القوى الصخاب فى صورة الطفل الحيى الهياب فغاب عن باله كل جبروته ، ومضى عنه اعتداده بنفسه ، ولم يبق منه إلا الطفل الآثم أمام عينى أبيه وقد كادتا أن تتسمرا عليه .

فإن هى إلا تلك الكلمة الرقيقة نطقها عثمان حتى سلبت الذكرى محمد ابن أبى بكر كل إرادته ، وجاءت بطفل الماضى على جناحها ، ضعيفاً أخزاه إثمه فاخفى وجهه فى كفيه عساه ينأى عن نظرات أبيه الغضبى ، ثم أسرعت به قدماه إلى الباب ودمعه يبتدر ، وقلبه من فرط الحزن يكاد أن ينفطر ، ولقى هناك عصبة تهم أن تخلص إلى الشيخ فتنال منه مالم تنل طليعتهم ، فوقف يسد أمامها المجاز . لقد انقلب الآن غيره بالأمس ، وارتد آخر يستشعر واجباً جديدا نحو عثمان . إن ذكرى أبيه حملته رسالة واجبة الأداء نحو هذا الصديق المخذول فى ساعة المحنة التى عز فيها الناصر وولى الولى الأمين .

جاهد محمد أصحابه ودفعهم عن الباب بعنف أنكروه منه وملأ نفسهم بالعجب قبل الغضب . ولكنهم ما كانوا ليدعوه يحرمهم ثمرة جهادهم وهى دانية فهد الأنامل . أو يركنوا إلى النصح الذى محضهم إياه إذ ذاك وإن عرفوه

من قبل ثائرا كمثلهم يمنى بنجاح خطتهم كمثل عنايتهم ، ولـكن المداورة التى انتهجوها بادىء الأمر حياله لم ترده عن عناده ، بل جعلته أشد مراساً وأصلب شكيمة كأن أبا بـكر كان على رأسه إذ ذاك ! .

غالبهم الفتى ما وسعه ، وردهم عن باب الشيخ الذى أقدموا يحملون له الموت فما أغنى غلابه ولا كفاحه ، وما أغنى عنه ندمه أو حياؤه اللذان سددا تصرفه فى هـذه الآونة التى كان القدر قد أتم فيها رسم طريقه إلى مصير عثمان ... فقد ظفرت العصبية أخيراً بما شاءت ، وغلبت محمداً على موطىء قدميه ، ثم جاوزت الباب إلى الخليفة المستسلم لقدر الله .

وبدأت فى التو المعركة التى سادت فيها فوضى الجمهور ، ليس يسيرها عقل ، ولا تمسكها حكمة ، الحيوانية البشرية وحدها هى التى كانت تعمل ، والهمجية الرابضة فى نفس الإنسان استوت مارداً عاتياً يشبع شهوته من الحقد والضغن والانتقام ... لـكأن كل واحد من أولئك الثلاثة عشر الذين اقتحموا على الشيخ حجرته كان شيطاناً لم يعرف قلبه طعم الرحمة ، ولم يستشعر مطلقا عاطفة نبيلة جرت فى جنبيه ، بل انطلق بهم جميعا الغل إلى غايته حتى لودوا لو كان منهم مائة كف فى كل كف مائة حربة ، لـكل حربة ، مائة ذؤابة يطعنون بها الخليفة الأعزل ! .

كان الشيخ مأدبة لذئاب نفوسهم المهومة ! . أهوى عليه أحدهم بحديدة ، وعاجلة ثان بلـكزة من نصل حسامه ، ووجأ ثالث بمشقص فى ترقوته ... فلما هاض وأوهى قوى لم يهاود ، ولم تأخـذهم الشفقة بضعفه ، بل أمعنوا فى قسوتهم كأن لون الدم الذى أخذت تلفظه جراحه زاد وحشيتهم ، وتعاوروا عليه بكل أداة ملـكتها أيديهم ...

ثم جاء رجل قد أفرغ من قلبه الإيمان فتقدم بسيفه إليه ، وضرب المصحف برجله فأطاحه ... وحز الألم فى قلب عثمان وقد رأى قرآن الله يمتهن هـذه المهانة ، وعز عليه ان يدعه لقى فوق الأرض فجهده وسعه ليلتقطه . فإن هى إلا

حركة دارها النصل حتى انفصلت الأصابع الراعشة عن كفها ، وسقطت تنتفض إلى جوار الكتاب .

وألقى عثمان عينا دامعة على سلامياتة الملقاه ، وعض على شفتة من فرط وجعه ، ثم رفع إلى جلاديه وجها يفضح بألمه العميق ، وهمس بصوت خافت لاتكاد أن تلقفه الأسماع وهو يهز أمامهم كفه البتراء :

« أما والله ... إنها لأول يد خطت المفصل ... وكتبت آى القرآن ... »

وأقبلت نائلة على الأثر ولهى ، تحاول أن تحاجز بين زوجها وبين عداته ، حتى خلصت إليه ... واحتوته فى صدرها كطفل وهو ينوء ، وأكبت عليه حين سقط فسترته عنهم ، وجعلت من جسمها درعا تقيه ، ورأت سيفاً يلمع نصله كالشهاب فوق رأسها ويهم أن ينقض على الشيخ فسارعت بكفها تتلقاه وتدرأ ضربته الصاعقة عن زوجها المهيض ، ولكنها لم تغن شيئاً عنه فى النهاية بل لقداندفعت من الغرفة تولول ويقفوا أثرها خيط من الدم الذى نبع من منابت أصابعها المقطوعة . . . ومضت لاتتبين طريقها بعد أن خلفت عثمان هامد الأنفاس ، قد نال جلاده الوطر وإن بقى يتمتع نفسه بالمثلة كما يشاء ، ويضع السيف فى البطن المبقور ، ثم يتكىء بصدره على مقبضه ليغوص فيه النصل كله ، كأنما أراد أن يسمع قرقعة عظام ظهره وهى تتقصف تحت وطئه كقطع الخاف .

وقضى الأمر ، وانطوى سجل عثمان .. وبدت الحجرة بعد قليل فارغة إلا منه إن بقى من جسده الشائه ما ينبىء عنه ، وكان الدم لازال دافئاً لما يبرد ، سيالا يفيض من جراحه ، ويتحدث بلسان صامت عن الهمجية التى لم تستأصل جذورها من النفس البشرية قوة دين ركين ناشىء لم يجف بعد المداد الذى كتبت به تعاليمه ! .. فلقد رقد المصحف بجوار الجثة غير بعيد منها ، عنوانا على السلام الذى أراده الله ورسمه فى آياته للانسانية ، إلى جانب الوحشية التى أبت إلا أن تنضح عنها النفس البشرية ، حتى المصحف المقدس أصابه من عنت الإنسان بلاء ، ومن كفرانه اعتداء ... ولكنه فى صمته كان أبلغ من كل حديث يستطيع

أن يصوغه ناطق مبين ، فلقد حدثت فى هذه اللحظة آية لمن أراد التماس العبرة من هذه القصة الفذة فى العدوان ··· كان دم الخليفة لايبى ينبع وئيداً من جراحه ، وينطلق قليلا قليلا فى نفثات كأنفاس النزع ، ويتجمع قطرات تلساقط على صفحة مفتوحة من الكتاب ، حتى إذغاض النبع ، وجمدت الجراح وجف سيل الدم المراق على الآيات ، بدت هى من تحته مكتسية لونه ، حمراء قانية كأنها تومىء إلى غضب الله الساهر الذى لا ينام ، فتقول بغير لسان فى أوضح بيان :

« فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم »

ونفذ القاتل — وسيفه مازال يقطر من سنانه دم الخليفة الشهيد — فاندفع فى غمار الثوار ، على وجهه سمة الذئب المرتوى من دم فريسته ، وفى عينيه بسمة شماتة كريهة ، وبقلبه قد استراح وحش الغدر وطاب مهده ··· مازال يتفرس فى الوجوه المتطلعه نحوه ، ويحث خطاه بين الجموع ، ويشق طريقه غير مبال بما يثيره فى النفوس مظهره المريب إذ يصيح :

« قتل عثمان ! · مضى الرجل أيها الناس ، فأين طلحة بن عبيد الله ؟ »

ولكنه لم ير طلبته ، ولم يستطع أن ينبئه الخبر الذى كان يزجيه كالبشرى السارة ··· فقد غاب عن الحومه طلحة ، وانزوى بعيداً حتى لاتلصق به الشبهات ، ففاته أن يشهد بعينيه الثمرة التى طالما تعهد غرسها الخبيث .

·· وغام ضوء الحجرة مسرح المأساة ، واخذ لون السماء خارجها يتحول دامياً وقد صبغه الشفق ، وكان الأفق البعيد يوشك أن يتلقى الشمس التى أوهنتها رحلة النهار وهى تنزلق نحوه وئيداً لتخفى وجهها المحزون فى نقاب المساء . ثم راحت أطياف تنفذ خلال الشرفة ، خافتة كخفقة السراج الجاف ، وإنساب شعاع وان إلى جثمان الطريح يمسه ، ويمر عليه فى ترفق كأنه أم حانية مدت كفا لتوقظ وليدها الوسنان ، فلقد طال رقاده ، وآن له أن ينتبه ويتهيأ لموعده المرقوب مع الرسول الحبيب ··· أليس الغروب قد آذن الآن بانتهاء الصيام ؟ ···

الإمام

١

كان المساء قد ألقى ظلاله على الدار وامتد يلف ما حولها من رحاب ، وكانت جموع الحصار حيرى ، قد ألقت السلاح ووقفت واجمة تعلق الأبصار بموئل الخليفة الصريع ، كأن قد هالها ما أقدمت عليه ، شملتها الرهبة التى غلفت المكان كله ، وعمها الصمت حتى ليسمع تردد الأنفاس .

وكانت الغرفة التى شهدت المصرع ساكنة كأنها قبر وإن وسمها ظهر الأرض ، معتمة وإن طوفت بها أضواء النجم السارية من خلال الغرفة ، لا يبدو شاغلوها إلا كأشباح . مذ انجاب ضجيج المعركة لم تمتد لها يد بالتغيير ، بل بقيت كحالها ، فى جانب رقد جثمان عثمان ، لف من دمائه فى ثوب . وعلى مقربة منه المصحف المضرج ، مازالت إلى جواره سلاميات الأصابع ، مختلطة لا يعلم أيها للشيخ وأيها للزوج الثكلى . والأرض كلها حمراء قانية ، لونها ما سال من جراحه وجراح جلاديه ، فإلى الباب رقدت ثلاث من جثث الثوار دفع أصحابها من حياتهم ضريبة الجريمة ، وقيد خطوات منها بضعة قليلة من موالى عثمان آثروا أن يثأروا لسيدهم فقاتلوا عنه حتى تبعوه إلى المصير المحتوم .

ثم تحركت فى الغرفة ظلال حيرى ، انبعثت عن نفر دخلوها بغير ضجيج كما تتحرك الأشباح . لكأنما كل حاضر نبا به الآن موطىء قدميه فليس يستقر على أرضها القانية بمكان . الرهبة ملكتهم ، والأسى عصف بقلوبهم فما زالت قوة اضطرابها فى جنوبهم تهز كيانهم فتردهم إلى وراء أو تدفعهم إلى أمام . العواطف سيطرت على خطوهم ، والشاعر الجياشة كانت النوء الذى يلعب بالقارب السارى فى غمار العباب . والحزن الفاجع غشى عيونهم بدمع كثف على مآقيهم حتى أخفى عنهم المرئيات إلا ماتنقبت به من ضبابه . قد سكنوا إلا همسة ، وصمتوا إلا نفسا غير موصول ، فلا تنبىء عن حياتهم سوى الزفرات التى تتردد عنهم . وألقوا السمع والبصر جميعاً إلى الجثة المسجاة التى غلها فوق ثوب دمائها دمعهم السيال . وألقوا الفؤاد ايضاً إلى ذلك الهيكل المطرح من

اسى إلى جوار عثمان . وأمسكوا أنفاسهم يرقبونه بإشفاق ، ذلك على قد غلبته الفجيعة وأودى به حزنه ففامت عينه ، وهمد حسه ، وراح فى غمرة غشية عاتية أحالته صامتاً صمت الموات . . .

ومضت اللحظات بهم كأنها الدهر الخالد . أو كأن الفلك السيار قد توقف عن دورته فجمد الزمان على حافته جمود المكان . . . وثقلت عليهم نفوسهم حتى غدت شيئاً يحسونه وينوءون تحت وقره ، وتأرجحت أنفاسهم فى الجو تتردد ولا تتبدد . كلهم شغلتهم الواقعة وأذهلتهم عن كيانهم . وقاربت بينهم وبين خمود العدم . وأوشكت أن تميد بهم فتطرحهم كصاحبهم الراقد إلى جوار جثة الخليفة ، لولا مسكة من شعور أبقت عليهم فتعلقوا منها بالوعى بما يشبه الخيط الرقيق . ولم تزل دماؤهم تسير فى عروقهم وانية كأنها تتردد بين التوقف وبين التدفق ، حتى رأوا عليا يتحرك وينفض عنه غشيته فدبت فيهم الحياة . .

وتبعوه فى وجوم وصمت وهو يقهر قدميه على المسير . وكان ابناه واقفين فى صحبهم الشبان ، ناكسى الرؤوس حين جاء الخبر إليهم بمصرع الخليفة . . فما أشرف عليهما حتى سارعا إليه ، وخفت اللغط الدائر على ألسنة القوم . ودار على بنظرات غضبى فى وجوه الفتية . وتلهبت عيناه وانعقد مابين حاجبيه فى عبسة يكاد ان ينبجس منها الدم . . . ثم أهوى بكف على وجه الحسن وبالأخرى على وجه الحسين . وثار بأصحابهم يلحاهم فانطووا على أنفسهم لا ينطقون هيبة منه لولا أن انبرى له طلحة يقول :

« مالك يا أبا الحسن تضرب وتشتم ! . . . »

فصاح ولم تخف سورة غضبه :

« يقتل أمير المؤمنين وهم بالباب ، ولم تقم عليه بينة ولا حجة ؟ »

« لو دفع مروان ما قتل . . . »

فصمت على . إنه ليعلم أن الخطر على الخليفة كان يجثم دائماً خلف أهل

بيته ، أولئكم العصبة الأموية التي كان على رأسها مروان . فلقد أساءوا توجيه الشيخ ولم يخلصوا له النصح ، وكانوا أقدر على تجنب الفاجعة لو سلكوا سبيل الرشاد . ولكن صلفهم أعماهم ، ومطامعهم الشخصية أبت عليهم إلا التضحية بكل شيء في سبيل مآربهم . حتى في هذه الأزمة الأخيرة كان في مقدورهم إنقاذ سيدهم ، ولكن حماقة مروان أرثت النار الهامدة في نفوس الثوار ، ولم يكفه أن كانت سياسته من البدء مدعاة لإثارة سخط النـــاس حتى صار كلما هم الخليفة بإصلاح الأمور يوسوس له فينقض وعوده ويعدل عن الخطة المثلى التي كانت كفيلة بالتفاف القلوب عليه . فلما أن بلغ الحنق في النفوس مداه ، وأيقن أن القوم غير تاركي عثمان حتى يعزل مشيره الخبيث ، تعجل بنفسه الخاتمة وقد سبق إلى وهمه أنه غالب عليهم ، وموطد سلطانه بقوة السلاح مادامت جيوش الأمداد قد باتت من المدينة على مسيرة ساعات . . .

ولكن تقديره خذله ، وانتهت دولته أسوأ انتهاء ، وبات وأهله لا يستطيعون أن يملكوا لأنفسهم نفعاً ولا مضرة . ومن بقيت بقلبه بقية جلد استخفى عن عيون الناس بمعزل خشية أن يظفروا به فيقتلوه . ثم راحوا يتحينون السوانح للفرار من حاضرة الملك التي شهدت لهم صوراً من السيطرة والطغيان ظلت ماثلة في أذهان الشعب الموتور لا تريم .

واختلط الأمر بالمدينة ، وخرج لتوه من أيدي قريش التي قسمتها الأهواء ، فأصبحت مزقا محاولة بعد أن وحدها قصي من أجيال وجعلها كتلة ترهبها العرب فتعنو لها الجباه . فما بقي منها اليوم قبيل يشعر بشعور أخيه ، أو يمد كفه ليأخذ بناصره ، بل تفرقوا جميعهم أمام القوى المتحدة من أهل الأمصار ، وراحت مطامعهم تتجمع لتأخذ لنفسها السلطان ، وكما كانوا في حياة عثمان يعملون جهدهم لنزع أمره منه ، فقد راحوا الآن يدأبون على الحيلولة بين السلطة وبين كل من أحسوا أنه بسبيل الفوز بها لمزية توشك

أن تؤهله للسيادة . ركبتهم ثانيه عصبية الجاهلية . وغلبتهم على حقهم المشترك بين قبائلهم تلك الرغبة الجامحة التى جاشت بنفوس كل فرع منهم للتفرد بالإمرة من بقية الفروع .

وساد الإرهاب بلدة الرسول ، لايكاد أهلها أن يثبتوا أمام أصحاب الثورة رأى وإن كانوا قد أعانوهم على غايتهم ، فلم يكن ثمة فى أيديهم سلاح يستطيعون به أن يملكوا الزمام ، ولم يكن بينهم رجل واحد يرضون جميعاً أن يلتفوا عليه بعد الخليفة القتيل ، بل مزقت المطامع شمل وحدتهم . حتى قوى الأمداد التى جاءت من الشام لنصرة عثمان لم تتحرك حين بلغها مقتله إلا لترتد على أعقابها كأمر معاوية عائدة إلى الشام ، فقد انتهى الآن واجبها الفعلى ، وأحسنت القيام بدور الغائب الذى أرادها عليه إن وقع المصرع تحت سمعها وبصرها ، لأنها ما بعثت لتنصر وإنما لتبدو فحسب فى ثياب النصير ! ..

ودانت الرقاب لرجال الثورة ، وأصبح الحكم بحاضرة الإسلام فى كف الغافقى أمير المصريين يصرف الأمور ويؤم الناس فى الصلاة ، ولم يكن هذا لأنه طمع فى الخلافة ، ولكنه أيس من تقليدها رجلا يرضاها ويرضاه الناس فلقد أباها على وعزف عنها ، وظل يباعد القوم كلما جاءوا يعرضون البيعة ، ويلوذ بفضاء المدينة بعد أن هجر داره حتى لايلحقوا به ... كان يربأ أن يؤول إليه الأمر على يد الطائفة التى توسلت إلى غايتها بالعدوان ، فلما أن طال احتجابه عن الناس تفكرت طائفة من أهل البصرة أن تدلى بالبيعة إلى طلحة ، وأخرى من أهل الكوفة أن تدلى بها إلى الزبير . ومضت كل إلى صاحبها تحاول أن تقدم له هديتها ، ولكن غمرة الحماس كانت قد ولت مع الصباح ، وعادت إلى السيطرة دولة العقل بعد دولة العواطف ، فما إن رأى القوم صاحبيهما يضمهما المسجد حتى صاح فيهما من صاح :

«أيها الرجلان .. إنكما وقعتما فى أمر عثمان فخليا إذن عن أنفسكما ، ودعا الأمر ! ..»

ولعلها كانت دعوة من خبير بخفايا الانقلاب أحب أن يبعد بالخلافة عن كل ذى مطمع ركبت به أهواؤه سبيل الحيف على الخليفة القتيل ... ولعلها من حكيم شاء أن ينهى عهد الطغيان بقطعه الطريق على ذيئك اللذين أعانا عليه ... ولعلها من صاحب رأى فى الصاحبين يضن بالإمرة على كليهما وهو مؤمن أنهما أهون شأنا من أن يصلحا لقيادة شعوب الإسلام ... على أى حال لقيت هـذه الدعوة عند الجموع المزدحمة بالمسجد ذلك النهار هوى جعلها تتقبلها أحسن القبول . وترددها جادة غير هازلة . وتطلق أحاديثها المتجاوبة فى أبهاء المكان تجبه الرجلين بأشنع اتهام ولا تتحرج أن تلقى على رأسيهما تبعة قتل عثمان ...

وفزع طلحة فقد رأى الناس يثوبون إلى عقولهم بعد أن انجابت عنهم غمرة العواطف ، ويندمون أشد الندم على ما انتهى إليه مصير الخليفة الشهيد ، ويأسون لحاله أسى ودوا معه لو كانوا استطاعوا التريث به وإمهاله لعله ينزع عما عابوا عليه . وفى كل قلب منهم إذ ذاك نقمة من الزمن الذى جرى بهم شوطة إلى نهاية كريهة تعجلها فى البدء غضبهم ثم أنكرها وعيهم حين لم تعد ثمة جدوى من الإنكار ... فزع طلحة من هول الاتهام الموجه إليه وتبين شناعة الصورة التى تجلت منه لأعين المسلمين ، فقام إلى المنبر لعله يستطيع أن يضفى ظلالا كثيفة تحجب عن أذهان الناس ما مثل فيها من صورته الشوهاء ...

قال يوضح لهم حقيقة موقفه من عثمان :

« ... أما بعد ، أيها الناس ، إنا والله ما نقول اليوم إلا ما قلناه أمس . إن عثمان خلط الذنب بالتوبة حتى كرهنا ولايته ، وكرهنا أن نقتله ، وسرنا أن نكفاه ، وقد كثر فيه اللجاج ، وأمره إلى الله » .

وهب الزبير على الأثر يدفع عن نفسه ، ولكنه فى دفاعه كان أحكم من صاحبه ، وأعرف منه بالوسيلة تشغل عنه ظنون الناس لأنه كان أقدر على توجيه انتباههم إلى قضية آثر عندهم من قضية الاتهام ، هى الاستخلاف قال .

« أيها الناس ٠٠٠ إن الله قد رضى لكم الشورى فأذهب بها الهوى ، وقد تشاورنا فرضينا علياً ، فبايعوه ٠٠٠ » .

وتهامس القوم ، وتنقلت نظراتهم الدهشة بين الصاحبين ، قد أجمعا إذن الرأى ، وخرجا من البيعة لمن رأياه أولى بها عند الاختبار فألفا بين تيارات الأفكار المختلفة التى كانت تتفرق بها آراء أهل الأمصار ، لامدعاة الآن إلى الخلاف بين الكوفة والبصرة ومصر مادام الزعيمان قد دانا فى النهاية وأقرا بالإمرة للثالث العظيم .

وراح الزبير يتم حديثه عن عثمان والناس بحسبانى يشغلهم عن الإنصات لخاتمة بيانه جلال ما أزجى إليهم فى مقدمته .

« ... أما عثمان فأنا أقول فيه إن أمره إلى الله ، وقد أحدث أحداثا ... والله وليه فيما كان »

ولكن علياً لم يستجب لهم ، وظل مؤثرا الاعتزال ، يرد كل من جاءوه منهم يعرضون البيعة ، ومضى يوم،وتبعه آخروالأمر على ما هو عليه ،لايستبين الناس لهم مخرجا من الحرج الذى أصبحوا فيه . وثقل على الثوار أن يسير فى البلاد نبأ مقتل عثمان ولايسير معه نبأ اختيار خلف له على الأمة فتفسد الأمصار ويتناحر أصحاب الهوى والأغراض فتنحل عرى الدولة . وكانت الحيل قد أعيتهم من قبل دون حمل أحـــد من أصحاب رسول الله المقربين على قبول الخلافة .

فلقد آثر سعدالحيدة ، وأبى ابن عمر إلا إعتزال السياسية والبعد بنفسه عن خضمها الصخاب ، ووضح لهم موقف الزبيروصاحبه وما بدا من تهيبهما إدخال أنفسهما فى أمر يرى الناس أنهما جنحوا فى سبيل الفوز به إلى العدوان . ثقل على رجال الثورة أن يذهب جدهم هذا عبثاً فأجمعوا الرأى على سلوك طريق العنف والإرهاب،عساهم به يستطيعون توحيد الكلمة وإنهاء مشكلة الاختيار.

وتنادوا فيما بينهم ، وانطلقت رسلهم بالمدينة إلى كل صوب يجمعون من

يلقون من أصحاب رسول الله ومن كبار المهاجرين والأنصار، ونشطت الرسل فيما طلب إليهم ، وأخذو تباعاً يعودن بذوى الشأن فى البلدة ومنهم من قد أوشك أن يبرحها إلى مكة أو استخفى فيها بحائط أو بناحية ... فلما حشدوهم جميعاً فى مكان واحد ، وفيهم طلحة وسعد والزبير والكثرة الغالبة من الصحابة قام فيهم متحدث عن المصريين يقول :

« ... يا أهل المدينة ، إنكم أهل الشورى ، وأنتم تعقدون الإمامة ، وأمركم عابر على الأمة ، فأنظروا رجلا تنصبونه ونحن لكم تبع » .

فتهاتف الناس من كل جانب :

« على ... على بن طالب ... نحن به راضوان . »

« فدونكم ، وإنا لمؤجلوكم يومين اثنين ، فوالله لئن لم تفرغوا لنقتلن غداً علياً وطلحة والزبير وأناساً من رجالكم كثيرين ! ... »

وشهد مسجد رسول الله لثالث مرة منذ وفاة محمد تلك الفئة الخالصة القلوب من الشوائب ، الذائدة عن الحق للحق ، تجتمع لتجأر بالدعوة التى أشربتها نفوسهم الصافية، وغلبهم الزمن عليها أعواماً حتى أوشكت ان يحتويها النسيان ، شهد المسجد أولئك النفر من أصحاب محمد الأوفين الذين لم تفسدهم الأهواء والمطامع ، يقومون ثالثة لنصرة القضية التى قاموا فيها ساعة استخلاف أبى بكر، ويوم اختيار عثمان ، ويرفعون أصواتهم فى الملأ اليوم يطلبون بها النصف عند كل حريص على إقامة الحق ورفع دعامانه، لم ينتقص مر الأعوم من شجاعتهم،ولا إخلاصهم لصاحبهم الذى آمنو بحقه ومزاياه ، ولم ينكل عنهم واحد من جمعهم القديم إلا من كان التراب قد طواه ، وإنا لنراهم الآن من خلال الماضى كما كانوا من قبل ، لولا أن الزمان جرى بهم أشواطا طويلة فى خريف العمر ، ولكنهم مع ذلك ظلوا ذوى قلوب فتية وأرواح قوية قوية . قد التأم جمعهم القديم كسابق عهده لتحقيق هدفهم المرموق ،فيهم عمار ، وأبو الهيثم ، وأبو أيوب

ورفاعة ، ومالك بن العجلان ومن لف لفهم من أصحاب على الغيورين على حقه أشد من غيرته عليه .

التأم جمعهم بالمسجد ذلك النهار كاجتماعهم بفضاء بنى بياضة تلك الليلة الأولى من عهد أبى بكر ، يتدارسون الحال ، ويتذاكرون الوسيلة الكفيلة بإعادة الحق القديم إلى صاحبه وصاحبهم صفى حبيبهم رسول الله ، وكانت طوائف من أهل المدينة قد علمت بأمرهم فأقبلت عليهم ، ثم طفقت الجموع من بعد تفد فتمتلىء بها رحبات بيت الله حتى ضاق المكان بمن فيه .

ووقف أخيراً فيهم عمار يقول :

« أيها الأنصار ، قد سار فيكم عثمان بالأمس بما رأيتموه . وأنتم اليوم على شرف من الوقوع فى مثله إن لم تنظروا الأنفسكم ، وإن علياً أولى الناس بهذا الأمر ، لفضله وسابقته » .

فامتلأ المسجد بصوتهم الداوى ينطلق كمن فم رجل واحد :

« رضينا به » .

فالتفت صوب الحشد الزاخر وفيه كثيرون من المهاجرين وقال :

« أيها الناس ، إنا لن نألوكم خيراً وأنفسنا إن شاء الله . وإن علياً من قد علمتم . وما نعرف مكان أحد أحمل لهذا الأمر ولا أولى به » .

فجاءه على الأثر من الجموع الحاشدة الجواب الذى أثلج صدره وطيب خاطره وباله :

« قد رضينا ، وهو عندنا على ما ذكرتم وأفضل » .

فانطلقت طوائفهم إلى على وفيهم الزبير وطلحة تتبعها زمر من أهل المدينة ومن رجال الأمصار على السواء . وكان معتزلا بداره فضربوا عليه بابه حتى أخرجوه وهو مستكره . والتفوا عليه من كل جانب يهتفون له ، ويهيبون به أن يقبل بيعتهم ، قالوا له :

« يا أبا الحسن . إن هذا الرجل قد قتل. ولا بد للناس من إمام . ولا نجد

اليوم أحداً أحق بهذا الأمر منك ، لا أقدم سابقة ، ولا أقرب من رسول الله » .

فأبى أن يستغل عاطفتهم الكريمة التي دفعتهم الآن إليه . بل قبض دونهم كفه ، وأجاب :

« لا تفعلوا ولا أفعل ، فإني أكون وزيراً خير من أن أكون أميراً » .

فتهاتفوا به ثانية :

« أنت لنا رضى » .

فهز لهم رأسه إباء وقال :

« لا حاجة لي في أمركم أيها الناس . أنا معكم ، فمن اخترتم فقد رضيت به » .

وصاح به من بينهم الأشتر مالك بن الحرث أحد زعماء أهل الكوفة :

« والله لتمدن يدك نبايعك أو لتعصرن عينك عليها ثالثة ! » .

فلعله حسب أنه بصدد رجل يأسى على ما فات من نصيبه في هذه الحياة ، أو يعنى بعرض من عروضها جل أو هان .

ولكن علياً لم يعجل به ، ولم يستسلم للغضب عليه ، بل قال في هدوء يخاطبه ويشرك القوم في الخطاب .

« دعوني والتمسوا غيري أيها الناس ، إنا مستقبلون أمراً له وجوه وله ألوان ، لا تثبت عليه العقول ، ولا تقوم له القلوب » .

وأحس الأشتر على الأثر بسوء ما كان منه . وشعر أنه حيال رجل ليس كسواه بل من طراز فذ في الرجال يستقبل الأمر بالنظرة الجادة التي تستطيع النفاذ إلى أغواره واستكناه خفاياه ، ولئن كانت الخلافة هدفاً له منذ قديم فإنها لم تكن مطلقاً كل أهدافه ، ولم تكن غاية رنا إليها طموحه ، بل هي وسيلة إلى غايات أعز عليه من السيادة وحكم الناس هي العمل لإعزاز الدين والسمو بنفوس الناس ، أما مظهرها ، وجاهها الرفيع ، والمجد الذي قد تسبغه على شاغل مقعدها ، فكلها هنات لا تملأ من قلب ابن أبي طالب مثل ما تملأ شعرة .

ورفع الأشتر إليه وجهاً يفيض بالإكبار . وراح فى توسل يهيب به باسم الإســلام واسم الأمة أن يستجيب لثقة الناس به فيقبل الواجب الذى لا يستطيع غيره القيام به فى هذه النازلة التى توشك أن تدك صرح الدولة الفتية . . ثم أردف توسله فى ختام حديثه بأن قال :

« ننشدك الله ، ألا ترى ما نرى ؟ . ألا ترى ما حدث فى الإســلام ؟ . ألا ترى الفتنة ؟ . ألا تخاف الله ! ؟ . . »

وأنصت القوم من بعد صامتين ، وقد تعلقت عيونهم بشفتي الكهل الذى تجسمت فيه آمال أمته ، وانتهت إليه مشيئتها وقد أشفقوا أن يجيئهم جوابه بغير ما يشتهون . ولكنه قال بعد روية وتفكير :

« قد أجبتكم لما أرى منكم . . . ألا فاعلموا أنى إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم ، وإن تركتمونى فإنما أنا كأحدكم ، بل أنا أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم » .

فصاحوا به هاتفين وقد تفرجت منهم الصدور :

« ما نحن بمفارقيك حتى نبايعك » .

فابتسم لهم ابتسامة رقيقة ، وقال وهو لا ينسى خطته فى التزام مثله العليا حتى فى هذه اللحظة التى أجمعوا فيها رأيهم على تقليده إمارتهم :

« إن كان لا بد من ذلك ففى المسجد ، فإن بيعتى لا تكون خفياً ، ولا تكون إلا عن رضا المسلمين ، وفى ملأ وجماعة » .

واتعدوا الغد ، وتفرقوا عنه وكلهم راضى النفس يكاد أن يرى الخير فى ركاب المستقبل ، فلما أشرق نهار الجمعة ساروا والشمس إلى قبلة أنظارهم ومهوى عواطفهم ، وطفقت جموعهم تزيد وتتكاثف حول داره حتى غص بها الفضاء ، وخرج إليهم فتداكوا عليه تداك الإبل الهيم على وردها حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً من فرط ازدحامهم عليه وشدة رغبتهم فى الخلوص إليه كأنما لم يشاهدوه إلا اليوم . . . ثم انطلقوا وإياه إلى المسجد وأصواتهم لا تكف عن التهليل والتكبير .

وصعد المنبر ، وألقى بصره هنيهة على الجموع الزاخرة التى ضاق بها المكان فوقفت خارجه كأنها البنيان المرصوص ، ورفع صوته بالكلام ، فحبسوا الأنفاس.

قال بصوته الرصين :

« ياأيها الناس . . عن ملأ وإذن ؟ . . إن هذا أمركم ، ليس لأحد فيه حق إلا من أمرتم ، وقد افترقنا بالأمس على أمر ، فإن شئتم قعدت لكم ، وإلا فلا أجد على أحد » .

فزلزلت الأرض بالهتاف له ، ثم بان جوابهم الصريح كالهزيم :

« نعم . . نحن على ما فارقناك بالأمس » .

« ألا أنى كنت كارهاً لأمركم فأبيتم إلا أن أكون عليكم . . رضيتم ؟ »

« نبايعك على كتاب الله » .

« اللهم اشهد عليهم » .

فتدافعوا إليه كالموج ، يلتفون بالمنبر وقد سبقهم نحوه كبار المهاجرين والأنصار . . . كل يرجو أن يكون له شرف البدء بتحيته قبل غيره بسلام الخلافة .

ووقف حبيب بن ذؤيب على كثب منه ، وقد منعه تدافع القوم من الوصول إليه فآثر التريث حتى تبين له فرجة بين الجموع ، وراح يرقب البيعة ، ويتلهى بتصفح الوجوه التى اجتمعت حول المنبر وأصحابها يهمون أن يعلنوا ولاءهم للأمير الجديد . وأخذت نشوة الفرح بقلب الرجل . وطابت نفسه وهو يشهد وحدة قومه بعد تفرق ، لتكاد المدينة كلها أن يحتويها المكان . وليوشك ألا ينقص الجمع الزاخر أحد من أصحاب رسول الله . بدت البيعة ذات جلال ، جامعة ، قوية العمد إذ تستند إلى إرادة الشعب ، فلم يتخلف عنها السادة ولا الجمهور . وقاربت روعة هذا أن تنبئ عن عصر زاهر سعيد يلتئم فيه شمل الأمة ويعلو شأو الإسلام .

ولكن ابن ذؤيب قعد عنه أمله ، وذبلت فرحته ، فإن هى إلا عين رفعها

إلى المنبر حتى غاص قلبه وأوشك أن يكف عن وجيبه ، إن هاتفاً راح يهمس له الآن فى أذنيه ، تلك اللحظة التى رأى فيها طلحة يصعد درج المنبر إلى على ، هاتفاً عاتياً ، مدوى الصوت فى سمع ضميره أخذ يلح عليه بوسوسته حتى ماملك أن طفق يردد لنفسه فى ذهول :

« أخلق بها أن تنكث » .

ثم ثاب . فلما أن وقعت عينه على المنبر ثانية ، ورأى هناك يد طلحة تمسك بكف الإمام ، أحسها تعتصر قلبه فى قبضتها ، وتستنزفه ما بقى فيه من قطرات أمانيه فى العصر الزاهر السعيد المأمول ، وقال وقد غلب عليه التطير :

« إنا لله وإنا إليه راجعون ، أول يد بايعت أمير المؤمنين شلاء ؟ . لا يتم إذن هذا الأمر » .

٢

ترك عثمان تراثاً من العوسج فى أيدى خلفه ؟ . . الأهواء تلعب بنفوس السادة حتى لا يتفق اثنان فيهم على رأى . والتذمر يأكل قلوب العامة وهم يرون الخاصة قد استلبوهم حقوق المساواة التى أقرها لهم الإسلام ، والفرقة تضرب بين أقطار الدولة حتى ليحسب كل قطر أنه الجدير بالسيادة دون بقية الأقاليم . . حتى أولئك الذين هيأهم الزمن منذ قديم لقيادة العرب كانوا قد مزقتهم المطامع ، وأصبحوا الآن فرقاً تعرف بأسرهم بعد أن كانوا كتلة تعرف بقبيلتهم فترهبها بقية القبائل وتدين لها بالطاعة . فما عادت اليوم ثمة قريش التى عنت لها الجزيرة فى الجاهلية وإبان الأيام الأولى من ازدهار الإسلام ، بل غدت بيوتاً محلولة لا يؤلف بينها ذلك الهدف القديم الذى استوحته من ماضيها المجيد والتزمته فسادت به على الرقاب . فلقد صحت أحقادها ثانية . ورجع إلى الحياة ما كان قد نام من أضغان بعضها على بعضها الآخر . وأصبح الرجل منها لا يأخذ نفسه

بانتهاج السياسة العامة لقريش فى سيادة العرب بقدر ما يأخذها بانتهاج السبيل الذى يرفع شأن بيته وحده . ثم قد لا يتوانى عن طرح هذه السياسة الجزئية واعتناق أخرى فردية إن ظن هذه كافلة له سيادته هو على بقية أهله وذويه . .

كذلك كانت الدولة الإسلامية حين تسلمها يدا على . وكذلك كانت النفوس فيها تتقاسمها النوازع والأهواء الشخصية ولا يربط بينها غرض عام ولئن بدا من بعد أن كثيراً من فروع قريش قد اصطفت جيشاً واحداً تناجز الفرع الهاشمى فى شخص على ، فلغير مصلحة عامة كان هذا التجمع ، بل كانت جميعها تعمل وفى بالها أن تزيح من طريقها منافسها الخطر الذى لا تستطيع — متفرقة — أن تقدر عليه . فإذا فرغت منه فأيسر اليسر بعد هذا أن يستقيم الأمر لأحدها إن عرف كيف يخضد شوكة بقية الفروع . . .

هذا هو الطابع الذى وسم خطط منافسى على ووحد كتلهم على كثرة ما كان بينهم من اختلاف ، فلقد كان لكل فئة منهم هدفان : واحد عام يسدد خطوها وخطا زميلاتها جميعا ، وآخر خاص تنفرد وحدها به ، وتعمل جاهدة لبلوغه بغير معونة سواها وإن وطئت فى سبيله بقية الأحلاف . فليس عجباً إذن أن ينتظم معاوية والزبير وطلحة وابن العاص وغيرهم من حساد على عقد واحد ، يجمعهم كلهم حرباً عليه كى يكاثروه فيغلبوه ما دامت كل طائفة منهم ستجهد لتكون وحدها المنتصرة فى نهاية المطاف . وما نحسب هذه الظاهرة إلا جلية تمام الجلاء فى تصرف الزبير وطلحة الذين نكثا بيعة الإمام واعتسفا الأسباب للشغب عليه . فلقد وحد بينهما حسدهما فقاما فى جيش لجب يحاولان انتزاع الأمر من يد على ، وإنهما ليختلفان فى الطريق على أيهما تكون له الإمرة بعد الانتصار .

تراث من العوسج خلفه عثمان ! ولكن علياً لم يكن الرجل الذى يرهب الشدائد أو تنقصه القدرة على الكفاح . فمنذ اللحظة الأولى تبين

خطر المهمة التي تنتظره . ولم يخف عنه شيء مما في نفوس القوم أو خلف الأحداث . بل استشف الحقيقة كلها فعلم أنه مقبل على أمر له وجوه وألوان لاتثبت عليه العقول ولاتقوم له القلوب ، يوشك أن يفتتن فيه الناس ويتفرقوا شيعاً شتى ، تتناحر فرقهم ، ويضرب بعضهم بعضاً ، لم يغب هذا عن عين بصيرته ، ولم يكتمه عن أمته بل طالعها به منذ اللحظة التي أدلت فيها إليه بالبيعة حتى لكأنما كان يقرأ من كتاب مفتوح وهو يخطب الناس فيقول :

« .. ألا إن بليتكم قد عادت كهيئتها يوم بعث الله نبيكم ... والذي بعثه بالحق لتبلبلن بلبلة ، ولتغربلن غربلة ، ولتساطن سوط القدرحتى يعود أسفلكم أعلاكم وأعلاكم أسفلكم . وليسبقن سابقون كانوا قصروا ، وليقصرن سباقون كانوا سبقوا . . . والله ما كتمت وشمة ، ولا كذبت كذبة ، ولقد نبئت بهذا المقام وهذا اليوم ... »

ولكنه قرن به واجب لزام عليه أن ينهض به . فليس يعفيه من التبعة أن ينكل عما وكل إليه وإن استشف النتائج الكفيلة بتثبيط عزمه . . . كلا . فإن هو إلا صاحب رسالة واجبة الأداء في دنياه لا يقاس فيها إخلاصه بالنتائج وإنما بالجهد المبذول في سبيل الوصول إلى الغاية التي من أجلها كافح كفاحه . والخير له أن يناضل الباطل بلسانه وكفه وسيفه ثم يقع في الميدان من أن يقبع صامتاً دون أن يحرك جارحة ويفيء بالأمن والسلامة .

كلفه بالحق لذات الحق هو الذي قسره في النهاية على قبول الولاية . فلم يكن يعرف أحداً في الناس أصلح منه لقيادة شعبه ، ولا أقوى على حمل الأمانة التي تضعها تبعات الحكم على كواهل الحكام ، ولا أعلم منه بمعاقد الطرق التي تؤدي به إلى العدالة الشاملة التي كانت الغاية من رسالة الإسلام . وقد كان هذا الشعور دائماً مفتاح صراحته وشفافية نفسه ، ومركبه إلى غاياته بغير مداورة ولا التواء . . . سئل غب مقتل عثمان عن رأيه فلم يكتم عن الناس ما يحسه . ولم يحد عن ديدنه في المجاهرة بما يرى في وضوح

لا يتلبس بجاملة الشيخ القتيل أو يتملق الجماهير المادية عليه وإن كانت إذ ذاك صاحبة الكلمة العليا والجناب المهاب . بل قال :

« . . . أنا جامع لكم أمره : استأثر فأساء الأثرة ، وجزعتم فأسأتم الجزع . ولله حكم واقع فى المستأثر والجازع . »

وتلك الصراحة السافرة التى ميزت أقواله قد وسمت بطابعها أيضاً فعاله . فكما جملته من البدء يعلن على الملأ حين أرادوا بيعته أنه سيركب بهم ما يعلم ولا يصغى إلى قول قائل أو عتب عاتب ، فكذلك أتبع القول بالفعل حين بايعوه ولم يصبر عليهم بعض يوم حتى بادرهم بما يعلم ، وسار سراعاً إلى الخطة التى آمن من قديم أنها الأقوم ...

لم يصبر عليهم سوى بعض يوم تهيأ فيه لإلغاء النظام القائم منذ عهد عمر نحواً من عشرين سنة نحاته الرسوخ فى الخواطر كرسوخ الإيمان . . . فلقد كان على ثقة من أن عمر ، حين أمر بتقسيم الفىء وفق أقدار الناس وقدمتهم ، قد استجاب لعاطفته أكثر مما استجاب لعقله . وأنه بنحوه ذاك فى التقسيم قد استحدث نوعاً من العدالة الخاصة جنح به عن العدالة المطلقة . أما هو فقد أبى اليوم أن يقر السياسة العمرية ويسير عليها كما سار سلفه . لم يصده عن إبائه أن أصبح لها بمر الزمن مثل قداسة العقيدة فى بعض الأذهان ، ولا الغضبة التى لا بد سيثيرها التغيير فى قلوب أولئكم الفئة التى ميزها بالعطاء عمر وعثمان . . . إنه ليعلم أنهم سادة ، وأن خلفهم زمراً من الأهل والنصراء يغضبون لهم ، وأن ملكه الجديد غير وطيد قد تعصف به أية معارضة يشنها عليه القوم . غير أنه وقد آمن أن طوائف الشعب كلها فى الحق شرعاً سواء ، لم يروجها لتمييز الخاصة ، بل وضعهم مواضعهم حيثما وضعهم قبله النبى على ذات الدرجة التى تبوأتها العامة . وقام فى المسجد ثانى أيام بيعته يدلى برأيه ، ويبسط السياسة التى شاء كافه بالعدالة المطلقة أن تكون قوام عهده وقال :

« . . . أيها الناس . . . إنما أنا رجل منكم ، لى مالكم ، وعلى ما عليكم .

وإنى حاملكم على منهج نبيكم ، ومنفذ فيكم ما أمرت به . . . ألا إن كل قطيعة أقطعها عثمان وكل مال أعطاه من مال الله فهو مردود فى بيت المال . . . فإن الحق لا يبطله شئ . ولو وجدته قد تزوج به النساء ، وملك الإماء ، وفرق فى البلدان لرددته . فإن فى العدل سعة ، ومن ضاق عليه الحق فالجور عليه أضيق . . . أيها الناس . . . ألا يقولن رجال منكم غداً — قد غمرتهم الدنيا فامتلكوا العقار ، وفجروا الأنهار، وركبوا الخيل ، واتخذوا الوصائف المرققة — إذا مامنعتهم ما كانوا يخوضون فيه وأصرتهم إلى حقوقهم التى يعلمون : «حرمنا ابن أبى طالب حقوقنا » . . . ألا وأيما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله يرى أن الفضل له على سواه بصحبته فإن الفضل غداً عند الله ، وثوابه وأجره على الله . . . ألا وأيما رجل استجاب لله ولرسوله فصدق ملتنا ، ودخل ديننا ، واستقبل قبلتنا فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده . فأنتم عباد الله . . والمال مال الله ، يقسم بينكم بالسوية ، ولا فضل فيه لأحد على أحد ، وللمتقين عند الله أحسن الجزاء . . . فإذا كان الغد فاغدوا علينا إن شاء الله ، ولا يتخلفن أحـــد منكم ، عربى ولا عجمى كان من أهل العطاء . . . »

وبهذا الوضوح رسم لهم سياسته القائمة على العدالة الشاملة التى تسع جميع الناس سواء بسواء ، ولا تضع حواجز من المزايا تفرق بينهم أدنى تفريق . وهدم بها ما كان قائماً حتى اليوم من شرعة عمر فى التقسيم . بل هو فى الحق حقق حلم عمر الذى كان يراوده فى أيام عهده الأخيرة لما تبين أن سياسته فى توزيع العطاء قد جرت إلى قيام حواجز مالية واجتماعية بين طبقات أمته كانت فيما بعد ذات أثر هدام فى بناء الدولة الوطيد . . .

ونشط فى إنفاذ ما عزم عليه فصادر ما أقطعه عثمان بعض آله ورجاله من أراض وأموال . . وتتبع كل درهم بذل فى غير وجهه ولغير مستحقيه فأعاده إلى بيت المال . . وغدا الناس عليه فى الموعد كما أمرهم فقال لكاتبه ابن أبى رافع :

« ابدأ بالمهاجرين يا عبيد الله ... »

وما زال قائماً معهم يفرق عليهم أنصبتهم حتى أخذ كل رجل من المسلمين حقه كاملا غير منقوص من العطاء ، لا فرق فيهم بين كبير وصغير ، ولا بين أصيل ودخيل ، ولا بين سوقة وخاصة ، بل استووا كلهم لديه وإن اختلفوا فى الجنس والمقام ، فكذلك جعلهم الله فى الشرع سواء .

فمن عجب أن تنكر عليه بعض النفوس هذه العدالة الجديرة بأن تلقى منهم أطيب الثناء ... ولكنهم كانوا فئة ألفوا أن يتميزوا على الناس وتكون لهم من دون الشعب طبقة رفيعة تعتز بالمزايا المادية كما تعتز بالمزايا المعنوية التى ورثتها فى قطرات الدم الأصيل الذى تمتلىء به خدودهم المزهوة ، فما العرب كقريش ! وما العجم كالعرب ! وما الدهماء المغمورون كالسادة الأمجاد ذوى الأنساب ..

ولقد بلغ من شدة إخلاص هذه الطائفة لتقاليدها الجاهلية أن نسيت أنها وقد اعتنقت الإسلام قد أقرت لغيرها من المسلمين بحقهم مثلها فى التمتع بقوانينه وإن فرقت بينهم وبينها فوارق من اختلاف اللون واللسان ، وغلب عليها الصلف حتى حسبت أنها إذ تمشى إلى الإمام تبلغه إنكارها هذه السياسة الجديدة فإنه سيبادر مسرعاً إلى استرضائها وإعادة الأمور على ما تريد .

وكذلك اجتمع له جمع منهم كانوا أحرص على دنياهم ، فلما أن سألهم عما جاءوا فيه ، ألبسوا مطالبهم ثوب النصح ، وراحوا يبدون كمن يخشى عليه الثورة التى توشك أن تؤججها سياسته فى نفوس من أودت بمزاياهم من علية القوم .. فقال لهم وهو لا يخفى عنهم دهشته وإنكاره لما يطلبون :

(أتأمروننى أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه ؟ . والله ما أطور به ما سمر سمير وما أم نجم فى السماء نجما ! .. لو كان المال لى لسويت بينهم ، فكيف وإنما المال مال الله ؟ ... ألا وإن إعطاء المال فى غير حقه تبذير ، وإسراف ، وهو يرفع صاحبه فى الدنيا ويضعه فى الآخرة) .

أفغاب عن هذه الطائفة إذ ذاك أنها كانت تتشبث بحق موهوم لا سند

له من دين الله أم هم يا ترى غضبوا للدنيـــا وحرصوا على عروض الحياة ؟ أم المال كان فتنة طغت على الصفاء الروحي الذى كان قد أوشك الإسلام أن يهبهم إياه ؟ . لئن التمسنا لهؤلاء العذر فى تحيفهم على الحـق الأبلج وركوبهم هوائم ، فهل ثمـــة عذر واحد نستطيع التماسه لصاحبي رسول الله — لطلحة والزبير — اللذين اعانا الدين إبان محنته ، وناضلا عنه حتى انتشرت ألويته فى الآفاق ، ولم يتوانيا فى سبيله عن البذل بالدماء والأموال ، وعرفا قبـــل غيرهما أنه شرعة إيثار وتضحية وناموس عدالة وتسوية ؟ . . لقـد يجهد المرء فى البحث عن الأسباب التى حملتهما على معارضة الإمام فى نظام التقسيم الجديد ، فلا يستطيع مع إحسان الظن بهما إلا ان يجـدها سبباً واحداً ، هو الهوى الشخصي ، دفعهما إلى مناجزة على وهو على حقه ، وإلى اعتساف الدواعى التى تشغب عليه امره وتضع فى سبيله العوائق والعراقيل .

ولـكن أمير المؤمنين لم يثر بهما حين جاءا يـكشفان له عن أولى بوادر الخلاف التى أوشكا أن ينشباها فى صرح حكمه . . لاحا كأنما هما أن يشيرا عليه مشورة خير ويلقيا أمامه بالعتاب الناعم الذى يرجوان من ورائه استقامة الأمر له ، ولـكنه كان على بينة من حقيقة المشاعر التى يخفيان . . . قال بصوت هادىء يسوق فيه العظة والملام فى آن :

« أماما ذكرتما من أمر الأسوة يا إخوتاه فإن ذلك أمر لم أحـكم أنا فيه برأيى ، ولا وليته هوى منى ، بل وجدت — أنا وأنتما ! — ما جاء به رسول الله قد فرغ منه ، فلم أحتج إليكما فيما فرغ من قسمه وأمضى فيه حكمه ، فليس لـكما والله — ولا لغيركما — عندى فى هذا عتبى » .

فلما أوشكا أن يبرحاعنه ، لم يفته أن يزجى إليهما النصح الواجب والحـكمة البالغة ، وكلاهما يفصح عن موقفهما منه وموقفه منهما أتم إفصاح .

قال وهو يشيعهما إلى البـاب :

« ألا رحم الله امرءاً رأى حقاً فأعان عليه ، أو رأى جوراً فرده وكان عوناً بالحق على صاحبه ! » .

ومع ذلك فقد مضيا مع الهوى إلى الغاية ، وخرجا من لدنه إلى السادة ورؤوس الناس يحرضانهم عليه ، وينقمان منه أنه خالف سنة عمر فى التقسيم ، كأن عمر حرى بأن يصيب دون رسول الله ! . . ولقد لقيت دعوتهما صدى فى النفوس الصاغية للدنيا فالتف بهما قوم ميزهم التوزيع العمرى ووضعهم العلوى حينما أرادت شرعة المساواة . . ووقفوا جميعاً يتحينون اللحظات عساهم يستطيعون أن يديلوا دولة هـذا الرجل الذى لا يأبه فى حكمه بعراقة الأنساب أو مفاخر الأحساب ! . . والذى نزل بأقدارهم إلى مثل الدرك الذى كانت عليه أقدار الفرس والمصريين ونحوهم من الأجناس الدنيا حتى أمس القريب ! .

ولكنه لم يلق بالا إليهم ولا إلى ما لغطوا به ، فقد كانوا أهون عليه من أن يثير بينه وبينهم فتنة على خلاف لم يتعد بعد حيز الدعوة الخافتة التى تجبن عن رفع صوتها بين الناس ، وآثر أن يصبر عليهم ، فإن فاءوا إلى الرشد فخير ، وإن لجوا فى الغى فليس يعيي حقه أن يقوم لباطلهم ، وبحسبه أن ينهض اليوم لنشر رسالة الإسلام بالتمكين لتعاليمه فى القلوب قبـل نشر بنوده وأعلامه فى أقطار الأرض ، وإنه لآخذ بهذه السياسة منذ اللحظة الأولى التى بدأ بها حكمه ، عامل على إقرارها لأنها المبدأ الأسمى الذى بعث الله به رسوله وجعله الوسيلة إلى جمع العالم كله فى دولة ، الأجناس البشرية كافة فى وحـدة إنسانية لا تفاوت بين طبقاتها وأفرادها رغم اختلاف الألوان ، إنها العالمية ، قبل أن تتحرك بها ألسنة الدعاة والمصلحين ، دعا بها محمد بين الناس ، والأخوة الشاملة لجميع الخلق ، رسم خطوطها القرآن وأقامها على عالم مرجو فاضل ، عماده المساواة فى الحقوق والواجبات ، لقد جاء اليوم على ينفض عنها ما علق بجوهرها من آفات الأهواء ، وأخذ نفسه بالتمكين لها فى قلوب أنصارها الأولين ليكونوا لها دعاة هادين تدين بمثلهم العليا أقطار الأرض ، فلقد علمه الزمن أن الحياة بلا هدف سام عبث مرذول تأباه كل نفس مشرقة تؤمن بوجودها قبل أن تؤمن بوجود الأديان

ولقد كفى الإسلام هذه النفوس المشرقة مؤونة استقصاء الأهداف المثلى لأنه وضعها تحت بصائرها صريحة واضحة فى غير تلبس ولا إبهام ، وجمعها كلها فى كلمة واحدة نمت عنها آيات كتابه ، وبدت جلية حتى فى شمائره ... ولعل ثمة شميرة من شعائر الإسلام لا تنطق بالمساواة ولا تدعو إليها بأفصح لسان؟.. إنا لنلمسها بينة فى الصلاة يستوى فيها العزيز والذليل ويقفان موقفاً واحداً بمكان واحد ، ينطقان بنفس الألفاظ ، ويأتيان نفس الحركات . ونلمسها فى الزكاة التى تأخذ من الغنى بعض عروض الحياة لترده على الفقير حتى يشعر كلاهما — وإن باعدت بينهما الأنساب — بشعور الإخاء . ونلمسها فى الحج تزدحم بأرضه المقدسة أقدام الرجال والنساء ، فلا يميز بينهم فارق واحد من الفوارق الاجتماعية التى قد تملى لها أهواء الإنسان ، بل تراهم عند القيام بمناسكه حفاة شبه عراة ، لا يسترهم إلا ذات اللباس يستوى فيه كافة الناس ، أردية الأكفان ! . التسوية الحقة هى جماع الإسلام والغاية التى هدفت إليه شعائره وتعاليمه وأتاح لهم جميعاً تكافؤ الفرص فى موقفهم أمام الله ، لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لخاصة على عامة ، ولا لأمير سائد على عبد مملوك بل لعل أبلغ مظهر من مظاهر التسوية أن هداهم إلى رب واحد — وكانوا من قبل يتجهون إلى آلهة شتى — لتكون المساواة بين الخلق أجمعين تامة فى كلا الروحانيات والماديات .

هذا هو الهدف الأمثل الذى عنى على بإخراجه من حيز الكلمات المنقوشة فى الأسفار إلى الحياة العملية ، وأخذ نفسه من البدء بتطبيقه على شعوب دولته المترامية لتكون شعباً واحداً كرجل واحد ، فتتحقق به وحدة العالم الوسيع الأطراف .

العالمية كانت الغاية التى سعى إليها مهتدياً فى طريقة بنواميس الشريعة وبما جبلت عليه طبيعته المنطوية على إنسان كامل يريد أن يطبع على شاكلته كل إنسان ، ولقد عاش عهده كله وهذا رائده ، فكان قويا كالرمح ، عادلا

كالميزان ، تستجيب له كل نفس كلفة بالمثل العليا كنفسه ، مؤمنة بحق الإنسانية الفاضلة عليها ، وبحق الأخلاق السامية ، المتجردة من أوشاب الأهواء ...

٣

كيف استقبلت قريش بيعة الإمام ؟ ... ليكاد أن يبرز وجه الماضي سافرا من خلال الحاضر . فالحسد هو الحسد . والحقد هو الحقد . والوسائل الخفية التي جيشت من قبل الحرب بني هاشم هي ذات الوسائل . ولو كان خلي بين قريش وبين الأمر لوسعها اصطناع الأساليب الكفيلة بإقصاء علي عن الحكم قبل أن يصل إليه ، ولكن الشعب وقف دونها هذه المرة ودون ماتريد ، ومارس حقه الطبيعي في الدعوة للرجل الذي يرضاه مادام النظام السائد إذ ذاك قصر حق الانتخاب على أهل المدينة من المهاجرين والأنصار دون بقية أهل الأمصار ، وتمت البيعة هكذا لعلي لأنه كان أولى الناس بها من أعوام ولأنه كان وحده الجدير بأن تلتف حوله إرادة الأمة الإسلامية بما ضمت من أجناس شتى، آمنت كثرتها العظمى بأن إليه منتهى رجائها ، وعليه تنعقد الآمال في أن يقودها إلى الأهداف المثلى التي لاريب ستحقق لها ما تنشده من حياة كريمة في أكناف الحرية والكرامة والمساواة

أرادت هذه الوفود القادمة من أطراف الدولة فاستجابت لها حاضرة الإسلام ، وهتفت باسم علي فرددت المدينة خلفها الهتاف ، أقبلت كلها إلى الإمام في زمر متدفقة كالأمواج تدعوه أن يتسلم زمامها ويقودها إلى حيث يريد .... ولم تسمح له بمجرد التردد في القبول ، ولم توافقه على أن يدع قيادة أمورها لغيره ، بل إن الحرية التي مارستها لأول مرة هذا اليوم في الاختيار سلبته إياها ، إذ أبت عليه أن يكون هو حراً مثلها ، يرفض

البيعة إن شاء . . . قهرته على التسليم لها ، وأجبرته على الرضوخ لمشيئتها لأنها رأت فيه القائد الذى لا يصلح أمر الأمة بسواه .

وكانت قريش فى الأيام القلائل السابقة للبيعة جالسة تنظر ، يمنعها الخوف أن تجهر بالرأى الذى تحب أن يصير إليه الإجماع ، ويملأها الأمل فى أن تصدف الجماهير عن هذا الذى ظل يراوغها ويبتعد عن طريقها لتفوته الإمرة .. فلما أن غلبت عليه إرادة الأمة وحملته على قبول ما تريد ، لم تر قريش بدا من مسايرة الشعور العام خشية أن تثير على نفسها ثائرة الشعب ، وسارعت تبايع علياً بالخلافة وهى تخفى بقلوبها غير ما تبديه .

ومع ذلك فأحسب أن ثمة طائفة منها ما لبث الندم أن راح ينهش قلبها غب بيعتها للإمام، وأخذت تنحى باللائمة على أكفها أن امتدت نحوه بتحية الولاء ! . . . لو أنها صبرت لجنبت أنفسها مؤونة نكث العهد الذى لزم رقابها له ، ولكانت إذن حرية بأن تخالفه وتجأر بخلافه إن شاءت وهى آمنة اتهام التاريخ . . . ولكن ما غلب على أذهانها من رهبة الجماهير أشاع فى قلوبها خوفاً أركبها ما تكره ، وقهرها على البيعة دون بادرة واحدة من الشعب تحمل معنى الإقهار ، وجعلها من بعد تقف موقفاً — إن رضبته هى — فليس يرضاه لها الوفاء ، فما كان على بالرجل الذى يأخذ لنفسه البيعة من امرىء أباها عليه وإن كان ذلك الإباء وليد موجدة قديمة أو سوء إدراك لحقائق الأمور . . . ولقد جىء له بابن أبى وقاص وإنه لمتوقف عن الدخول فيما دخلت فيه جماعة المسلمين لغير سبب معقول سوى قوله :

« لا أبايع حتى يبايع الناس ... والله ما عليك منى بأس »

فلم يثربه . بل سمع منه حجته الواهية ثم قال للناس :

« خلوا سبيله . . . »

وأباحه الأمن والطمأنينة كمن والاه . . .

وكذلك كان موقفه من عبد الله بن عمر ذلك النهار ، فلم يكرهه على البيعة

بل أخذ موثقه ألا يشغب عليه . وطالبه أن يختار له من بين القوم رجلا يضمن التزامه هذا الوثق وعدم خلفه . . . وقال له :

« ائتنى بحميل. . . »

فأدار ابن عمر عينه لحظة فى الجمع الصاخب عليه ، ثم ردها بغير عناء إلى على تلق عليه نظرة وسنى . . . وقال بصوت لعله اشتمل نبرة تحد إلى جوار قلة المبالاة :

« لا أرى لى حميلا . . . »

فالتهبت عليه موجدة القوم . وضاقت صدورهم بموقفه ، فلو شاء لفاء إلى الحق وله معدى عن تجاوزه بما لقيه من أناة الإمام وترفقه به ، ولكنه كان قد عقد النية على الخلاف لغير سبب يوجب عليه هذا الخلاف .

وصاح الأشتر وهو بادى الغيظ وقد رفع فى يده سيفه :

« خل عنى أضرب عنقه يا أمير المؤمنين ! . . »

فاستمسك الإمام جهده ، لقد أبى أن يستجيب للغضب الذى جاش بصدره ، وداور نفسه ، حتى إذا صل منها سخطها على غريمه وأبدلها مكانه الصفح عنه . . قال :

« بل دعوه . . . أنا حميله . . . »

وقيل له بعدها عن نفير قلائل من أهل المدينة احتجبوا عن بيعته وأبوا الظهور للناس حتى لا يدفعوهم إليه . . . فلقد أراد أعوانه أن يأتوا بهم إليه راضخين مقهورين ليرى فيهم رأيه ويبايعوه ، فنهم وقال :

« لا حاجة لنا فيمن لا حاجة له فينا . . . »

أحسب هذه الصور الشتى من ترفق الإمام بمخالفيه قد تبدت الآن أمام أعين بضعة من قريش كانت سارعت فبايعته وهى تخفى له غير ما تبديه ، وأحسبهم وقد شهدوها ودوا لو كانوا صورة منها فلم تسبقهم إليه أكفهم بالولاء ... أما وقد عاهدوه على الطاعة ، وعقدوا فى رقابهم بيعته ، فقد باتوا يعدون اللحظات ويتعجلونها أن تسرع بهم عسى يستطيعون اعتساف

الدواعى التى تحررهم من عهدهم وتردهم إلى الموقف الجديد بهم والذى هم به جديرون . . . وهل ثمة أليق بقريش من مسايرة مشاعرها القديمة على بنى هاشم ، لاينجو من عنتها سليل هاشمى حتى تتربص بسليل بين كل جيل وجيل ! ؟ .

تكتلت إذن الأحقاد العصبية ثانية . وتوحدت بيوتات قريش — المتنافسة فيما بينها — أمام سليل سيدهم القديم . فالغاية اليوم أن تطيح به ثم تفرغ بعده للتغالب على السلطان ، يستوى فى هذا من بايع له ومن قعد عنه ، ومن قام من بداية الأمر يناجزه ويحرض عليه الناس ، فمن عجب أنهم نسوا جميعاً الدواعى التى تفرقهم عن بعضهم بعض — على كثرتها — وذكروا سبباً واحداً اتفقوا عليه هو الحسد الذى لم تحرر نفوسهم من براثنه بعد . وقاموا يدعون علانية وخفية لفض المسلمين عنه . ويعتسفون العلل الكفيلة بتأييد دعوتهم وترسيخ هواهم فى نفوس القوم ولو بالإعنات والتضليل دون التدعيم والتدليل ، ويتذرعون بكافة الذرائع التى يكون من ورائها بث العوائق والعراقيل فى سبيل الإمام . لاغاية لهم إلا الشغب عليه وإفساد أمره ، وإظهاره للملأ آونة فى مظهر العاجز الضعيف وثانية كالمستخفى بقوته عن كل قوة ، وثالثة كالمتثاقل عن إقامة حدود الدين ، وأخرى كالشديد فى غير هوادة والعنيف فى غير لين ، إلى غيـــر هذا وذاك من أوصاف متقاربة ، تصل بين أطرافها المتباعدة أنواع الاتهام ، ثم لاتكون فى رأى الحقيقة إلا حجة له تدفع باتهامها كل أولئك الأخصام .

ثم لاتكاد تنطوى من دورة الزمان إلا أيام حتى يبادر جمعهم إلى الشغب على الإمام لكل فريق منهم طريقة فى النيل منه تختلف والأخريات وإن التقت وإياها فى نهاية المطاف ، فابن أبى وقاص الذى وعد من نفسه إحسان السلوك لم تسكن نفسه وإن سكن جسمه . ولم يضع قلمه وإن أغمد سيفه . بل لاتلبث حتى نراه قد أرسل إلى ابن العاص كتاباً يصف الأحداث حسبما

رأى هواه ، ويكشف عن خفايا دخيلته ببيانه مالم يكشفه بمنطق لسانه ، قال فى الخطاب :

« ... إنك سألتنى عن قتل عثمان . فاعلم أنه قتل بسيف سلته عائشة ، وصقله طلحه ، وسمه ابن أبى طالب ، وسكت الزبير وأشار بيده ، وأمسكنا نحن ، ولو شئنا لدفعنا عنه » .

هذه الرسالة تلقى ضوءاً على جانب من حلقة الواقع التى حدثت أثناء تلك النازلة التى دهمت الإسلام ، وتكاد فى مجموعها تكون صورة صادقة لموقف قريش . رسمتها ريشة رجل منها يستبعد منه أن يتجنى عليها ويظلمها أمام التاريخ ، ومع ذلك فلسنا نرى فيها إلا تحيفاً ظاهراً على على ، مرده فيما نحسب إلى تلك العاطفة التى ما فتئت تثور بجوانح سعد وأمثاله ممن جرت فى عروقهم الدماء القرشية ،.فليست الحقائق السافرة هى وحدها التى أنطقت قلمه وأرسلته يرسم هذه الصوره الفذة لأبطال تلك الحقبه المليئة باصطراع الأهواء . فإنما قريش هى التى سلت السيف وصقلته وسمته ثم دفعت به فى نهاية المرحلة الفاصلة إلى أيدى العادين ليضربوا به الضربة التى خجلت هى أن تضربها . وامتلاء نفوسها بالمطامع هو الذى دفع بها إلى ذلك السبيل . وتفرق هذه المطامع بينها هو الذى ضرب بعضها ببعض ، وردها آخر الأمر إلى فرق تتنازع السيادة وتتذرع بكافة الذرائع للفوز بما تريد . وما كانت حين نقمت من عثمان فعاله بالغاضبة للحق بقدر ما كانت موكولة بتحقيق مراميها من حب السطوة ومظهر السلطان .

ولقد كانت منها فئة قليلة آثرت اعتزال الصراع الناشب بين بقيتها وبين الخليفة القتيل . وجلست صامتة ترقب الأحداث التى أخذت تتجمع رويداً رويداً كسحب الغيث قبل حلول أوان العاصفة الجتاحة ... وكان سعد من هذه الفئة المنتظرة ، فقعد يشهد ما يدور حوله ولا يمد يده إلى شىء منه . لقد فاء من نفسه إلى همة فترت بعد طول نشاط وخمدت جذوتها بعد وفرة تسعر . لم يتحرك مطلقاً لنصرة حق أو لدفع باطل ، كأنما الأمر لايعنيه فلما

بدا له الختام الحزين الذى أسفرت عنه الوقائع ، ملكه الندم على ما سلف منه إلى جوار شعوره بالنقمة على قومه الذين أعانوا بالفعل واللسان على تقويض دولة ابن عفان . وأبى عليه إحساسه القديم ، الذى هو صدى المشاعر القرشية تجاه البيت الهاشمى ، إلا أن يتحيف على على . . . وإلا فكيف نسيغ هذا الحكم من رجل قعد وآثر السلامة على رجل طالما ناضل وكافح من أجل عثمان كما لم يفعل مطلقاً سواه من الخلصاء والأعوان ؟ أم ترى لسان ابن أبى وقاص أرفع صوتا وأعلى جرسا من حديث الحقائق الواضحة والواقع الثابت الذى لا يفيد فى نقضه وانتقاصه سوق أبهام وإزجاء إيهام ! ؟ .

ولكنه كان واحداً من بين بقية أهل الشورى الباقية فى الأحياء ، والتى لم ينس لهم موقفهم من ابن طالب حين كان فى مقدورهم ترجيح كفته لوشاءوا السير على المنهج القويم . بل لعله اليوم أرفق بالحق منهم وإن لم يكن ألصق به ... بل هو أقدرهم على امتلاك ناصية مشاعره القرشية حين أفلت منهم زمامها ولم يسعهم كبحها بعنان . ولقد يكون مرجعه إلى عقدة نفسية غرسها فى واعيته فشله مرتين فى إحسان القيام بمنصبى الحكم اللذين وكلا إليه : مرة فى عهد الخطاب وأخرى على أيام عثمان ، ولقد يكون مرجعه إلى غير هذا أو ذاك من أسباب ، ولكنه فى الحق لم يسلس القياد لهواه كما فعل صاحباه بل لعله فى عين كل منصف يقدر سطوة الدوافع النفسية ولا يفوته إدخالها فى الحساب ، لم يستجب لعاطفته إلا بمقدار قد يغتفر له ولا يلام عليه إلا أيسر الملام ...

أما الآخران فكانا على النقيض تجمعت فيهما شهوة النفس وشهوة الحس حتى أصبحا على غير ما يجمل بخدينين مثلهما من خيرة صحب رسول الله . مال بهما الهوى القديم وغلب حبهما الدنيا على حبهما الحق ، وهو واضح أمامهما ، مشرق ، سافر الوجه ، لا يخفيه عن أعينهما إلا الكلف بالذات كلفاً تعشى به النواظر وتطمس العقول والبصائر ، ولسنا بهذا نتطاول على مقام الشيخين أدنى مطاولة ، ولكننا نثبت الحالة النفسية التى كانت لهما فى ذلك الزمان

والتى لم يستطيعا أن يتحررا من قبضتها الحديدية إلا إن استطاع أن يتحرر من خفق فؤاده كائن حى ثم لا يهجره بعده عامل الحياة ! فقد تأصلت فيهما عاطفة الميل عن على كما تأصلت فى الأسلاف القرشيين من عدة أحقاب وجرت فى عروقهم كجرى الدماء . ولكنهما بغير شك كانا أدنى مرتبة من صاحبهما سعد بمقدار وأحرص منه على عروض الدنيا . ووسعه هو ما لم يسعهما . فحكم عاطفته وبالغا هما فى إسلاس القياد .

وجرى ابن عمر أيضاً على سياسة ابن أبى وقاص ، فلم يصغ لهواه كل الإصغاء . وجانب الفريقين المختلفين طوال مدة الخلاف وإن كان الأولى بمن هو مثله أن يظاهر الحق ويتبعه حيثما يسير . ولكنه هو الآخر صورة قرشية ، قعد عن نصرة الحق لما وجده فى جانب ابن أبى طالب ، أفلو رآه فى قومه أ كان يتوانى لحظة عن القيام فيه ..

لقد يعيي المرء أن يستقصى أسماء أولئكم السادة الذين بادروا علياً بالسيف واللسان يضربونه على حقه بباطلهم ، ويحشدون له صفوفاً من التعلات تغرى به جهال الناس ، ولكنا نعلم أن هذه التعلات لم تكن وقفاً على طائفة منهم دون طائفة ، بل اشتركوا جميعاً فى صوغها على الشاكلة التى تستهوى ضعاف القلوب . وأن المدينة لم تكن وحدها مباءة أولئك المناوئين ، بل انتشروا بكل مكان كان فيه مقام لنفس مريضة أو لضمير مثلوم ، أو لعل أكبر هذه المباءات وأفسحها رقعة بلاد الشام ، تلك التى غدت مسرحا . يمثل عليه مأساة هاشم وأمية كرة ثانية : الإمام على والنهازة معاوية ! ..

٤

بالشعب وللشعب .

ما من خطة احتذاها على فى حياته السياسية إلا كانت تسير وفق هذا

الشعار . حتى من اللحظة الأولى التى تقلد فيها البيعة وحتى فى أحلك ساعات تاريخه القصير ظلمة . . دفعه إلى هذا تكوينه الخلق وسجاياه . ثم ظروف الأحوال التى أحاطت به وسايرته يوما فيوماً .

هذه حقيقة ثابتة يستطيع المرء أن يستشفها من خلال حياة الإمام . . وإن عرضا موجزاً لقصته لكفيل بأن يرينا كيف كان للأحداث أثرها البالغ فى طبع نفسه بالنزعة الشعبية التى هى صورة صادقة لمشاعر الشعب كالحال فى الأصال والخيال . . . ففى طفولته الباكرة لا نحسبه أحس مطلقاً كما يحس أمثاله من أبنـاء الأشراف . فقد فتح عينيه على عيش ضيق أوقر كاهل أبى طالب حتى دفعه إلى توزيع أولاده على طائفة من أهله ليحملوا عنه بعض عبئه . وخرج على من دار أبيه إلى دار محمد وإن بقلبه لشعور الطفل الذى لم يرتو بعد من عطف أبويه . وإذا كانت الأيام ما لبثت أن كشفت له عن فيض من حنان الأبوة والأمومة لا يتسع لمثله قلبان ، فإنه بداره الجديدة لم يعرف العيش المترف الذى كانت تحياه السادة فى ذلك العصر ، بل هو فى أغلب الأحايين كان أدنى إلى حياة الخشونة من أفراد الطبقة الفقيرة ، إذ عاش فى كنف رجل لم يلق باله إلى نعيم دنياه ، وإنما راح يهيئ نفسه وآل بيته لرسالة سامية ارتفعت ألويتها بأيدى المحرومين ، لأنها جاءت لتنشلهم من وهدة الهوان النفسى الذى خلقته الحاجة ، لتكسر الحواجز القائمة بينهم وبين ذوى الثروات وأبناء البيوتات ، ولتقيم للناس عالما جديداً على أساس مغاير هو صفاء الروح . بعد أن كان عالمهم قائماً على المادة الصماء .

وجلى بعد هـذا أن سنى الطفولة طبعته على الغرار الذى شهدناه فى صباه وفى بدء شبابه . وأن هـذا الدرس الأول كان له فى نفسه أثر خالد . فلما سارت به الأيام فى طريق العمر أخـذت تبدو أمام ناظريه عوامل أقدر على تشكيل الخلق من النظرة العابرة التى تلقيها على الدنيا عينا حـدث . وبدأت مقومات شخصيته تتجمع مما استخلصه من سيرة محمد قبيل وفى

مستهل الدعوة السماوية . فلقد كان النبي وحده مثله الأعلى ، وكانت أعماله كلها هي النبراس الذى سار على ضوئه ، سواء فى هذا ما اتصل منها بمظاهر الحياة العادية كالمشي والأكل واللباس وما كان ينم عن اتجاه خلقي معين أو نزعة نفسية ذات طابع خاص .

لقد اتسع دائماً قلب محمد للرحمة . والرحمة لاتبذل إلا لمحروم . والحرمان كلمة تستطيع أن تشمل كل شقاء البشرية ؛ فالضعيف حرم القوة والحول ، والمريض حرم نعمة العافية ، والمظلوم حرم حماية العدالة ، وكل أولئك وأمثالهم ألوان من إنسان يحيي حياة لم تكتمل لها بعد أركان الإنسانية الصحيحة ، قد سلبه المجتمع بعض حقه عليه . . .

هذه صور حية للحرمان الذى يعيش عادة فى وكر الفاقة ويمتص غذاءه من دم الفقير . لا تتمدد مثيلاتها إلا فى الطبقات الدنيا التى تؤلف الكثرة الغالبة فى كل مجتمع آدمى . ولا تتلقى الرحمة إلا من قلب اتسعت جوانبه لمشاعر الإنسانية وما انطوت عليه من آلام . ولقد عاشر على أرحب قلب أنجبته البشرية ، وعرف آيات صفائه وعطفه . فإذا الرحمة التى أضفاها محمد تجد لها صدى فى قلبه . وإذا الألم لهم يهز كيانه ويملأ نفسه بالأمل فى تخفيف ويلاتهم حين يستطيع ، مرة ليستجيب للشعور الكامن فى أعماقه ، وأخرى ليضيف إلى مقومات شخصيته دعامة أخرى من خلق الرجل الكامل الذى أصبح له مثلا أعلى فى هذه الحياة .

ثم جاءت رسالة الإسلام . ومضت دعوتها تشق طريقها جاهدة إلى أرواح الناس . وتفتح بها وعى على ، وآمن بها قلبه ، وصفت لها روحه صفاء لم يعد له فى غيرها صفاء . فما تكشفت له عن تشريع وتقنين بقدر ما تكشفت عن رحمة سابغة تستوعب كل الرحمات وتتناول الشقوة الإنسانية بالدواء الذى يحسم أدواء البشر فى كل زمان ومكان . فإنما الدين هدى . والهدى رحمة تمحو ظلمة الجهالة التى رانت على بصيرة الإنسان . والجهالة فى نهاية الأمر حرمان من النور الروحي أيما حرمان . . .

جلاء الروح كان الغاية المنشودة فى الدعوة المحمدية لأنه الطريق الوحيد إلى إسعاد البشرية . وأيما تشريع نزل به القرآن فهو وسيلة لتنظيم المسائل المنبثقة عنه انبثاق الفروع عن أصل الدوحة . أو هو رياضة دائمة للنفس حتى يتمكن فيها الصفاء كما يمكن الرى للبذرة فى النماء . وقد حرص الإسلام على أن يرفع ظل الحرمان عن الأرض فدعا إلى التحرر من عبودية الدنيا . . دعا إلى السمو عنها ، والارتفاع بالنفس إلى آفاق يتضاءل فيها جبروت المادة فلا يكون لها ثمة سلطان . بل تنقلب فى النهاية مطية طيعة للانسان الكامل الذى تهم أن تصوغه الدعوة الجديدة .

الرسالة السماوية رسمت إذن للناس النهج الأمثل . ونادت نصوص آياتها وروح معانيها بالتزامه لتصل البشرية إلى الخير المطلق — أو الخير الممكن ما دامت لا تتوفر العصمة لإنسان . وكان جماع مبادئها حرب الحرمان فى كافة صوره ، وغايتها محو آثاره عن هذه الدنيا التى اتخذ منها مباءة . وما دام الصفاء قد شمل روح البشر فقد انجلت البصائر ، وصفت الأذهان ، وخلصت النفوس من شوائب الهوى التى هى ركام المادة • وأيسر اليسر بعد هذا أن تتوحد مشاعر الناس من كل جنس وفى كل عصر . فوحدة الشعور هى الخطوة الأولى اللازمة لبناء البشرية على أساس سليم . أو هى فى الحق كل الخطوات . والأعمال المنبعثة عن إحساس واحد متسقة بدون ريب ، لاتفاوت بينها ولا اختلاف ، لأنها صادرة عن نبع واحد كما ينفث القلب الدم إلى الجسد، لا يؤثر عضواً ولا يحرم آخر لأن البلاء فى التمييز وفى الحرمان على سواء .

جاء محمد رحمة للناس من لدن رحيم . فى يمينه تنزيل يبدد ظلمة الجهالة ، وينير بصائر الخلق للحق . ومن استوعب لب الإسلام فقد عرفه دعوة صريحة لسيادة الصفاء على النفس الإنسانية ، وتبييناً للأساليب التى تمكن له ، وتنظيما للأعمال التى تنبعث عنه . إنه هداية إلى حقيقة الصلة بين الخالق والمخلوق ، وبين الخلق بعضهم حيال بعض ، وما يتبع هذا كله من حقوق

وواجبات . وهو فى مجموعه عرض يشمل كل مشاكل المجتمع البشرى ما بقيت على الأرض حياة إنسان . ويصف لكل منها العلاج الذى تستتطب به .

وما من امرىء عنى باستقصاء أصول هذه الأدوية الناجعة إلا وجدها مشتقة من الرحمة . وهل ثمة عاطفة أولى منها بتوحيد شعور بنى الإنسان، وأجدى فى النهاية على آحادهم ومجموعهم ماداموا بها وحدها يرون أنفسهم أعضاء فى بدن واحد ليس يصح كله إلا بصحة أفراده ؟ .

ما من ريب فى أن سعادة البشرية وقف على وحدة الشعور ، وأن هذه الوحدة بدورها وقف على جلاء الروح الذى هدفت إليه تعاليم الإسلام . ولقد استطالت الأعصر بعد محمد وتوالت على الأرض . وتعددت مآسى البشر وويلاتهم وفق تعارض ما يعتمل بنفوسهم من أهواء ، ثم حفزت البلايا طوائف من دعاة الإصلاح إلى اصطناع الأساليب التى عساها تحسم عن الإنسان ما يقاسيه ، فما نرى عقولهم أسعفتهم بوصف حلول تحوم كلها حول ما فصله القرآن . ولقد استيقن على قبل مئات الأعوام جدوى تعاليم الإسلام وتشريعاته فى شفاء الشقاء البشرى فكان أحرص الناس على تطبيقها فى مجتمعه ، فى البدء ببذل الرأى لذوى الأمر ، ومن بعد بقيادة أمته على هذا النهج الأقوم إذ علمه السبيل الوحيد لاستكمال جوانب الإنسانية . ولم يخف اتجاهه هذا عن العيون من قبل أن يلى السلطان . بل كان باديا منه هذا الحرص لكل صحبه وجمهور الناس حتى قال عمر فيه إنه أحرص قادة الأمة الإسلامية بأن يحملها على الحق الواضح والمحجة البيضاء .

ولم يكن إيمان على بالرسالة الإسلامية إيمان انقياد وتسليم ، وإنما كان وليد بحث ودراسة عميقة . وإذا كنا فى البدء رأيناه يبادر إلى اعتناق الدين الجديد وهو فى سن لعلها لا تصاحب النضج الفكرى التام ، فإن قسوة التجارب التى مرت بها الدعوة فى أعوامها الأولى كانت كافية لتصقل ذهناً كذهنه دل دائماً على التبكير فى النضج . وكانت المشاهدة من بعد كفيلة بأن تريه جدوى الإسلام على النفوس التى تفتحت له — على هذه

الحفنات القلائل من الرجال والنساء الذين اعتنقوه فهذبهم أيما تهذيب حتى بدوا بين قومهم الجاهليين كما تبدو الزهور النضرة بين الأوحال ! ومع ما لقيت هذه الفئة الصغيرة من نكال وتعذيب ، فإنها استمسكت دائماً بعروة الدين لأنها استثمرت معه سعادة لم تتذوق مثل حلاوتها فى حياة الرذيلة والأنانية وقلة المبالاة التى كانت تحياها من قبل . فلأول مرة أحست بإنسانيتها الكاملة لأنها ربطت هناءة كل فرد منها بهناءة الآخرين .

نضج تفكير على بالمشاهدة ونضج أيضاً بمعاشرته لصاحب أنضج تفكير أتيحت له الحياة فى هذا الكون . ثم انطلق على الأيام يشبع ميله إلى نهل الحكمة من نبعها الأول : كتاب الله . فما استظهره كما كان يفعل الرواة والحفاظ ، بل استوعبه استيعاب تأمل واستقصاء . وراح يستشف ما وراء ظاهر النصوص ، ويقيس الآية فيه بمثيلاتها ليستخلص أتم الأحكام . وبلغ فى هذا غاية الشأو حتى أصبح عند أهل زمانه صاحب الرأى الاخير فى التفسير ، وصاحب الحكم القاطع فى الفقه والشريعة . وبقيت من بعده آراؤه ودراساته أصولا ثابتة للعلوم الإسلامية فى كل الأجيال .

وبقدر إيمانه بكمال الشرائع التى تضمنها الاسلام ، وكفايتها لتنظيم المجتمع الإنسانى على أساس سليم ، فكذلك كان إيمانه بسنة الرسول . فإن هى إلا تبع للأصل ، وتفصيل لما أجمله القرآن . وإن طاقة العقول البشرية بعد هذين النبعين لمحدودة ، وجهدها فى اصطناع الأساليب التى تستطيع إصلاح العالم لقاصر أيما قصور . فما ثمة أحد أرحم بالناس من الله ، ولا شريعة أكمل من شريعته ، ولا علم بأحوال خلقه كعلمه .

كذلك أخذت نظرة على إلى مجتمعه تنعكس من نظراته العميقة إلى لب الدين . وإذا كانت الرحمة هى الوسيلة الوحيدة لتوثيق الصلة بين المجموعة البشرية ، فهى نور يهب المعرفة ، ومعرفة تبصر الإنسان بأوصابه وأوصاب إخوانه من بنى الإنسان . وعاطفة نبيلة لا تنبعث إلا عن نبيل وبكل نبيل من الخصال والفعال . وأولى العالم بها مجتمع ضعف شعور أفراده بإنسانيتهم

فغلب عليه الحرمان من العلم أو العدالة أو أمثال ذلك من ألوان الحرمان

وطبيعى أن تتعلق رحمة على بأوساط العامة لأنهم أدنى طوائف المجتمعات إلى الحرمان ، فحيثما كانت الفاقة نبلت مآبى البشر ، وحيثما استشرى الفقر فسدت المجموعة الإنسانية التى تحتويه ، لا لأن الفقر فى ذاته رذيلة ، ولكن لأنه مظهر من مظاهر فساد خلقى جدير بالكفاح ، هو انعدام العدالة الاجتماعية بين أبناء المجتمع الواحد ، وإن مرد هذا بلا ريب إلى انعدام وحدة الشعور .

على أن الرحمة التى استشعرها على حيال الطبقات الدنيا لم تكن وحدها ما علا قلبه ، بل جاورها إعجابه بنبلهم ، وإكباره لما بدت عليه نفوسهم من صفاء . لكأن الحاجة صهرت قلوبهم وطهرتها مما يعلق عادة بالقلوب من أدران . . لكأن حسهم أرهفته قسوة الآلام التى أذاقهم إياها المجتمع الظالم وجلت عنه ركام الهوى والمطامع .. فهذه الفئة المحرومة التى كانت إذ ذاك نفاية الطبقات كانت أول طوائف العرب إلى تقبل الهداية ، وأسرعها إلى تلبية دعوة السماء حين جاءها محمد برسالة الإسلام ، ولقد شهد لها على ألواناً من الإخلاص لم تطف ظلالها بنفوس السادة والأثرياء ، ورآها دائماً أقرب إلى الرسول من بردته ، تلتف به ، وتفتديه ماوسعها الفداء ، وتبذل فى سبيل رفع لواء دينه كل ما استطاعته من جهود وتضحيات ، بينما وقف الخاصة يناجزونه وقد حسبوا أنهم قادرون على النيل منه والقضاء على رسالة الهدى والنور .

قد كان لهذه العوامل وأمثالها أثر فعال فى صبغ على بصبغته الشعبية ، وفى توجيهه وجهته إلى أحضان الشعب ، حتى من قبل أن يصلب عوده ويعرف لنفسه حقها فى زعامة الأمة . ثم تلتها من بعد أمور وحادثات له إيمانه بالشعب وزادته اقتراباً من الطبقات الفقيرة التى تؤلف الجانب الأكبر منه ، فلقد لقى بعد وفاة محمد عنتاً من قومه أيما عنت ، وغلبته أهواؤهم الجامحة على حقه الواضح لأنهم نفسوا عليه أن يفوز هاشمى مثله بالخلافة ،

وعملوا جاهدين على ابتزاز سلطانه كلما آن له أن يلى هذا السلطان . . وما من مرة مد بصره إلى صفوف مناوئيه إلا شهدها قد انتظمت أبناء الطبقات المريحة وذوى الأحساب والشرف العريض ، يقفون منه كموقفهم من محمد فى أمسهم القريب . . وما من مرة رد طرفه إلى من وقفوا خلفه يظاهرونه ويرتجون نصره إلا وجدهم من ذات الفئة المستضعفة التى صهرت نفوسهم نار الحرمان — أولئك الذين سارعوا إلى الهداية ، ونشروا الإسلام باستمساكهم به وثباتهم على عقيدته قبل أن ينصروه بأسنة الحراب ورموا بأوطار الدنيا وآرابها دبر ظهورهم إذ لا غاية لهم من هذه الحياة فى مال أو جاه .

ومضت هذه الفترات التى كرثته فيها الحوادث ، والتى عنت فيها رقاب أولئكم السادة لشريعة الحسد والأحقاد ، وانطوت فى الزمن السيار كانطواء الغل فى قلوب أهله . . ثم انتشرت على أثرها صحيفة جديدة من تاريخ الإسلام كانت حرية بأن تكون ألمع صفحاته إذ انتهت مقاليد الأمر إلى أولى الناس به وأصلحهم له بعد رسول الله ، فما يغيب عنا حين نستذكر بيعة الإمام ، ونستعرض العوامل التى أدت إليها ، أن نرى كيف كانت مشيئة طبقات العامة هى الغالبة ذلك اليوم ، وكيف قامت دولة على وحكمه على أكتاف جمهرة الشعب الإسلامى فى كل الأقطار وإن كرهت الخاصة وكره الأشراف .

بالشعب وللشعب .

شعار دائم لم يتغير . وعلم ظاهر على سياسة الإمام لم تبدله الأحداث . وخطة واضحة استمدت وحيها من الماضى بتجاريبه ومشاهداته ؛ ومن الدين بتعاليمه وروح آياته ، ومن الحاضر بتبعاته والتزاماته . وبحسبنا أن نصحب أعمال الرجل الذى سوده شعبه لنعرف إلى أى مدى كان مخلصاً للمبدأ الذى اختلط بدمه وأصبح جزءاً من كيانه . . . حتى من أول خطوة حين قوض التقسيم القديم القائم على التفرقة على توزيع الأعطيات على

الطبقات ، ورده إلى نظام المساواة ليقيم صرح العدالة الاجتماعية التى استهدفها الاســلام . . . وحتى فى ثانى خطوة حين استجاب لشكوى المحكومين من الحكام فراح يعمل على بناء حكم صالح لا يقوم بغير صلاح الحاكم ورضاء المحكوم .. وحتى فى كل خطوة بعد هذه وتلك سارها إبان عهده القصير الذى اصطلحت عليه الفتن والخلافات ، وغالته المحن والشدائد فلم تصب أيها من جلال صاحبه ولامن رعاية قلبه واتساعه لأمته ، ولا من صفاء روحه الذى عاش ومات وهو يجهد أن يطبع الناس على غراره النبيل ..

٥

كاد الناس أن يتبينوا فى أفق الحاضر سمات الانقلاب الذى يوشك أن يتولى الأوضاع المألوفة ، فما غابت عنهم نظرة الخليفة الجديد ، ولا آراؤه فى الحالة القائمة بكافة أركانها فى السياسة والاجتماع والاقتصاد . ولاخفى ما تميزت به أخلاقه من نزعة مثالية لا تهدأ إلى ما كانت عليه الأخلاق العامة من رخاوة حين ذاك . ولأولى بمن كان على شاكلته ألا يصبر يوماً وبعض يوم على هذا الانحراف الخلقى وهو يعلم أن دعامة الأمم الأخلاق .

ولقد بادر الإمام بتنفيذ خطته المثلى فى ذات اللحظة التى رقى فيها منبر الخلافة أول أيام عهده. وفجأ القوم بسرعة البت فى الأمور وحسمها على النسق الذى يؤمن به ويرضاه . ولم يكن ثمة قانون يلتزمه سوى تشريع الله وسنة الرسول لأنهما غاية ما تستطيع أن ترق إليه العقول . فهما نهجه الواضح ، والقبس الذى يضيء أمامه الطريق إلى بلوغ الكمال . وهو بنصوصهما والروح التى انطوت عليه جد عليم . ليس ينقصه بحث ولا دراسة ليتبين الوسائل التى تقيء الاصلاح المنشود .

استشف القوم بشائر الانقلاب الشامل الذى آذن به اختيار على لولاية أمر الدولة الاســلامية واختلفت نظراتهم إليه بين إكبار وإنكار . فلقد

كان جمهور الأمة يتوقع الخير من خلافته لأنه آمن بأن الإمام رئيس أمة قبل أن يكون حاكم دولة . يعنى بشئون الناس كعنايته بشأن أسرة . ويستلهم صالحهم العام بوصفهم مجموعة بشرية لها مشاعرها ، ولها حقوق حياله قبل أن يتقاضاها ما عليها من التزامات . وكان الكيان السياسى فى نظر على تبعاً للكيان الإنسانى ، ونتيجة مترتبةعليه . وكانت وحدة الشعور وحدها بين أبناء المجتمع الواحد هى الكفيلة بضمان الوحدة السياسية . ولن تجد دولة تستطيع أن تعز وتسود إن لم تسد بين أفرادها شريعة الإخاء .

وبقدرما استقبل العامة عهدالإمام بالترحيب فقد عبست له طبقة الأشراف ، وساءهم منه أن يبدأ بتقويض المزايا المادية التى كنبوها فى عهدى سلفيه . وبإنزالهم عن المكانة الاجتماعية العليا التى كان التقسيم العمرى أحد مظاهرها . وكفى بهم حنقاً عليه أن قد سوى بينهم — هم السادة ذوى الأحساب — بالدهماء والأوشاب . ووضعهم وإياهم أمامه بمنزلة واحدة كما هم فى حقيقة الأمر أمام الله . .

لا ريب أن مبعث غضب الخاصة على الامام كان نظامه الجديد فى التقسيم ، أو عوده — بأدق تعبير إلى ذات النظام الذى أستنه رسول الله . فلقد استيقنوا أنه خطوة لن تلبث أن تتلوها خطوات تحرمهم بأسهم وما كانوا عليه من نفوذ وجاه . وإذا كانوا قد ارتضوه خليفة وبايعوه على ملا من الناس فمن غير طواعية اختاروه ، بل انقياداً لسطوة الشعور العام . أما وقد انتهت فورة النفوس الآن ، وأوشكوا أن يطمئنوا إلى هدوء الحال ، فخيرهم إذن معقود ببث المراقيل فى سبيله . أو على أقل القليل — ببذلهم الجهد للابقاء على بعض الأوضاع التى كانوا يعلمون أن الامام سوف يتناولها بالتغيير . .

بغير هذا لا يساغ فهم موقف المغيرة بن شعبة حيال مشيئة على فى تغيير ولاة عثمان . فلم يكن المغيرة من أنصار الامام . ولم يعلم عنه أنه أضمر له شعور الولاء . بل هو لم يبايع له وإن بايع له كثير غيره من الكارهين .

فمن صعب أن يتكلف — رغم هذا — بذل النصح لعلى ويبدو كالمشير الأمين حين لا تكون المشورة من مثله إلا إغراء مستتراً على ارتكاب الأخطاء . . .

قال الداهية وهو يداهن الإمام :

« إن النصح رخيص ، وأنت بقية الناس ، وإن الرأى اليوم تحرز به ما فى غد ، والضياع اليوم تضيع به ما فى غد » .

وأمسك برهة ليرى مدى تأثير قوله . فلما رأى علياً جانحاً إلى السكون عاد فاستأنف الحديث :

« . . إنى مشير عليك أن توسل إلى عمال عثمان بعهودهم . أقرر معاوية على عمله . وأقرر ابن عامر على عمله . وأقرر العمال على أعمالهم ، فإنهم يبايعون لك ، ويهدئون البلاد ، ويسكنون الناس » .

فبادره الامام برأيه القاطع فى أولئك الولاة :

— والله لو كان ساعة من نهار لاجتهدت فيها رأيى . ولا وليت هؤلاء ، ولا مثلهم يولى .

— .. اكتب إليهم بإثباتهم ، فإذا أتتك بيعتهم وطاعة الجنود استبدلت أو تركت .

فجاء الجواب الحاسم ، الولى به خلق على :

— لا أدهن فى دينى ، ولا أعطى الدنى فى أمرى .

ولكن المغيرة لم ييأس بعد ، بل حسب أنه مستطيع أن ينفذ بعض مشيئته بشكل من الأشكال . . فقال :

— فإن أبيت فانزع من شئت وأقرر معاوية ، فإن لمعاوية جرأة ، وهو فى أهل الشام يسمع منه . ولك حجة فى إثباته ، إذ كان عمر بن الخطاب قد ولاه . .

— لا والله . . لا أستعمل معاوية يومين أبداً .

فخرج المغيرة مغلوباً على دهائه ! .

غير أنه — كغيره من الوصوليين — رأى أن يأخذ بالشمال ما لم يستطع

أخذه باليمين . فما هى إلا ليلة حتى عاد ثانية إلى مجلس الامام يعتذر مما سلف منه بالأمس . ويعلن أن رأيه الذى ناضل عنه طويلا وأراد به إقرار ولاة عثمان كان بعيداً أيما بعد عن الصواب . . لقد آثر الداهيـة أن يبدو فى ثياب المؤيد لسياسة أمير المؤمنين وإن لم يكن فى صفوف أعوانه ومناصريه ، وكفاه أن يقف موقفاً لا يثير عليه نقمة الامام ولا يبعده عن عطف أعدائه ليستطيع حين تسنح الفرصة أن يكون صديقاً لا تقفل فى وجهه أبواب الفريق الغالب ! .

فما كان أرخص دهاءه ، وأفضح رياءه ! . . ومع ذلك فقد استمـع له على حتى أتم اعتـذاره ثم شيعه إلى الباب ببسمة ساخرة فيها رثاء بين للحالة التى تدلت إليها رجولة الرجال ! . . وتلاقى المغيرة حين خروجه بابن عباس وقد عاد لتوه من الحج حيث كان أميراً من قبل عثمان . وتبادلا التحية ثم مضى أولهما لشأنه ودخل الثانى على الخليفة الجديد .

وقال ابن عباس ولم يخف عنه أن الدهية الذاهب إنما كان بمجلس الامام لأمر له فيه شأن .

— يا أمير المؤمنين . . ما قال لك هذا الخارج من عندك الآن ؟ . .

فابتسم على . وقص له ما كان .

— يا أمير المؤمنين . . أما فى الأولى فقد نصحـك ، وأما فى الثانية فقد غشك . .

— نصحنى ؟ .

— نعم . وإنك لتعلم أن معاوية وأصحابه أهل دنيا ، فتى تثبتهم لا يبالوا بمن ولى هذا الأمر . .

— ويحـك يا ابن عباس ! . . إن الذى يلزمنى من الحق والمعرفة بعمال عثمان لا يجعلنى أولى منهم أحداً أبداً . فإن أقبلوا فذلك خير لهم ، وإن أدبروا بذلت لهم السيف .

فـكأنما لم تلق هذه الـكلمات مسمعاً لدى الشباب ، لأنه عاد يقول :

— .. أنا أشير عليك بأن تثبت معاوية ، فإذا بايع لك فعلى أن أقلعه من منزله — » .

— لا والله .. لا أعطيه إلا السيف ! .

— يا أمير المؤمنين ، أنت رجل شجاع لست بأرب الحرب . أما سمعت رسول الله يقول الحرب خدعة ؟

— بلى .

— فوالله لئن أطعتنى لأصدرن بهم بعد ورد ولأتركنهم ينظرون فى دبر الأمور لا يعرفون ما كان وجهها فى غير نقصان عليك . ولا إثم لك .

فلم يزد على — بعد هذا الرأى العجيب الذى أبداه ابن عباس وكاد أن يكون صورة من نصيحة المغيرة — لم يزد على أن أجاب بحزم وفى إيجاز :

— يا ابن عباس ، لست من هنيآتك وهنيات معاوية فى شىء .. تشير على وأرى ، فإذا عصيتك فأطعنى .

— أفعل . إن أيسر مالك عندى الطاعة .

قد كان معاوية وأصحابه من ولاة عثمان أهل دقيا فى نظر الناس ، أفكان على كذلك يا ترى فى نظر ابن عباس ؟ .. بل التوفيق جانب الشاب الهاشمى هذه المرة نتيجة لشدة حرصه على توطيد إمرة ابن عمه ، ونتيجة أيضاً للأثر الذى تركه فى نفسه رأى المغيرة الذى كان موسوماً بالدهاء إذ ذاك . وأوشك الفتى ، مقوداً بهذه المؤثرات ، أن يتخذ من المقاييس الخلقية المنحرفة وسيلة لقياس أخلاق الامام كأنه أنسى أى طراز من الرجال كان . .

ولكن النهج الواضح الذى اختطه على لنفسه لم يكن بحاجة إلى رأى مشير لايضاحه أو لادخال تعديل عليه هنا أو هناك ، فما كان يصدر فى أعماله إلا عن دستور قويم واحد ، لا يمكن أن يتناوله التحريف ، هو الدستور الالهى الذى نزل به القرآن وكانت غايته إصلاح المجتمع الانسانى كله بإصلاح الأخلاق . ومن العبث أن تأخذ الفروع بالعلاج وأنت تدع

الأصل فريسة للداء . وكان الأصل فى الدولة الإسلامية أولئكم الولاة الذين أشفت البلاد تحت إشرافهم على حافة انهيار روحى يوشك أن يكون فاتحة كل انهيار . فما كان حكمهم قائماً إلا على استثارة النزعات النفسية الوضيعة فى المحكومين تارة بالترغيب وتارة بالإرهاب ، حتى وصلت بهم الحال إلى سلطان هو الطغيان . فقد ضمر فيهم الشعور بقوة المبادئ السامية والمثل العليا وأوشك على الزمن أن يموت . وإذا فتر هذا الإحساس فإنهم أقرب إلى تضارب الأهواء منهم إلى توحد الغاية ، وانطلق كل فى طريقه نحو هدف خاص يشغله عن الهدف الأمثل الذى يجدر أن يلتمسه مجموع الأمة الإسلامية التى أرادها دين الله على قيادة البشرية كلها إليه .

المثل السامية التى دعا إليها القرآن كان أثرها وشيك الزوال إذ ذاك من قلوب الناس . وكان عثمان عن هذا أول المسئولين . فهو الذى مكن لنقائضها فى النفوس بسياسته الرخوة ، وأقام ملكه على أكتاف عمال أهلتهم للولاية قرابتهم دون كفايتهم . وكان ضعيف الرقابة عليهم . بل هو فى الحق كان يطلق أيديهم فى العمل كما يشاءون ، فانتهجوا من الأساليب كل مايحفظ عليهم سلطانهم ويوفر لهم مظاهر السطوة والجاه ، وإن عارضت هذه الأساليب لب الإسلام ، واتخذوا من بعض رعاياهم أعواناً على البعض ، فقدموا فئة وأخروا ثانية ، وميزوا بالهبات والمناصب رجالا لا يفوقون بقية الأمة إن سلكوا وإياها فى عقد الموازنة ، بل هم أولى بأن يتخلفوا إلى ماوراء الصفوف ، وبعد أن كان العمل وحده هو أساس التفضيل والتقديم ، اصطنع أولئك الولاة أسسا شتى لاجتباء الأعوان : فيها صلة القربى ، وشرف الأنساب ، والزلفى إليهم بكل طرائق المداهنة والرياء . وبعد أن كانت المساواة هى النبع الذى تستقى منه العدالة ، وكان الناس سواء كما وضعهم الله ، أصبحوا فى نظرة الحكام طوائف وطبقات ، وبات التمييز لطبقة دون غيرها هو العدالة السائدة . وكذلك نبت الجور على حقوق أغلبية الشعب من أجل تمييز قلة فيه . ولم تعد

هناك حاجة بالولاة لأخذ الأمة جماء بشريعة المساواة مادام اختيارهم هو أنفسهم للقيام بشئون الولايات لم يكن مرده إلى هذه الشريعة التي لا تعرف المحاباة .

كانت القرائن كلها تدل دلالة بينة على انحراف السياسة العامة عن الجادة التي أوضحها الله . وكان كل عقل يستلهم في تفكيره روح الإسلام يرى — دون تردد — وجوب تغيير هذه السياسة . وهدم النظام الفاسد الذي أقامته وأملت له في البقاء . ولم يكن علي يعرف هذا فحسب ، بل آمن به تمام الإيمان . وحزم أمره على تجييش كافة قواه الذهنية والمادية لإقامة صرح دولته على ذات الأساس الوطيد الذي انطوت عليه نصوص رسالة السماء . لقد بدا جلياً تعذر التعاون بينه وبين عمال عثمان لاتساع ما بينه وبينهم من هوة فكرية ، ولاختلاف مبدئه ومبادئهم اختلاف النقيض والنقيض . وهل كان بمقدوره أن يكل إليهم إنفاذ نهجه الجديد وهو يعلم أنهم لا يؤمنون به ؟ ... وكيف يسعه أن يأتمنهم على سياسة قوامها نبذ الأهواء وإنكار الذات هم الذين أشربوا الهوى واستعبدهم حب الذات ؟ . . فإذا استطاع — رغم هذا — أن يتقبل مشورة المغيرة ، وينزل على رأى ابن عباس في إقرار أولئك الولاة مع ماعرفه من كراهة رعاياهم لهم وثوراتهم المتواترة التي انتهت بمقتل عثمان ، أفكان إذن يأمن ألا ينتقض عليه أمره بهذا الإقرار في كافة الأقطار ؟ ..

لا حافز غير الحرص على توطيد دعامة الحق دفع علياً إلى الاستمساك برأيه في إقصاء العمال الذين ولاهم سلفه . ولا هدف رمى إليه سوى إعادة سلطان الأخلاق إلى مكانه في قلوب الناس كما كان على عهد رسول الله . ولئن وجب عليه أن يقصى ابن أبي سرح وابن أبي عامر عن أريكة الحكم استجابة لرغبة المحكومين، فقد وجب أن يقصى قبلهما معاوية وإن دانت لطاعته الشام . فما من ريب في أن هذا الرجل كان لا يستلهم في كل أعماله غير ذاته ومنافعه الشخصية ، وكان لا يتجه إلا حيثما ناداه طموحه ، ولا يتوسل لهدفه إلا بالوسائل التي يراها ذات جدوى في مجتمع رانت عليه الأطماع وغلب فيه

سلطان المـــادة . ذلك أن الشام كانت أدنى أرض المسلمين إلى الأمبراطورية الرومانية التي اضمحلت شوكتها وأخذ كيانها السياسى ينهار نتيجة لانحلال الأخلاق . وكانت بقربها هذا مرتعاً خصبا لـكافة الآفات الخلقية التي تصيب النفس الإنسانية . وإذا كان ثمة حاكم إسلامى قد أفاد من وراء هذا الانحلال الخلقى فمعاوية ذلك الحاكم لأنه وجده أداة طيعة يستطيع أن يصل بها إلى السيادة بأيسر مجهود . وما عليه إلا أن يعرف جوانب الضعف فى نفوس رعاياه ثم يستعبدهم بنوع الإغراء الذى يستجيبون له . أما استكمال هـذه الجوانب وسد ثغرات النقص الخلقى بالوسائل التي أوضحها الإسلام فذلك كان أبعد عن استعداده وأعسر على نفسه الموكولة بتحقيق أهدافها الشخصية دون التقيد بالتزام سبيل الهدف الإسلامى العام . ولعله من قسوة القدر على الدولة الفتية أن عنت جبهتها ذات يوم لمعاوية . ودانت لحـكمه رقاعها الممدودة لأنه — وإن نشر ظلها على أقاليم جديدة من الأرض — قد قلص فى نفوس أبنائها سطوة الـكمال الخلقى الذى كان الغاية الأولى لدعوة الإسلام ...

على إذن كان منطلق النظرة إلى بعيد . أرسلها تخترق الحاجز إلى المستقبل وتسبق التاريخ قبل أن يرسم أحداثه ، وتستشف من هذه الأحداث التي لم تكن قد كتبت بعد صدق رأيه فى الرجال الذين أبى أن يدع فى أيديهم مصاير الأمة الإسلامية ، ومصاير السمو البشرى الذى كان الهدف الأسمى للرسالة المحمدية . وكانت نظرته أصدق ما تكون فى معاوية . وكانت سريعة كأنها الفـكرة الملهمة لم يعوزه لصوغها كثير تدبير . وبقدر ما حوت من الغيرة على مصير الشريعة الهادية فإنها لم تخل من غيرة على مصير الـكيان السياسى الذى أصبح هو الآن رجله الأول . فما غاب عنه أن فى إقرار ولاة عثمان ضياع الدولة الناشئة وتفتيت وحدتها . ما دام بقاؤهم فى أعمالهم سيلاقى حتما بثورة رعاياهم عليهم وعليه . وأولى به إذن أن يجلوهم عن مناصب الحـكم ، لخير الحق ولخير الخلق .

لذلك لم يتلبث أقل القليل ليحسم الأمور ، بل بادر فكتب إلى أمير الشام :

« من عبد الله على أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبى سفيان .

« أما بعد — فقد علمت إعذارى فيكم ، وإعراضى عنكم ، حتى كان مالا بد منه ، ولا دفع له . والحديث طويل ، والكلام كثير . وقد أدبر ما أدبر ، وأقبل ما أقبل . فبايع من قبلك . وأقبل إلى فى وفد من أصحابك . . . »

وطوت الدابة رقعة الصحراء بغير إبطاء . وقطعت الطريق من الجنوب المجدب إلى الشمال الأخضر النضير ، ثم اجتازت أسوار دمشق إلى القصر الباذخ . وأجال الراكب عيناً حائرة فى الترف الذى طالعه من كل مكان فليس له شبيه فى حاضرة الإسلام ، حتى إذا انفرجت له صفوف الحراس فى ثيابهم الأنيقة ، وبأسلحتهم الشاكية البراقة ، قيد من باب الدار إلى ردهات خلص منها إلى قاعة الإمارة . فإذا ثمة بطانة كبيرة من رجال وعبيد . وإذا بصدر المكان وسادات من حرير اتكأ عليها معاوية تحفه مظاهر الجلال والخيلاء ، تعيد هيئته إلى الأذهان ما تسامعت به الأذن من ملك الروم .

وقدم الرسول كتاب الإمام . وفض الأمير الخاتم ثم ألقى على السطور نظرة ووجهه جامد لا ينبىء عما بقلبه من شعور . ولكنه إذ غاب القادم عن عينيه بعد قليل ، استطاع أن يبتسم فى ازدراء . وفى اتئاد وهدوء وضع رسالة أمير المؤمنين بجواره . ومد يده فالتقط أخرى كانت غير بعيد ، نشرها تحت بصره ؛ وراح يقرأها وشفتاه لا تكفان عن ذات البسمة التى لونتها قلة المبالاة .

« من عمرو بن العاص ، إلى معاوية بن أبى سفيان :

« أما بعد ... ما كنت صانعاً فاصنع ، إذ قشرك ابن أبى طالب من كل مال تملكه ، كما تقشر عن العصا لحاها ! .. »

وصدق ابن النابغة . فهاهى الأخبار قد جاءته بما انتواه على من مصادرة القطائع والأموال التى بعثرها عثمان .

٦

الشام غضبى ... حديث القلوب فيها لوعة ، وحديث الأعين دموع ، يوشك رجالها أن يجردوا السيوف ، ويتدفقوا عبر الصحراء كالسيل صوب الجنوب ... ولكن زمام عواطفهم كان بالقصر — في يد الأمير الشحيم ، المندحق البطن الواسع البلعوم ! ... فهو وحده يستطيع أن يسير آلة الحقد الضخمة التي يؤلفون أجزاءها ، يدفعها إن شاء ويوقفها إن شاء ، أصابعه فيها الحركة وفيها السكون ، كأنها أذرع الأخطبوط تتحرك إلى كل وجهة وهو ثابت في مكانه .

كان تاجر أهواء . كل نزوة نفسية لها في قائمته ثمن معلوم ، وكل هوى يلقى في سوقه من الرواج بقدر ما يجره عليه من الربح . يستعرض العواطف كما يستعرض السلع ، وينتقى منها أجداها عايه ، ومن وراء أسوار قصره المنيف كان يلعب بأحاسيس الناس . ويربط بين قلوبهم وأطماعه كما ترتبط الدمى بأصابع مهرج قابع خلف ستار . . . وكان حاذقا يجيد التمثيل ، يكاد أن يرى الأثر الذى ينشده من الاعيبه آخذا سبيله في النفوس ، بالغاً منهـا أعمق أغوارها وإن بقى هو ساكنا إلى وساداته ، ساجى الطرف ، يشبع نهمه من الأطعمة الشهية التى كانت — بعد أطماعه السياسية — أحب هواية إليه في الحياة .

أصابعه الماهرة استطاعت أن تحرك الجماهير . وتلعب على أعصابهم حتى ملكتهم العواطف الجياشة وأشفت بهم على حافة الجموح . ولم يكن يخشى أن يفلت منه الزمام فما للدمى مشيئة سوى مشيئته هو الذى يمسك الخيوط . ولم يخش أيضاً فتور المشاعر المشبوبة ، فقد أحسن إمدادها بالوقود . ولن يفتأ الناس كل مطلع شمس أن تضطرم في قلوبهم نار اللوعة حين يدخلون مسجد دمشق ، ثم تعصف بهم ثورة الغضب حين يبرحون أبوابه ولن يكف شعورهم عن التذبذب

بين هاتين العاطفتين بضع مرات فى اليوم بعدد الصلوات . فثمة على المنبر مشهد تغلى له دماء الرجال ، وتتقد نخوتهم . وما دامت فيهم عين ترى فلن تهدأ لهم ثائرة قط . فهذه بقايا المأساة التى شهدتها المدينة قائمة أمامهم تتلقفها الأبصار كلما تولت شطر القبلة . إنها شعيرات من لحية عثمان تجمد عليها دمه ، وقميصه قد بدت فى ديباجته الدامية تلك الخروق التى نفذت منها أسنة الثوار إلى قلبه وحملت إليه الموت ، وسلاميات أصابع جافة برزت من بين ألفافها كأنها تهيب برجولة أهل الشام أن يبادروا للانتقام ! .

إثارة النزعات النفسية كانت تجارة معاوية سليل التجار ! ... وقد أثارها كما شاء وملأ بها قلوب رعاياه حتى لم يعد ثمة رجل منهم إلا يتحفز للثأر ممن أشعلوا نار الفتنة على عثمان . وبحسبهم أن تطالعهم آثار المأساة فى كل ساعة من الليل والنهار لتظل موجدتهم مشبوبة لايخمد لها ضرام . فما استطاعوا أبدا أن يعرفوا الأسباب الحقيقية للثورة ، ولا مدى المسئولية التى كانت واقعة على الخليفة تجاه أمته وأدى تهاونه فى الاضطلاع بها إلى اندلاع لهيب العصيان. ولكنهم ألقوها نظرة عابرة على حادث المصرع كشفت لهم من الناحية السطحية منه — الناحية الحزينة العاطفية التى يبدو من خلالها شيخ واهن ، أثقله العمر ، قد اقتحمت عليه مأمنه فئة باغية لم تأخذها فيه شفقة وراحت تستمتع باعتصار بقايا الحياة من جسده الضعيف .

بذلك القميص الذى مزقته الأسنة ، وبالسلاميات الجافة ، وبالشعيرات اللاصقة بعنبر دمشق استطاع معاوية أن يصل من قلوب رعاياه إلى مالا تستطيع بلوغه أبلغ خطب التحريض وأشدها حرارة . الآثار الثلاثة كانت باعث غضب جامح مجتاح عصف بالنفوس كأنها الخرقة الحمراء حين يلوح بها أمام ثور ! ... غير أن حاكم الشام لم يجن من وراء عرضها إثارة سورة الغضب المائج فحسب، بل وسعه أن يبدو بها بطلا ماجدا فى عيون شعبه لا يقعد عن الثأر لضعيف مظلوم .

بدا فى ثوب الناقم على قتلة الخليفة ، الحزين غاية الحزن لمصرعه . ولكنه إلى هذه اللحظة لم يكشف عن خطته ولا عن الطريق الذى يريد أن يوجه فيه نقمة هـذه النفوس الغضبى . لم يكن قد أكل نسج شباكه فآثر التريث ، غريزته التجـارية دلته على أن التمهل أجدى على أهدافه المريضة وأدعى إلى تحقيقها على الوجه الذى يرتضيه . ولئن لاح سخطه واضحاً على مثيرى الفتنة التى سالت فيها دماء عثمان فإنه لم يبين « من » هو أولاهم بتحمـل تبعة هذه الدماء المهراقة . واكتفى بأن ظـل ينفخ فى النار التى أججها بصدور أهل إقليمه . عساه يستطيع — إن أسعفته الظروف — أن يدفعهم عبر الصحراء صوب الجنوب ! .

ثم أخذ رويدا رويدا يتبين السبيل الذى يصـل به فى نهاية الشوط إلى مراميه . وراحت الأخبار تترى عليه من كل جانب فتزيده استمساكا بأطماعه ، وأملا فى قرب تحقيقها على النحو الذى يريد . وكانت عينه دائماً على المدينة . ترقب كل ما يحدث فيها . وعلى الجالس الآن بمسجدها يحاول أن يوجه سياسة الدولة المترامية التى آل حكمها أخيراً إليه . ولم يفته اضطراب الأحوال بالحاضرة الإسلامية غب مقتـل عثمان . ولا القوة التى ظلت فى أيدى الثوار كالسيف المصلت على الرقاب . فقـد بقيت لهم شوكتهم عزيزة مرهوبة بعد أن حققوا بالأسنة ما أعياهم تحقيقه بالوسائل السلمية . وباتت لهم فى النفوس رهبة ، إذ ظلوا على اجتماعهم ولم يتفرقوا إلى أمصارهم كما كان المتوقع منهم بعد إنفاذ مشيئتهم. وكان من العبث أن يقهروا على الخروج وهم يملكون من السلاح والعتاد مالو شاءوا لكروا به ثانية على أهل البلدة العزل الآمنين .

ومن حق غالبية الثوار أن ننصفهم أمام التاريخ . فلم يلجئوا إلى الثورة حباً فى الفتنة والعصيان ، ولكنهم كانوا فى الحقيقة أفرادا أثارهم الظلم الذى وقع على مجتمعهم بأيدى ولاة عثمان وبأسباب نظمه السائدة التى دب إليهـا الفساد فى أخريات أيامه . فلما أن ثقلت عليهم وطأة العنت هبـوا يلتمسون

عنده الخلاص . وساروا إليه حيث كان بمحاصرة الدولة يحملون ظلاماتهم عسى أن يرفق بهم وينزع عن سياسة الوعود المتوالية التى لا يفرغ لها معين . ولم يكن لهم مطلب قبله سوى أن يوفر لهم الحياة الإنسانية الكريمة التى وعدهم إياها الإسلام . ولكن السبأية انتهزوا الفرصة السانحة فأشملوها فتنة مشبوبة تحقق لهم أغراضهم الهدامة وترد الدولة الفتية مزقا محلولة كما كانت قبل الرسالة ، واستطاعوا بأساليبهم الملتوية أن يوجهوا الوفود الساذجة النازحة من البلدان وفق هواهم ، ويتخذوا منها آلة هدم وتقويض . حتى إذا انتهت الفتنة ، ورأوا دماء الخليفة الصريع تبلل أيديهم ، خشوا إن هم انفضت عنهم جموع أهل الأمصار أن يسهل تناولهم بالقصاص ، فراحوا يوقعون فى روع كل رجل شرك فى الثورة أن أمنه رهين بأمنهم ، وسلامته موقوفة على بقائهم فى الحياة .

وكذلك تماسكت هذه الوفود ، ووحدت بين أفرادها خشية النهاية كما جمعتهم فى بادىء الأمر وحدة الغاية ، ووقفوا عن كثب يرقبون نظرة أهل الحاضرة ونظرة الخليفة الجديد فيهم ، وكانت طوائف كثيرة من موالى المدينة وعبدانها قد انحازت إليهم إبان الثورة وظلت بعدها لا تحيل عنهم ، بل ساكنتهم معسكراتهم المنتشرة على أطراف البلدة .

على أن اضطراب الأحوال ، وتقلقل الأمن بالمدينة لم تكن وحدها ما يهيج خاطر حاكم الشام ، فقد علم أنها عارض عابر كتلك الاضطرابات التى تجىء عادة فى أعقاب الثورات وتهدأ حدتها على الزمن . وعلم أيضاً أنها عائق — كبقية العراقيل الطارئة — كفيلة أقدام ابن أبى طالب أن تسحقه لو أمهل له فى تناولها بحنكته وتدبيره ، ولكنه رأى بثاقب نظرته من خلالها أحداثاً شتى تهم أن تسير سيرها وتفسد على الأمير الجديد أمره إن وجدت اليد التى تعرف كيف تحركها وتدفع بها إلى الأمام ، وكان قدر معاوية فى عونه ، والظروف إذ ذاك تتواتر وفق رغباته فى ذلك الوسط الذى كانت الكلمة العليا فيه للأهواء والمطامع ، حتى لكأنما كل شيء كان

يتحرك بإملائه ، فما عدم قط اليد المحركة وإن لم يدفعها هو إلى الحركة ، ولم تنم عينه اليقظى عن تتبع أصابعها التى كانت تعمل دائبة فى السر والعلانية من أول يوم تسنم على فيه مقعد الخلافة . وكان الرجل بمجلسه فى قصر دمشق وهو يرقب الحوادث دائم الرضا عن زمانه ، موفور الثقة فى المستقبل الخصيب القريب ، يكاد يتبين حلمه القديم ينفلت من ألفاف الماضى — من قبر أمية وحفرة ابن حرب — ويثب قائماً على قدميه ينفض نثائر أكفانه . . ويوم أتاه كتاب عمرو بن العاص ، لمعت فى أفقه بوارق آمال رأى على أضوائها كافة العوامل التى يسعه تجنيدها لتنطلق به نحو النصر ! .

إن ثمة رجالا شردتهم الثورة قد ضربوا واجفى القلوب فى زوايا الأرض وما زالوا يحلمون بتبوؤ مراكزهم تحت الشمس ، وثمة آخرون من أقرباء الخليفة القتيل وخلصائه ينقمون اليوم من على قراره بحرمانهم الهبات والقطائع التى منحهم إياها عثمان ، وثمة طوائف الأشراف والسادة الذين أخذت من زهوهم شرعة المساواة الشاملة ونزلت بهم إلى صفوف أبناء الشعب ، وهؤلاء جميعاً ينتظرون ساعتهم ، ويستطيع معاوية أن يلحقهم به ويؤلف منهم كتلة العصيان التى تناهض الحاكم الشرعى للدولة ، ولم يكن ينقصه لنسج خيوطه وحبك مؤامرته إلا أن يبدو بطلا أمام التاريخ أو على الأقل بطلا فى عين رعاياه وأعين سواهم من سذج البلاد الإسلامية ليمهدوا له طريقه إلى تحقيق حلمه القديم فى السيادة

كان ينقصه العلم الذى يلتف حوله أنصاره — الفكرة السامية التى تظهره مناضلا من أجلها ، باذلا فى سبيلها وحدها الجهد والدم والأموال ، لا فى سبيل منفعته الشخصية أو مأربه الخاص ، ، فما أتيح قط لحركة أن تنجح إلا إذا هدفت لغرض نبيل أو تظاهرت بأنها قامت تهدف إليه .

وقد وسعه أن يستخلص الغرض الذى يبدو فى مسوح النبل لكل مفتون بظواهر الأمور لا يعنى بتقصى جواهرها ولا بالغوص إلى ما عساها تنطوى عليه ، وكان هذا الغرض هو الغضبة لعثمان ، والأبى على مصيره ،

وما يتبع هذا وذاك من لزوم السعى للأخذ بثأره والاقتصاص من قاتليه العتاة . فبه لاح موكولا بمحاربة البغى الذى وقع الشيخ المهيض فريسة لعدوانه ، وكان هو ولى دم القتيــل ، فهو إذن أولى الناس بالانتصاف له ، وإذ كان أقوى أهله وأبلغهم سطوة ، فإنه أقدرهم على بلوغ هذا الهدف الإنسانى النبيل ، وكان فى حاجة إلى معونة الجمهور أكثر من حاجته إلى معونة أصحاب المطامع الذاتية ، الذين لا بد سيحتويهم وإياه نفس الطريق المؤدية إلى مناجزة الإمام . فلما أثار فى الأول حميــة النخوة ، ولوح للآخر بالمنافع المنتظرة ، كان قد استطاع أن يخضع لأهوائه أنبل العواطف البشرية وأخسها فى آن .

من قصر دمشق امتدت عينه ترقب حوادث المدينة فلم يفته منها شىء ، وإذا كان عمرو بن العاص قد نصب من نفسه هادياً يوضح الأمور له ويدعوه للمبادرة إلى العمل المنتج الفعــال ، فهذه منة لعلها تستحق أن يذكرها سليل الأمويين بالشكر وعرفان الجميل . ولـكنا لانحسب معاوية إلا مزج الشكر بالسخرية . وافترت شفتاه عن بسمة ماكرة صفراء فما خفيت عنه نفس صاحبه القابع هناك بحـدود فلسطين يشم الريح كما تفعل الضبع فى وكرها ، إذ ترهف أنفها لتتعرف إلى أين تدب لتستمتع بأشــلاء جيفة ! ... الوصولى الثانى فى الإسلام كان هو الآخر يخضع قلبه وعقله لقواعد الحساب . ولا يبذل الحركة والـكلمة إلا بثمن معــلوم ، وإنها لناحية من نفسه مكشوفة بغير شك لعين معاوية سيد الوصوليين ! .

كأنهما شق رحى ، أحــدهما كفء الآخر ، قد جمع بينهما نفس المحور ، بل هما جدولان انحدرا من ذات النبع ، لا يتميز المرء منهما علامة خــلاف ، ولقد بلغ من استمسا كهما معاً بشرعة المنافع وتقديمها على ما وضعته الإنسانية من اعتبارات أدبية ومقاييس خلقية أن قرنا فى الصف الأول من عبـــاد المادة وأسرى الطبيعة الآدمية التى كبلتها قيود الغرائز البدائية ، وكانا شكلين ، عطفت قلبيهما الاهواء الدنيوية ، ومازجت بينهمــــا حتى لاحا فى

الناحية النفسية كتوأمين . فما نلوم بعد هذا من رد نسبهما إلى صلب واحد خرجا به إلى هذه الحياة ! . . وثمة صحيفة من صحائف فجور الجاهلية تنتشر عن النابغة أم عمرو كامرأة تلقفتها آونة مضاجع الرجال ، فلما خرج ابنها إلى النور تهامست الألسن عن أبيه ، وتاهت حقيقة نسبه بين بضعة نفر من سادة العرب إذ ذاك ، منهم العاص ، ومنهم أبوسفيان .. ولكن الأم حزمت أمرها على أن تلصق وليدها بأول الرفيقين ، إذ كان أوفر النفر ثروة ، وأسخاهم عليها في الإنفاق ، فكأنها بهذا الاختيار قد ضربت لابنها أول مثل في تغليب المادة على أوثق العلاقات ، وإنه لمبدأ رضعه من ثدييها ، وظل يدين بناموسه مدى عمره المديد ، حتى غاب جثمانه في التراب ! ..

على أن معاوية رأى في ابن العاص نموذجا للرجال الذين يؤيدون له قضيته حين تدعوه الحاجة إلى حشد جيوش الأباطيل . وكان لم يزل بعد في دور الإعداد فادخره إلى ساعته . واكتفى بأن يرقب الحوادث السيارة بقلب الدولة ، ويجهد قدر وسعه للإفادة منها وتحويلها إلى صالحه الخاص . كان شديد الحذر كدأبه ، لا يكشف عن غاياته إلا إذا حان الوقت المرقوب . لذلك لم يبادر الإمام بالخصام حين أتاه كتابه ، بل آثر التريث فلم يستجب لدعوته ولم يجاهره بالعداء . وإنما ظل ساكناً يداور الرسول الذى ينتظر ببلاطه بضعة أشهر دون أن يفوز منه بالرد المطلوب . فلعله خشي إن هو أظهر الخلاف أن تستقيم الأحوال لعلي فيستطيع أن يهدم تحته إمارة الشام فضلا عن تقويضه صروح آماله العريضة في حكم دولة الإسلام . وبقي رابضاً بقصره يلقي سمعه وبصره كليهما على المدينة ويدبر خططه حسبما يأتيه من الأنباء .

ولم يطل به الانتظار فإن الهوى ابتنى عروشاً في قلوب كثيرة سوى قلبه. ولكن خبراً واحداً كان له في نفسه فعل الخمر . أحس على أثره بنشوة فتحت له باب أحلامه على مصراعيه ... لقد أوشك الزبير وطلحة أن يتمردا ويرفعا علم العصيان ...

اثنان من أهـل الشورى ! . . أعة من هو خير منهما بين صحب رسول الله ؟ . . . بل الثالث الباقى على قيد الحيـاة لم يبايع هو الآخر ! . . بل عائشة أيضاً تلك المؤلبة الأولى ضد عثمان ، المنادية بالثورة عليـــه بصوتها الجهير ، الداعية إلى قتله بكل مكان ، قد أصبحت اليـوم تذرف الدمع ، ورأيت باطلا ما رأته حقـاً بالأمس ، ثم مضت تسير على رأس فتنة جديدة لن يصلى نارها سوى الإمام ! . .

ماذا فعل على ليبوء بنقمة هذه الصفوة المختارة من بناة الإسلام ؟ . . . التاريخ لا يعلم . . صحائفه فى هذه الناحية بيضاء ، ليس بها نقطة واحدة تشين الخليفة الجديد . ولـكن سفر النفوس الناقمة كان شديد السواد ، ملأته أحقاد الماضى إلى دفتيه . والناس فى كل زمان ومكان هم الناس ، أسرى ماضيهم . تجرهم خلفها الأهواء المنبعثة عنه دون أن يتبينوا إلى أين تسير . .

كل ما بدا من أسى عائشة لمصير عثمان ليس بغريب . بل هو أدنى إلى الرقة التى ينطوى عليها قلب المرأة ويتفجر نبعها إذا ما جرحته الملمات . وقد كانت عائشة — فيما يلوح — امرأة فوارة الأحاسيس . لا تعرف القصد فى عواطفها ، بل تطلقها إلى أقاصيها . فلما غضبت على عثمان استرسلت على سجيتها إلى ذروة الغضب فدعت إلى قتله . حتى إذا جاءها نبأ مصيره الفاجع لان قلبها ، وعطفها عليه رحمـة دافقة فياضة مسحت غضبها القديم منه ودفعتها إلى المبالغة فى الغضب له . وإذا كانت بهذا الشعور الجديد قد استجابت لرقتها كامرأة ، فإن موقفها من على فى ذات اللحظة يبديها أنثى وفية لأنوثتها غاية الوفاء ! قد ملـكتها غريزتها الأنثوية حتى انساقت فى حقدها عليه إلى مدى لم تسيطر عليه حكمة ولم يحده عقل .

لعلها قلبت سفر المـاضى ، ذلك اليوم من ذى الحجـة ، وركبها المنطلق الى المـدينة قد وقف بالطريق ينتظر أمرها بالمسير . والذكريات ماثلة أبداً للواعية اليقظى ؟ والمشاهر التى تبعثها تنبثق عنها كما ينبثق النور عن ومض البرق ، سريعاً ، لا تستغرق من الزمن إلا لمحة من لحظة . . . فما إن سمعت

أن البيعة انعقدت لابن أبى طالب حتى حضرها كل ماضيها وانكشف أمام عينيها كلوحة مرسومة . . .

وصاحت بالركب الواقف ودماه وجهها من بغتة الخبر تكاد أن تغيض : «ردونى ! . . ردونى ! . . »

واستدار الركب . وراحت القافلة تضرب فى عكس اتجاهها الأول ، عائدة صوب مكة التى لم تكن برحتها إلا منذ قليل — تماماً كما انطلقت الآن مشاعر السيدة إلى عكس مسلكها السالف . فما أعجب أن تكون أحاسيسها طيعة هكذا فى يديها ، تحركها فى ذات اللحظة من أقصى النقيض إلى أقصى النقيض ! غير أنها طبيعة أنثوية دافقة ، لا سلطان للعقل على عواطفها الجياشة. وما كانت عائشة لتستطيع أن تملك نفسها فى تلك اللحظة إلا أن استطاعت أن تمنع بكفيك انحدار سيل ! . .

وهتفت وهى حانقة مغيظة وبصرها يشير إلى السماء ثم ينخفض فيشير إلى الأرض :

« والله ليت هذه انطبقت على هذه إن تم الأمر لابن أبى طالب ! . . . قتل عثمان والله مظلوماً . . والله لأطلبن بدمه »

فحركت كلماتها فضول من سمعها ، فإذا رجل منهم يقول لها فى استنكار :

— ولم ؟ .. فوالله إن أول من أمال حرفه لأنت ! .. ولقد كنت تقولين اقتلوا نعثلا فقد فجر . .

— إنهم استتابوه ثم قتلوه . وقد قلت وقالوا ، وقولى الأخير خير من قولى الأول.

ولكنها حجة لا يبررها ما سلف به لسانها فى حق عثمان ، كما لا يبررها قعوده عن صد أذى أهل الأمصار وإصراره على إبقاء ظلاماتهم معلقة بدون علاج . وعائشة أنكرت هذا منه وظلت ناقمة عليه حتى لقد أبت أن تبقى بالمدينة لتكف عنه الناس حين حصروه بداره ومنعوه الماء . بل ودت لو ألقته بيدها فى البحر لتخلص الأمة من عهده ! وتمضى على الأثر إلى مكة

فلا يمنعها خروجها لأداء واجب دينى مقدس من محاولة التخذيل عن الشيخ وبث كراهيته فى نفوس الحجيج القادمين من كافة الأقطار . ولولا أن أبى عليها ابن عباس أن يكون لسانها الداعى بدعوتها لشهدت البلدة الحرام ناحية أخرى من نواحى حقدها على عثمان . . . ثم راحت وهى بموطن الإحرام لاتنى تستنبىء كل قادم وتتنسم أخبار المدينة بلهفة عسى أن تعلم ما يهدىء خاطرها ويجنبها قلق الانتظار . فلما أن ألقى إليها ذات يوم بنبأ مكذوب عن انتصار الشيخ على خصومه وقتله المصريين صاحت فى غضب واستنكار:

« . . . أيقتل قوماً جاءوا يطلبون الحق وينكرون الظلم ؟ . . والله لا نرضى بهذا . . . »

فما كان أعجب غضبها له بعد قليل ! . . ومع ذلك فهل اقتنعت هى حقاً أنه تاب ؟ . . وهل التوبة عن حيف يكفى أن تكون بلفظة لسان دون تغيير الحيف ؟ . . وإلى أى مدى نزع عثمان عما أثار عليه سخط عائشة وسخط الناس ؟ . . وماذا يا ترى منعها من النهوض لنصرته حين كان فى حاجة إليها وهى بالمدينة ما دامت قد آمنت بصدق توبته ؟ . . وكيف وسعها البقاء بمكة دون أن تستعدى أهلها على الثوار لصالح هذا التائب الذى تركته فى مأزق لا يرجى له منه خلاص ؟ . .

لا حجة لها فى الدفاع اليوم عن عثمان سوى حقدها على الإمام . فما زالت نفسا مقروحة منه . وما زالت مشاعرها ، بكل ما تنضح به النفسية الأنثوية التى تجمع النقائض ، تزدخر بالكره له . فهى امرأة قبل أن تكون عائشة ، لها خلائق المرأة ، ولها طبيعتها . وهى جامحة الأحاسيس تنقاد لشعورها حتى غاياتها ولا تملك أن تحد من غلوائه . وقد زودها الماضى بذخر من البغض ادخرته لابن أبى طالب مذ الساعة التى شهدته فيها لا يقف إلى جانبها حين حاكت حولها الألسن الباغية حديث الإفك . وهى أيضاً مشبوبة الغيرة ككل حواء ، لا تستطيع أن تحرر قلبها من سلطانها القاهر .

وكأية أنثى كان صدرها يجيش بعواطف أمومة مختزنة تنتظر أن يعينها الزمن على إطلاقها لتحبو بها صغيراً تسعد به ، فلم يسعفها القدر بتحقيق حلمها الجميل وبقيت طوال الأعوام التى عاشتها زوجاً عاقراً لا تستطيع أن توثق الزوجية برباط من البنوة . لكم ودت لو دفعت إلى محمد طفلا من دمها ومن صلبه يضفى عليه فيض حنانه ، وتعيش هى على مدى الأحقاب فى ذراريه ! . . ولكنها نعمة حرمتها فأحزنها الحرمان . وما أحسبها إلا كانت تشعر بشىء فى صدرها يشبه الحسرة وهى تنقل بصرها فترى زوجها الحبيب يهب رعايته فتاته الزهراء . ويوليها عطفاً كانت تود عائشة لو أولاه طفلة تمتزج فى عروقها دماء الزوجين . غير أن خديجة نعمت دونها بهذه الميزة . وعاشت فى ذرية محمد بعد الموت إلى نهاية الأبد . خديجة الزوج الأولى ، التى عاشرت رسول الله ربع قرن لم تغضبه خلاله مرة ! وتزوجها وهو شاب وهى فى طريقها إلى الكهولة فلم يجمع بينها وبين زوجة أخرى ، ولم تسعده امرأة بعدها بمثل ما أسعدته ! خديجة هذه تنال من حب محمد ما لم تستطع عائشة نيله وإن كانت فتاة حلوة صغيرة السن ؟ وتهبه من الولد وهى عجوز ما عجزت عنه الجميلة الصغيرة ؟ وتبقى على الدوام ماثلة فى خاطره بعد موتها لأنها لم تبرح أبداً قلبه ! وما أكثر ما سمعت عائشة رسول الله يذكرها أمامها بعبارات إعزاز كانت تشعر معها أن هذه الغائبة عن وجه الدنيا تستأثر دونها بأكبر نصيب من حب زوجها العظيم ... ولندع عائشة تفصح بلسانها عن شعورها الحقيق إذ تقول :

« ما غرت على أحد من نساء النبى ماغرت على خديجة . . . وما رأيتها، ولكن كان النبى يكثر ذكرها . وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء ، ثم يبعثها فى صدائق خديجة . فربما قلت له كأنه لم يكن فى الدنيا إلا خديجة . . فيقول إنها كانت . . وكانت . . وكان لى منها ولد » .

فهى باقية وإن ذهبت . تعيش اليوم فى خاطر محمد كما عاشت بالأمس فى دنياه . وتكاد أن تملأ عليه آفاق فكره لا يشغله عنها وجود عائشة ،

ولا حسنها ، ولا صباها . باقية أبداً فى الزهراء الرقيقة ، وفى الحب الأبوى الكريم الذى يفيض به قلب رسول الله . باقية أيضاً فى خلجات نفس عائشة بقاء شعور الغيرة العجيب الذى لا ينى يراودها فى كل لحظة . وهل آلم على نفس الزوج الصغيرة من إحساسها بالخوف من امرأة ماتت ... وضعفها أمام شبح يطل على بيتها من خلل الماضى ويلقى ظلالا قاتمة على سعادتها الزوجية .. الزمن لم يستطع أن يشفيها من هذا الخوف ، أو يحجب عنها صورة ضرتها الخطرة وراء ستر النسيان . بل قد حالف خديجة ، ومضى يعيدها إلى الحياة مرات ومرات . ويكررها فى أحفادها كما كررها فى بناتها وأولادها . فإذا هى صور شتى تطالع عائشة كل يوم ، وتطوف عليها بيتها فتملأ سمعها وبصرها بعد أن كانت صورة واحدة لشبح يعيش فى وهم الذهن . فأى خليط من المشاعر كان يجتاح نفسها كلما ألقت العين على محمد وهو يداعب أحفاده ويوليهم حنان قلبه الرحيب ! أهو الغيرة على الزوج الأولى التى صارت اليوم فى أشخاصهم حقيقة تتجدد بعد أن قاربت أن تكون ذكرى !.. أم الحسرة على حرمانها الولد الذى حلمت أن يكون نسلا لها من رسول الله تعيش خلاله على مدى الزمن السيار !.. أم الحقد على غريمها ابن أبى طالب وقد تفرد وحده بنقل سلالة زوجها الحبيب إلى الأحقاب !..

كانت أنثى كأية أنثى ، تسمع لوحى قلبها وتلبى نداءه فما خالفت طبيعة المرأة حين غارت ، وحين ملكتها الحسرة ، وحين حقدت . فإن هى إلا واعيتها التى تكلمت — برغمها — وتحركت ، ودفعتها إلى موقفها العدائى للإمام . وإذا نطقت الواعية فلها الكلمة المسموعة ، وضاع صوت العقل الهادىء الخفيض فى ضوضاء المشاعر الصخابة ...

٧

جاز ركب عائشة دروب مكة فاجتذب إليه الأنظار . وملكت الدهشة نفوس الناس حين رأوها تعود ثانية ولما تبرحهم إلا من قليل . فعهدهم بها قد خرجت تروم المدينة بعدأن قضت عمرتها . ولكنها الآن قد غيرت وجهتها ، وسار ركبها والألسن تلغط حوله . ويتحدث كل امرىء بظنه عن السبب الذى عادت من أجله أم المؤمنين . ولم تفصح هى عن شىء . بل جنحت إلى الصمت . وكانت الأعين قد انتبهت إلى الموكب فتبعته الأقدام وسارت خلفه إلى باب المسجد . وأناخت السيدة بعيرها ، وترجلت ، ثم انطلقت إلى الحجر فاستترت فيه ، ومن ورائه قامت تخاطب الجموع :

« يا أيها الناس . . »

فألقوا إليها الأسماع .وهل عساها تعود فتخطبهم إلا فى أمر خطير عظيم؟.

« . . . إن الغوغاء من أهل الأمصار ، وأهل المياه ، وعبيد أهل المدينة اجتمعوا أن عاب الغوغاء على هذا المقتول بالأمس الأرب ، واستعمال من حدثت سنه ، وقد استعمل أسنانهم قبله ، ومواضع من الحمى حماها لهم ، وهى أمور قد سبق بها لا يصلح غيرها ، فتابعهم ونزع لهم عنها استصلاحا لهم . فلما لم يجدوا حجة ولا عذراً خلجوا ، وبادروا بالعدوان ، ونبا فعلهم عن قولهم ، فسفكوا الدم الحرام ، واستحلوا البلد الحرام ، وأخذوا المال الحرام ، واستحلوا الشهر الحرام . والله لأصبع عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم ! . . فنجاة من اجتماعكم عليهم حتى ينكل بهم غيرهم ، ويشرد من بعدهم . ووالله لو أن الذى اعتدوا به عليه كان ذنباً لخلص منه كما يخلص الذهب من خبثه ، أو الثوب من دونه إذا ماصوه كما يماص الثوب بالماء . . . »

وتفرق الناس بعد حديثها هذا شيعاً ، وكان أولى بهم أن تتوحد كلمتهم فى هذه المحنة الحازبة التى أصابت الإسلام . فبم تدعوهم اليوم أم المؤمنين ؟

وإلى أية غاية تريد أن تسير بهم ؟ ... لحرب الغوغاء ؟ ... للزحف على المدينة وفيها الأمير الشرعى للبلاد؟ ... قد أوشكت كلماتها أن تشكك الناس فى مسلك على حيال أصحاب الفتنة إن لم تكن قد ألقت فعلا ظلالا سوداء على نواياه وهى بعد فى قلب الغيب . وراحت البلدة الحرام — وهى مباءة قريش تطن بالضوضاء حول اسمه طنين الخلية .

وتلقف القوم خطاب عائشة فلاكوه فى أفواههم وخرجوا منه ما شاءوا من أقاويل ، فكذلك وجهتهم كلمات الذائدة اليوم عن دم عثمان . وهل عسام يستخلصون من حديثها ومن عودتها الفاجئة حين علمت ببيعة ابن أبى طالب إلا أنها — لأمر لابد يتصل بدعوتها الجديدة من قريب أو من بعيد — قد آثرت أن تتجنبه وتلجأ فى الانتصاف للخليفة الشهيد المظلوم إلى غيره من الناس ...

وكانت مكة إذ ذاك تعج برجال الحكم المهدوم من ولاة عثمان وخلصائه وأقربائه . فما سرت إلى أسماعهم صيحة أم المؤمنين حتى رأوا فيها القشة التى قد تنقذ بجدهم الغريق. وأسرعوا جميعاً إليها . يلتفون حولها ، ويضمون أنفسهم فى خدمة الغرض الذى قامت فيه . ولو أنها دققت نظرتها لرأتهم أجمعين أقبلوا لخدمة مآربهم وإنقاذ سلطانهم القديم أن يضيع . والتحقت بها أيضاً طوائف كثيرة من الأهلين الذين استهوتهم من دعوتها ناحية المروءة فيها ودفاعها عن مظلوم ، واستهوتهم أيضاً شخصية عائشة وما لها من مكانة عالية فى القلوب . وكان بنو أمية لاريب أول من لحقوا بها ، وانضووا تحت رايتها . فإن هى إلا ساعات حتى اجتمعت بها رؤوسهم الذين شردتهم الثورة ، فيهم سعيد ابن العاص ، والوليد بن عقبة ، ومن كانت مكة موئلهم فى ذلك الحين ، وهم على شبه يقين أن دولتهم لن تلبث حتى تعود ثانية إلى الحياة .

وانطلق إليها الحضرمى أمير البلدة الحرام من قبل عثمان يسألها ويقول :

« ما ردك يا أم المؤمنين ؟ »

فأجابت وقد ملكتها غلواء عاطفتها حتى ما درت أنها بهذا الجواب

تخالف موقفها الذى وقفته من عثمان من بضعة أيام ، وتنتقل به من النقيض إلى النقيض :

— ردنى أن عثمان قتل مظلوماً .

— فما ترين ؟

— أرى أن الأمر لايستقيم ولهـــذه الغوغاء أمر . فاطلبوا بدم عثمان تعزوا الإسلام ...

فما أبرأ مظاهرها من كلمات فى باطنها فتنة مشبوبة . . إنها بها قد هدمت أول دعامات الحكم الشرعى فى الدولة بأن اغتصبت حق توجيه الولاة ، وإلقاء الأمر إليهم دون تفويض بهذا ممن له وحده حق التوجيه . واستغلت قدرها عند الناس فى امتلاك ناصية سلطان ليس لها وليست تقدر عليه . فما أوتيت العلم بأمور السياسة . ولغير هذا أهلها طبعها الحاد الذى يقفز بها دائماً إلى أقاصى الغايات دون إفساح الطريق لحكمة العقل . وكماها خطأ أن غضبت لفتنة أوشكت أن تخمـــد فقامت تعالجها بفتنة جديدة لن تلبث أن تتأجج نارها وتندلع ألسنتها المحرقة حتى تعم الدولة الإسلامية كلها وتلهبها بسياطها فى كل مكان .

ويعجب المرء لهذه الهمة الفائقة التى راحت عائشة تبذلها لجمع الناس تحت رايتها . ولهذا النشاط البالغ الذى وسعها أن تبديه فى هذه الآونة العصيبة ؛ هى التى ظلت طوال عمرها قعيدة دارها تكاد لا تساهم فى الحياة العـــامة بأى نصيب . فما زاد دورها من قبل عن خبرة بالشئون الدينية ترشد بها من أراد علمـــاً ومعرفة . وقد انقضى عليها بعد وفاة رســول الله نحو ربع قرن من الزمان كان أثرها خــلاله مجهولا تماما عن صحائف التاريخ لولا ما يدر من نقمتها على عثمان فى أواخر أعوام عهده . حتى هــذه النقمة لم تنفرد بها ولم تثرها وحـــدها عليه . بل سايرت فيها الشعور العام الذى أجمع عليه جمهور الأمة الإسلامية . أما هـــذه الدعوة الجريئة الجديدة فقد بدت وثبة عالية إلى النشـــاط السياسى غير متوقعة منها ، يكاد المرء أن يتساءل معها محيرا :

أكانت ابنة الصديق تقفزها لو أن الجالس على مقعد الخلافة كان رجلا آخر سوى الإمام ؟ . .

غير أنها كانت وثبة على أى حال ... وثبة موفقة فى نظر المشاعر التى اضطرمت بنفسها على الأمير الجديد ، ذلك الرجل الذى امتلأ قلبها بالبغضاء له وناصبته العداء لأنه ذات يوم لم ينصرها على الشبهات التى التفت بها وإن يكن لم يرمها أيضاً بكلمة اتهام . ولكنها طبيعتها الجامحة مع العواطف التى دفعتها إلى هذا الموقف تقودها إليه عوامل شتى من السخط والغيرة والحسرة ، حتى انتهت الفتنة التى أشعلتها بالحوادث إلى أسوأ انتهاء . فما يمكن أن ينسى أثر موقفها فى المصير المحزن الذى اختتم به عهد الإمام ، بل اختتم به عهد السلطان الروحى الذى كان يرجى من ورائه كل خير للدولة الإسلامية الناشئة لو كان أجله قد امتد بضع سنين . وهل من ريب فى أن فتنتها كانت سلاحا حاداً فى أيدى الأهواء والمطامع ، تلقفه بنو أمية وغيرهم من الوصوليين ليبلغوا مآربهم ، ويقيموا دولة زمنية على أنقاض الحكم المثالى الذى قصد إليه الاسلام ؟ .

كانت دعوتها نداء عالياً أيقظ فى النفوس أهواءها النائمة ، وكانت أيضاً دعوة إلى التمرد على الحاكم الجديد ، وإلى تهوين شأنه عند رعاياه ، وعند الولاة القائمين على الولايات حينذاك ، فقد لاح طلبها بدم عثمان فى بادىء الأمر دعوة إنسانية بريئة ، ولكنه فى حقيقته كان خطة سياسية بعيدة الغور تحمل فى قاعها الانتقاص من قدر على بوصفه الأمير الأول الذى يجب أن توجه بلسانه أمثال هذه الدعوات ، وعليه دون غيره الانتصاف لكل مظلوم من ظالميه ، وله وحده الكلمة النافذة عند شعبه وعماله . وقيام عائشة بدورها هذا جعل كثيراً من الناس يحسبونها ماقامت قومتها إلا لأن أمير المؤمنين قد أبى أن يبدأ القيام ، أو فترت همته دون إيقاع القصاص بقتلة عثمان ، بل إن منهم من رأوا فيه رجلا قعد عن نصرة حق وجب أن ينصر لأن له مأرباً من وراء هذا القعود ، وجرت ألسنتهم فيه بالظنون الظالمة حتى أظهروه فى أحاديثهم

شريكا للثوار تقع على رأسه مثلهم دماء القتيل ، وكان هذا أرهف سلاح أمدت عائشة به معاوية وأنصاره ، فما زالوا يشهرونه في يد باطلهم حتى نالت الأقدار من على نيلها وغيبته عن ميدان الصراع .

ولم تكن دعوة عائشة ذات أثر فحسب على نفوس ذوى الأطماع الذين رأوا في قيام حكم علوى ما يبدد أحلامهم في النفوذ السياسى ، بل تجاوزتها إلى كل من رنا إلى هدف شخصى ومنى نفسه ببلوغه ، وإلى طائفة من ضعاف العزائم الذين لا يثبتون عند رأى ويميلون مع النزعات المتضاربة كل ميل ، وإلى السذج الذين يستهويهم في الأفكار المبثوثة زخرف سطحها دون قيمة جوهرها ، وإلى المغلوبين على مشيئتهم ممن بايعوا علياً انسياقا مع الرأى العام دون رغبة حقة في تنصيبه للخلافة . . فكل أولئك جرفتهم دعوة عائشة في غمارها فانطلقوا معها إلى آخر الشوط ، واستجاب لهم من كانوا على شاكلتهم بغير مكة ، كلما سرت أنباء صيحة أم المؤمنين إلى بلاد الدولة الإسلامية مع الركبان ، وكانت مدينة الرسول أول بلدة صك سمعها صوت الفتنة إذ جاءها على ألسنة العائدين من زيارة بيت الله الحرام ، فما نشب أن وقع فيها خلاف بين على في ناحية وبين طلحة والزبير في الأخرى ، أدى في النهاية إلى ضياع ما قاما فيه وحاربا عليه من أيديهما ، ووقوعه طعمة سائغة لابن أبي سفيان .

يكاد المرء كلما أجال ذهنه في شأن الصاحبين أن يجزم بأنهما لم يخلصا النية حين بايعا الإمام . هما حقا تقدما إليه صفوف الناس ، وبادرا فسلما عليه بتحية الخلافة قبل أن تمتد إليه كف أخرى ، ولكنهما — مع ذلك — لا نراهما فعلا هذا انسياقا لشعورهما الخالص بقدر ما فعلاه مجاراة للشعور العام . ولقد يبدو أنهما رأيا السلامة في البيعة له ، وخشيا على نفسيهما من غضب الجمهور إن جاهرا بالامتناع ، فآثرا إعلان غير ما يحسان . ولكنها أيضاً خشية معزوة إلى الوهم واضطراب الخيال وليست إلى الحقيقة التي أثبتتها من

قبل ومن بعد قرائن الأحوال فما علم قط عن على أنه دفع الناس للتحزب له أثناء الأزمة التى انتهت بمقتل عثمان ، ولا اتخذ دعاة يروجون لتوليته ويأخذون معارضيهم بالعنف كى يناصروه . بل الثابت أنه كان أبعد الزعماء عن ميدان التنافس على السلطان ، وأزهدهم جميعاً فى السعى إلى الخلافة ، وأكثرهم اعتزالا للجماهير التى ظلت بضعه أيام تهتف باسمه، حتى إذا قهرته على الاستجابة لمشيئتها لم يقبل منها البيعة إلا أن تكون بالمسجد ، على مسمع ومرأى من الخاص والعام ، ليرى الكافة رأيهم فيه قبل أن تسند إليه الإمرة ، راجياً من وراء هذا أن يوفر حرية الرأى للجميع على السواء ، يؤيده من شاء ويرفضه من شاء . وتمت له بيعته على النحو الذى أراد . فما علمنا أن أحداً خالفه قد أخذ بالعنف الذى يؤخذ به العصاة ، بل تركهم أحراراً وبالغ فى الترفق بهم وإن واجهوه بالرفض والإباء .

ومع ذلك فقد لاح أن الندم لم يكف عن الطواف بقلبى طلحة والزبير منذ اللحظة التى أدليا فيها بالبيعة إلى الإمام . فما غادرا المسجد ذلك اليوم حتى تبينا إلى أن مدى غمط كلاهما حق نفسه حين مسحا بكفيهما على يد الرجل الذى أصبح على الأثر أميراً للمؤمنين . وبدا لهما أنهما قدماه بغير موجب وآثراه بأمر هما أولى به . فما سعى سعيهما إلى الخلافة ، ولا نشط كنشاطهما فى تأليب الناس على عثمان وتحريض الثوار حتى حصروه وقتلوه ، بل قد كانت حياة الخليفة القتيل أدنى إلى النجاة لو أنه استمع لرأى على واستجاب لإرشاده . وكانت خطط الصاحبين وتدبيرهما لبلوغ السلطان أقرب إلى الفشل لو أقره عثمان على قتال الثوار وأخذهم بالعنف قبل اشتداد ضغطهم عليه .

وفى الحق لسنا نرى إلا أن الندم هو أولى الانفعالات وأجدرها بسكنى هاتين النفسين بعد الذى أصاباه من خيبة الرجاء . فقد ذهبا يدأبان لابتزاز سلطان عثمان فما أفادهما الدأب . بل سقطت الثمرة المشتهاة فى حجر على وهو ساكن لا يرفع إليها بنانه . وعجيب أن يهدم القدر صروح

أملهما المفشود فى اللحظة الأخيرة ، ولـكن الأعجب منه أن يتخذ منهما معول هدم . . . منيا النفس طويلا بخلافة يشتركان بها فى حكم الدولة الإسلامية العريضة ، أو لعلهما اتفقا على قسمتها دويلتين تدين كل منهما لأحدهما وحده ، أو ربما استنبطا نظاماً جديداً من الحـكم ادخراه ليوم النصر ، ولـكنهما أحالا النصر المرقوب إلى خذلان لم يدر ببال ، ومزقا بكفيهما ستر الحلم الجميل ، الذى ظلا طويلا يرنوان نحوه ، فانهتك عن حقيقة شوهاء طالعتهما من خلاله .

كانت فرصة ذهبية ، أتاحتها لهما الظروف المواتية فى الوقت الحـاسم ، فضيعاها . كانت فرصة العمر كله ، جاءتهما ذلولا وقدم على لم تثبت بعد على درج المنبر ... فى هذه اللحظة الفاصلة كانا أدنى إلى إمرة المسلمين منه ، وأقرب إليها كما لم يكونا مطلقا من قبل . وأوشكت أن تنعقد البيعة لأحدهما أو كليهما حين خيرهما ابن أبى طالب بين أن يبايع لهما أو يبايعاه . . . بل قد مد إليهما كفه يكاد أن يحييهما بتحية الخلافة . وكانت البيعة إذ ذاك حرية أن تتم بيده لو قبلاها . حرية أيضاً أن تلق رضاه الشعب الذى كان يلقى السمع والطاعة إليه . فلو قبلاها ...

ولـكن الخشية التى نزلت بقلبيهما فى تلك اللحظة أضاعت الفرصـة ، وقلبت النصر هزيمة ، وما أمر الخذلان ساعة ارتقاب الفوز ! . . الخشية من الجماهير المفتونة بحب على دفعتهما إلى التردد فى قبول عرضه السخى الـكريم ، ثم إلى الإحجام عن قبوله ، ثم إلى رفضه بمنطق اللسان وإعلان غير ما يحسان . وما نحسب طلحة إلا يذكر تلك اللحظة وهو آسف محسور ، ويجيل بذهنه مادار فيها من حديث قصير ونفسه تقطر ندماً .

يقول له على :

« ابسط يدك يا طلحة لأبايعك »

فتندفع الـكلمات إلى طرف لسانه بالجواب غير المرقوب :

« بل أنت أحق بها ... أنت أمير المؤمنين فابسط يدك ... »

فلعله نطق بها دون أن يريد : ولعله لم ينتبه إلى خطرها على آماله إلا بعد أن انفلتت من بين شفتيه وسمعها كأنها آتية من غير فمه ! ... ولكنها كانت قاطعة كالسيف . ما أسرع أن قررت مصيره وقصفت عود أطماعه فى الخلافة بعد أن ظل يتعهد نضرته وأزهاره منذ عهد الصديق . ومضت تلك الساعة خاطفة ، لا تستأنى ، ولا تمهله ليصلح سقطة لسانه ! .. وراحت حوادثها تعرق كالسموم ، وتتدفق كالسيل المتحدر من شواهق الجبال . ولو استطاع الرجل لجهد ليسترد كلمته ثم يخفيها عن الناس فى قرار سحيق ! ... لكنها كانت شيئاً كلحظات العمر ، يذهب إلى غير مآب . يملكها صاحبها مرة واحدة إذ هى هامدة الحس خلف شفتيه ، فإذا عرفت اليقظة فإنها كفيلة بأن تملكه على مدى الدهر مرات تزيد وتتجدد بقدر الأسماع التى تستقبلها ، ما دامت قد تحررت من أسر الصمت وسرت مع أنفاسه إلى فضاء الانطلاق .

ما ونت هذه الصورة تبدو لطلحة وزميله وتفسد عليهما صفو الأيام ، وتعكس فى نفسيهما ظلالا قاتمة من حسرة هى نتاج الندم المر الذى أصاباه . وهل آلم على المرء من أن يمكن لغريمه فى أسباب التفوق عليه ، والفوز دونه بالنجاح المأمول ؟ ..

ولكنهما جاهدا الحسرة ، وأحالا طاقتها المستعرة إلى نقمة حاقدة تطوف بالإمام ، وكلما عادت بهما الذكرى — فيما بعد — إلى ذلك اليوم الذى ضيعت فيه كلمة عجلى غرس الأعوام ، راحا يهربان من عتبى النفس ، ويحاولان التأسى على ما فات باعتساف سبب من الأسباب يعزوان إليه ضياع الثمرة المشتهاة ... وما كان أكثر تحدثهما بهذا السبب الموهوم ، فى كل زمان ومكان ، جهرة وفى الخفاء ، كلما سئلا فى قصة البيعة ... كانا دائماً يقولان :

« .. إنما صنعنا ذلك خشية على أنفسنا ، لقد عرفنا أنه لم يكن ليبايعنا ! ... »

ولقد سبق إلى يقينهما عقب انعقاد الأمر لعلى أنه لن يكون لهما فى

عهده شأن معلوم ، ولن يصبحا كبيرى أثر فى توجيهه إلى معالجة الأمور كما يريان ، لأنهما يعرفان اعتداده بقدر نفسه ، وشدة وثوقه فى صدق نظراته ورجاحة رأيه ، وعسير عليهما إذن أن يجدا عنده غير مايلقاه سواهما من أصحاب رسول الله ، فما هو بمتهافت الإرادة فيستعير منهما العزم ، ولا بالجبان فيسألهما الشجاعة ، ولا بالغر فيطلب منهما المشورة ، وليس ثمة ثغرة فى شخصيته يمكن أن تسدها ميزة يملكها دونه أحد الصاحبين ، بل هو أدنى النـــاس — بعد محمد — إلى الـكمال بألوانه العديدة ، وأقربهم إلى التزام منهاجه . . عرفا هذا فى خلقه ، وفى علمه ، وفى سداد رأيه ، وفى كل صفاته ومزاياه ، فعلما من أول لحظة أنه مستغن عنهما بما زودته به طبيعته وفطره عليه تكوينه ، وأيقنا بضآلة الأثر الذى سيكون لهما فى نظام هو القائم عليه ، وما يتبع هذا من ضعف نفوذهما فى دولته ضعفاً أفصح عنه طلحة فأحسن الإفصاح حين قال :

« مالنا فى هذا الأمر إلا كحسة أنف الـكلب ! » .

فهذه مشاهد من نفسيهما تضاف إلى ذلك المشهد القديم الذى يطالعنا من خلال المـاضى وتنطق خطوطه وألوانه بالحســـد للإمام ، والغيرة على المـكانة التى بلغها بسجاياه وميزاته من قلب محمد وبرز بهـا على كافة قادة الإسلام . وهى تفسر لنا كل ما يصدر عن هذين الصاحبين من تصرفات كانت فى الواقع صدى لمشاعرهما التى ظلت آونة محتبسة فى صدريهما من خشية . . فلما أن رأيا من على ترفقـــا بمن رفضوا بيعته ، وجاءت على الأثر صيحة عائشة تحمل فى طواياها الانتقاص من قدره ، اتقـدت فى قلبيهما جذوة النقمة ، ومضيا يهدفان — علانية وخفية — إلى النيل منه . فما تركا أبداً موقف المتربص به الذى يحتمل جاهداً أن يتصيد له الهنات ، بل راحا ينتهزان كل فرصة عابرة لإظهار معارضتهما له ، التى قصدا فى الواقع أن تكون خطوتهما إلى العصيان وإعلان التمرد عليه . وما نراهما كانا مدفوعين بدوافع صادقة تستلزم ســـــياسة الشغب التى انتهجاها حياله ، ولو أننا

استعرضنا محاور الخلاف بينهما وبينه لم نجد فيها واحداً يدعو إلى الخصام بالكلام فضلا عن امتشاق الحسام ، ولكنهما سارا كما قادهما السخط ، وكما دعتهما الفتنة التى انطلقت من مكة ، فاندفعا بغير تبصر فى سبيل العداء ، حتى ليبدو لكل عين أن إفساد أمره عليه كان وحده الغاية التى يبغيان .

على أن من حق الشيخين علينا أن ننصفهما فنقول إنهما ذهبا إلى الإمام ينذرانه قبل أن يجاهراه بكل هذا العداء ... أجل قد فعلا . وانطلقا إليه بعد البيعة يحدثانه بغير استحياء ويكشفان طوية نفسيهما فى وضوح وجلاء .. قالا له :

« أتدرى يا أمير المؤمنين علام بايعناك ؟ . . »

فأجابهما بالجواب الذى ليس ثمة سواه :

— على السمع والطاعة وما بايعتم به أبا بكر . .

— كلا ... ولكن بايعناك على أننا شريكاك فى هذا الأمر ..

شريكان ؟... فهذا نوع جديد إذن من المساومة على اقتسام السلطان ! ..

وطبيعى أنه رفض ما عرضاه . وطبيعى أنهما أيضاً ثارا لرفضه الذى انقطع به كل أمل لهما فى السيادة ، فانطلقا يعلنان سخطهما ، ويغلوان فيه بغير تبصر وإن حمل فى ألفافه معانى الاتهام لهما دون اتهام الخليفة . . . بل لعل حديثهما ذاك كان خير شهادة منهما بنقاء صحيفة على مما أعلقوه بثوبه — فيما بعد — من قطرات دماء عثمان ...

. . . وقف الزبير فى حشد من قريش يشكو إليهم عسف الإمام ، وقلة بره به فقال بصوت ممرور :

« هذا جزاؤنا منه . . . قمنا له فى أمر عثمان حتى أثبتنا عليه الذنب وسببنا له القتل ، وهو جالس فى بيته قد كفى الأمر ، فلما نال بنا ما أراد جعل دوننا غيرنا ... »

ونهض طلحة على أثره فقال :

« ما اللوم إلا أنا كنا ثلاثة من أهل الشورى . كرهه أحدنا ، وبايعناه وأعطيناه ما في أيدينا ومنعنا ما في يده ، فأصبحنا قد أخطأنا ما رجوناه . . »

وما كان لهما من رجاء بعدأن أبى عليهما هذه الخلافةالمشتركة إلا أن يبعثهما واليين على بعض الأقاليم ! فما زال لهما حزبان بالبصرة والكوفة وشيعة عسى أن يتسربا بها ذات يوم إلى احتلاب النفوذ كله في الدولة الإسلامية . ولكنه بعث دونهما ولاة آخرين فحق إذن أن يلحياه ! . .

وشاعت مقالتهما هذه في الناس حتى بلغت مسامع الإمام . ولعل شيوعها كان بعض خطتهما عسى أن يغنما من ورائه ما كانا يطمعان فيه . ولكن علياً ظل ثابتاً على رأيه فيهما ولم يزد على أن أرسل إلى ابن عباس يستشيره فيما كان ...

قال له :

— بلغك قول هذين الرجلين ؟

— نعم ياأميرالمؤمنين .

— فماذا ترى ؟

« أرى أنهما أحبا الولاية . فول البصرة الزبير وول طلحة الكوفة ، فإنهما ليسا بأقرب إليك من الوليد وابن عامر من عثمان . . »

فضحك علي وأجاب بهدوء :

« ويحك يا ابن عباس ! . . إن العراقين بهما الرجال والأموال . ومتى تملكا رقاب الناس استمالا السفيه بالطمع ، وضربا الضعيف بالبلاء ، وقويا على القوى بالسلطان . . ولو كنت مستعملا أحداً لضره ونفعه لاستعملت معاوية على الشام . . »

٨

الوقت عليهما ثقيل ، لا يكاد يتقلص ظله . فى حسبان الشعور عاشا أحقابا طويلة تحت راية هذا العهد الذى أبغضاه ، وتحت حكم هذا الرجل الذى سادهما فى غفلة منهما ودون انتباه . . . وفى حسبان الزمن ماعاشا سوى ليلة أو ليلتين كل لحظة فيهما كانت الدهر بطوله .

ولكن الليلة الواحدة تستطيع أن تتسع لشغب العمر ، وتفيض خلالها نقمة الصدور المقروحة فى دفعة . فما يطيقان التريث ولو إلى غد ، ويرميان بصرهما إلى المستقبل الفسيح أمام كل نفس تتعلق بالغد القابل بعد أن تودع الأمس الراحل فيريانه أضيق من كف بخيل . . . بل لعلهما لم يرياه على الإطلاق ، وحسبا الشمس ستكف بعد لحظتهما هذه عن البزوغ ، وأن الكون سيسكن ويقف وقفة الأبد . . . وإن فى قلبيهما لسخطا فياضا ماله حدود ، قد يستغرق الزمن بأكمله إن أطلقاه رويداً رويداً على مدار الأيام . فأولى إذن بهما أن ينفضاه الآن .

الآن ؟ ... إنها الكلمة ! ... وهى الزمن كله وليس بعدها آنات أخرى ولا أزمان ! ... وهى الجعبة التى تتسع لحشد كل ما يحسان ! وهذا شعورهما: فى النفوس عذاب ، وفى القلب نار حامية ذات لهب مشبوب . كلما أكلت من القلب ذكت وعلا ضرامها الطاغى فالتهم التبصر وحكمة العقل ، ودفع الصاحبين الممتنع فى الخصومة إلى غمار الخلاف كما يندفع المحروق إلى الخلاء على غير هدى وإن علم قبل أن تعلق بأذياله النيران أن لفح الهواء يسرع به إلى مهاوى الهلاك .

ولم يكن قد فات سوى يومين على البيعة — على العهد الذى ارتبطا به أمام الله وأمام الناس . ومع ذلك فلم يكفا عن معارضته والشغب عليه . وأطاعا النفس الحاقدة فى عصيان من وجبت له عليهما الطاعة . بادراه

بالخلاف من أول لحظة ، ولو أتيحت لها الفرصة المواتيـة لبادراه به أثناء البيعة . . . فكأنى بهما — وهو على المنبر — قد أخذا يده ليقطعاها لا ليشدا عليها ويصافحاها برهاناً على الولاء .

ولكنها نزوة تملكت نفس طلحة ، وأعدت الزبير بعدواها . وسقطة وقع فيها الأول بدافع شهوة الحكم التى نمت بقلبه أعواماً طويلة، وانساق إليها الثانى بدافع حسده للإمام المعروف عنه منذ عهد الشباب ، وبدافع الإغراء أيضاً الذى زينه له ابنه عبد الله — ابن أسماء بنت أبى بكر وربيب عائشـة أم المؤمنين . فأعجب بها من زمرة تنتهى فى النهاية إلى أصل واحد هو أول الخلفاء — أول منازعى على على تراث رسول الله — وتتصل به صلة قربى من بعيد ومن قريب!.

هذا حزب من تيم ! . . . اجتمع فيه طلحة ابن عم الصـديق ، وعائشة ، وأختها أسماء ، وزوج هـذه وابنها الزبير وعبد الله . قد ربطت بينهم عصبية الأسرة قبل أن تربط بينهم غاية مشتركة . ثم قرنتهم الموجدة على الإمام فى سلك واحد لأنه من بيت يطولهم إن ذكرت مفاخر الجاهلية ، وأمجاد الإسلام ثم ألف قلوبهم على منازعته أنه نازعهم ذات يوم سيادة كانت له وابتزها منه شيخهم الأول . ثم لعبت بأحدهم شهوة الحكم حتى رأى نفسـه أولى بالإمرة من كل أمير . وجنحت واحدة لوحى قلبها الملىء بالغيرة على غريمها القديم . ومال الفتى كيل خالته التى رعته كابنها وقد حرمت الولد فكره مثلها ذلك الغريم ، وهفا إلى المجد إذ كان حفيد خليفة رسول الله وفرع أسرة أصبح لها اليوم فى أعين الناس مكان مرموق ، وأطوع المجد إليه هو ما يأتيه من خلال أبيه : ابن عمة محمد وصهر الصديق ، وأحد أصحاب الشورى المرشحين للخلافة ، فهلا يستجيب الزبير لإغراء ولده ، ولدعوته إلى الكفاح من أجل السيطرة إذا دعاه وفى نفسه بضعة من حسد لابن أبى طالب راسبة منذ عهد الشباب .

يقول على :

« ما زال الزبير منا أهل البيت حتى نشأ ابنه المشئوم عبد الله ... »

وقد صدق الإمام . وجاءت الحوادث من بعد فأيدت حديثه . وبدت خلالها أصبع الفتى توجه الرجل إلى كل خلاف . وتكاد فى كثير من الأحايين أن تصفو نفس الأب فيهرع الولد إلى تعكير صفوها بتحريك النزوات التى رسبت وكادت تستقر فى القاع لتطفو على الصفحة وتعود ثانية إلى الظهور .

كلها عوامل شخصية تلك التى حملت الزبير وطلحة على مخالفة على وإبداء العداء له ... مشـــاعر ذات ألوان ، لها على النفوس سطوة عاتية ... نقمة أسرة !... وقد استجاب الصاحبان لها ، وانساقا أمام التيار النفسى بغير روية يحاولان هدم الإمام وتقويض إمرته تحته . ولغير غاية عامة انطلقنا مسرعين فى هذه الطريق المحفوفة بالأغراض والمطامع . فكأنما رانت الأهواء على بصائرهما فلم يميزا بين الخطأ وبين الصواب ، بل راحا يعارضان الإمام فى كل عمل قام به أو أوشك على إنفاذه حين كان يجدر بهما أن يؤيداه ويشدا أزره . وليس أبلغ فى الدلالة على انسياقهما مع الضغن من تحريضهما الناس عليه لمـــا سوى فى القسمة وهما يعلمـــان تمام العلم أنه لم يأت ببدعة من لدنه وإنما أقر نفس النظام الذى سنه رسول الله .

ومع ذلك فقد أغضى كريماً عن هذا الاجتراء ، واكتفى بأن قابلهما بحجته القاطعة ومنطقه الدامغ . ولـكنهما لم يكفا عنه ، ولم يقعدهما عن دعوة الفرقة والشغب وضوح حقه . بل انطلقا يؤلبان عليه أصحاب الأفياء الممتازة والأعطيات السخية من ذوى الأنســاب العريقة — أولئك الذين نقموا منه تسويته إياهم ببقية أبناء الشعب . فهل ترى غاب عنهما أنهم جميعاً كانوا أنصار قضية يخذلها الحق تضمهم أمام عيون التاريخ فى صف الباطل ...

نوشك أن نتهم ذكاء الرجلين لو حسبنا فطنتهما إلى هـــذا الحد من القصـــور . ونوشك أيضاً أن نغمطهما القدرة على استحداث كل أساليب الفتنة والخلاف التى حذق استحداثها طلحة على أهون تقـــدير . وتنطق

الحوادث نفسها بغير هذا الافتراض الذى ينقص من مهارة الشيخين وتشهد لهما تبييت النية وإتقان التدبير . فقد كانا أبرع من أن يرميا بسهم واحد ولا يرميان بآخر على أثره حين أرادا إصابة الهدف المطلوب . . . وكل ما جرى فى الفترة القصيرة التى قضياها معه بالمدينة يكاد ينبىء عن سياسة مرسومة جماعها إحكام التصويب وكيل الضربات المتتالية إلى الرجل الذى ناجزاه . فما انطوى من عهده سوى يومين اثنين حتى طالباه بما يكفل — فى وهمهما — تقويض إمرته . كأنهما استبطآ ألا تنشب عليه الثورة بعد انقضاء فترة كهذه — طويلة ممطوطة ! — وهو ما زال فى مقعد الحكم !

يومان اثنان انقضيا على البيعة ، وعلى مجاهرتهما بالولاء للإمام تحت رأى العيون وسمع الآذان فى أقدس موضع تتجه فيه القلوب إلى الله ... يومان اثنان فى حساب الزمن ولكنهما فى حساب المشاعر المنبعثة عن الأنفس المليئة بالحقد والضغينة أطول من الدهر الخالد والأبد الآبد . فإن هو إلا أن حل ثالث نهار بعد بيعته حتى انطلقا إليه ، كأول مرة ، فى ثلة من كبار أهل المدينة وأصحاب الكلمة المسموعة بين الناس ... انطلقا وفى وفاضهما بذور فتنة جديدة ، الأرض التى تصلح لاستنباطها هذه المرة هى نفوس العامة ونفوس الخاصة بهذه البلدة وغيرها على سواء ...

فكأنما كان حديثهما صدى لصيحة عائشة بمكة ، يكاد ينقل دعوتها فى أمانة وحرص ... قالا له، وشاركهما فى بث مكنون الصدور بقية الوفد الأمين الذى رأساه :

« يا على ... إنا قد اشترطنا إقامة الحدود . وهؤلاء القوم قد اشتركوا فى دم هذا الرجل . وأحلوا بأنفسهم ... »

فبدت له الفتنة النائمة تنفض عن نفسها غطاء الركود ، وتتحرك على أطراف ألسنتهم ثم تهم بالانطلاق واتسعت حدقتاه كمن بوغت بسلاح يمتد إلى صدره من خلال الظلام . ثم ألقى بصره إلى الخارج : إلى طرقات المدينة التى كانت تعج إذ ذاك بطوائف الثوار من أهل الأمصار ،

وبأصحابهم من موالى البلدة وعبيدها الذين آزروهم أثناء الثورة ، وبالأعراب وأهل المياه الذين انحدروا من أراضيهم على الحدود وكان لهم فى الفتنة نصيب… كل أولئك مثلوا فى خاطره تلك اللحظة وإن لم تطف بهم نظرات عينيه . ومثل غيرهم كثيرون منهم كانوا قد انبثت معسكراتهم على تخوم المدينة وأقاموا حولها فى شبه حصار …

وكما أغضى عن الخلاف الذى أنشبه الصاحبان عليه بالأمس حين جاءاه يمارضانه فى السياسة التي رسمها للتقسيم ، فكذلك آثر أن يغضي اليوم ويبدو كأنه يعلم عنهما سلامة الطوية وبعدهما عن إرادة تدبير فتنة جديدة عاتية هوجاء … وراح يتذرع بالهدوء والصبر وهو يقول :

« يا إخوتاه … إنى لست أجهل ما تعلمون . ولكن … كيف لى بقوة والقوم المجلبون على حد شوكتهم ، يملكوننا ولا نملكهم ؟ .. »

ومد يده يشير بها إلى ناحية الطرقات والدروب ، وإن بصوته لرنة سخرية وهو يعاود الكلام :

« … ها هم هؤلاء .. قد ثارت معهم عبدانكم . والتفت إليهم أعرابكم . وهم خلالكم يسومونكم ما شاءوا … فهل ترون موضعاً لقدرة على شىء تريدونه ؟ .. »

وران الصمت على المجلس هنيهة كأنهم يدبرون فى أنفسهم ما قال ، ويستوعبون منطقه الذى لا تنفذ إليه كلمة اعتراض . ولكنه لم يعدم أن يسمع صوتاً من بينهم يقول :

« … فلو عاقبت قوماً ممن أجاب على عثمان … »

كأنما أخذ بعض الثوار بالعقاب دون البقية الآخرين فيه علاج الحال …

وأسرع إليهم بالجواب الصواب ، يبين لهم ثانية حقيقة الداء ويصف أنجع دواء … قال بلهجة حاسمة ، وصوت تبدو من خلاله نبرات الحزم والتصميم :

« … إن لهؤلاء القوم مادة . والناس من هذا الأمر — إذا حرك —

على أمور : فرقه ترى ما ترون ، وفرقه ترى مالا ترون ، وفرقه لا ترى هذا ولا ذاك . فاصبروا حتى يهدأ الناس ، وتقع القلوب مواقعها ، وتؤخذ الحقوق مسمحة . فاهدأو عنى ، وانظروا ماذا يأتيكم به أمرى . . . ولا تفعلوا فعلة تضعضع قوة ، وتسقط منة ، وتورث وهناً وذلة . »

على أن هذا الحديث الواضح المبين ، وهذا التحليل الدقيق لموقف الشعب حيال الثوار ، وهذا العرض الأمين لحقيقة الحال ، كلاهما لم تقنع المخالفين ، ولم تستطع أن تهدئهم عنه . فبالرغم من أن الجمهور كان ينقسم فرقاً بعضها يعطف على رجال الثورة ويرى فيهم مجاهدين خلصوا الأمة من شر مستطير ، وبعضها الآخر يراهم عصاة خارجين على القانون ... وبالرغم من تجمع قوى الثوار بالمدينة وعلى حدودها الدانية ، وامتلاكهم ناصية الحال فيها بقوة السلاح فوق مالهم فى نفوس أهلها من قوة الرهبة ، وبالرغم من أن الزمن هو الكفيل وحده بتهدئة الخواطر المبلبلة فى كلا الثائرين والأهلين ، ويحمل الفرق المختلفة أدنى إلى تكوين رأى صحيح عن الثورة ورجالها بعيد عن التأثر بالعطف أو بالخوف ... وبالرغم من هذا كله يبدو أن الوفد لم يستجب لنداء على لهم أن يمهلوه ثم يحكموا بعد قليل على ما يأتى منه . بل والوا الضغط عليه . وظلوا يضغطون عسى أن يقطع فى الأمر بقرار ، ويخطو خطوة حاسمة فى سبيل تنفيذ ماجاءوه فيه وإن كان الوقت لم يحن بعد للحسم . وإن كان الحسم فى غير أوانه كفيلا بزيادة الموقف تعقيداً واستعصاء على الحلول .

لاح هذا لأنا لانلبث أن نشهد الإمام فى ذات اليوم يخرج إلى المسجد وحوله أولئك الصحاب ، فيقف فى الناس يخطبهم ثم يهب بهم فى حرارة وابتهال ، فيقول فى ختام الكلام :

« ... أيها الناس ، برئت الذمة من عبد لم يرجع إلى مواليه . . . أيها الناس ، أخرجوا عنكم الأعراب ... يا معشر الأعراب الحقوا بمياهكم ... »

فإذا الهمهمة تسير فى أفواه الجماهير ، وإذا البغتة تبين على الوجوه ،

وإذا السبأية يلمحون فى الأفق نذراً لاتطمئن نفوسهم إليها . وإن هى إلا لحظة حتى تنادوا من كل جانب ، واتحدت الأصول والذيول . وأبى أى رجل من الجمع أن يطيع النداء لا فرق فى ذلك بين طوائف العبيد أو السبأيين أو الأعراب .

فكأنها دعوة إلى لم الشمل،وتكتل القوى التى أراد أن يفرقها أصحاب الوفد وعلى رأسهم طلحة والزبير ! وألقى على نظرة حانقة على الصاحبين ومن معهما . فهذه هى النتيجة التى خشيها منذ البدء وحاول جاهداً أن يتجنبها ... ومضى غاضباً إلى داره وهؤلاء خلفه يسيرون ناكسى الرؤوس كأنما أخزاهم سوء ما أسفرت عنه مشورتهم الهوجاء ... وفى غيظ مكظوم ، وبهدوء قاس تكاد أن تجمد له الدماء فى العروق قال لهم وأصبعه تشير إلى الجماهير التى تكتلت فى جموع :

« دونكم ثأركم فاقتلوه ! ... »

فما تحرك فى أفواههم لسان ، بل غلب الخزى عليهم حتى سكنوا فى مواقفهم كأنهم ظلال . . . وعاد هو ثانية يجيل فيهم عينيه ، ويلقى نظراته الغضبى على وجوههم التى تقطر جموداً . ثم هز رأسه ، وقال بصوت ممرور :

ولو أن قومى طاوعتنى سراتهم أمرتهم أمراً يديخ الأعاديا

فكأنما وجدا مخرجا لما أصبحا فيه . أو بأصدق تعبير وجدا وسيلة إلى تحقيق مأربهما القديم . . . تقدم إليه طلحة وهمس له فى هدوء كمن يشير بالدواء الذى يميت الداء :

« يا أمير المؤمنين . دعنى آت البصرة فلا يفجأك إلا وأنا فى خيل . . »

وأسرع الزبير يهمس كصاحبه ، وبذات كلماته :

« ... دعنى آت الكوفة فلا يفجأك إلا وأنا . . . »

البصرة لطلحة ، والكوفة للزبير حيث أعوان كليهما الداعون لهما بالخلافة منذ أيام ؟ ..

ولـكن الإمام قال دون تردد وهو يبدى لهما غاية ما يستطيع إبداءه من قلة المبالاة :

« حتى أنظر فى ذلك » .

وقطع جوابه عليهما سبيل الأحلام ! . .

٩

قويت شوكة أصحاب الثورة ، وازدادوا التفافا حول أنفسهم ، وحرصاً على لم قواهم وحشدها بمكان واحد بعد الذى لمسوه من انقلاب الأفكار عليهم وسيرها فى اتجاه عدائى سافر . ولم يكونوا فى البدء يوجسون خيفة ولـكنهم اليوم وقد لمحوا نذر النقمة عليهم تتجمع فى النفوس وتوشــك أن تنطلق كالإعصار ، لم يروا معدى عن التزام الحيطة ، وإرهاف حواسهم كلها خوفا على سلامتهم العامة . وبقيت جموعهم حيث هى بالمدينة وعلى تخومها ، متراصة لاتبرح ، لأن هلاكها المحتوم فى التفرق .

كان هــذا هو الشعور الذى سادهم ، وطبع حركاتهم بالنفور من كل هيئة نظامية يوشك أن يكون لهـا سلطان عليهم ، من كل حكومة تستند إلى غير سواعدهم ... وفى اليومين السالفين كانت لهم آمال كبار علقوها على الخلافة العلوية لأنها — فى ظنهم — حصاد ثورتهم . ولعل كثيرين منهم حسبوا أن هذه الدولة الجديدة دولتهم ، وأن علياً يدين لهم بالإمرة التى أفلتت من يديه بضعة وعشرين عاماً غبرت وكانت موشكة أن تفلت بضعة أخرى قد تمتد إلى انتهاء عمره لولا الضربة التى وجهوها لعثمان . ولـكن هــذه الآمال كانت قصيرة الأجل ، لم يمهلها القدر لتعيش وتثمر ، بل انقصفت أعوادها فى ذات الساعة التى بزغت فيها شمس العهد الجديد . وتلفت أصحابها فإذا الإمام ليس كما ظنوه ، وإذا أول عمل سياسى يأتيه هو إغفال شأن الثوار ، والانطواء عنهم ، والضن على زعمائهم بأن يكونوا من أعوانه المختارين لإقامة حكمه أو تدعيمه فى الأمصار .

بدأ هذا حينما أرسل عمالا من لدنه إلى البلاد يخلفون ولاة عثمان فما بعث قط برجل شرك فى الثورة أو عرف بأنه أيد أصحابها وظاهرهم وإن كان دونهم نقى الذيل لم تعلق به قطرة واحدة من دماء الخليفة الشهيد . ومع ما كان معلوما من ولاء أكثرهم له ، وشغفهم ببذل كل مايسعهم فى سبيله ، وإيثارهم إياه على نفوسهم بغاية ما تطيقه نفس بشرية ، فإنه لم يستعمل أحداً منهم فى عمل من أعمال الدولة كأنما تعمد أن يحول بينهم وبين النفوذ . بل قد كان فى سياسته هذه جانحاً إلى الغلو الشديد ، حتى إنه ولى قيس بن سعد إمرة مصر وقبضها عن محمد بن أبى بكر الذى اختاره أهلها وكاد يصبح عاملا عليها قبيل مصرع عثمان . ولم يكن محمد ممن وقعت على رؤوسهم دماء القتيل ، بل لم تعلق به من هذه الناحية شبهة ، ولم تضطرب حوله الروايات ، وإنما ثبتت براءته ثبوتاً قاطعاً بشهادة نائلة . ومع هذا فإن علياً لم يدفع به إلى عمل رسمى يتولاه من قبله . وضن عليه بالمنصب الذى كان من حقه أن يناله برضاء زعماء الرأى فى مصر لأنه رآه ضالعاً منذ البدء مع الثوار ، فرأى توليته — فى هذه الآونة الحرجة التى تفتحت فيها الأذهان لاستقبال الظنون — كفيلة بأن تطلق ألسنة خصوم الإمام بالتقولات الظالمة فى نظام يريد له أن يكون فوق الشبهات .

كانت كبرى المسائل الشائكة التى اعترضت سبيل على من اليوم الأول لخلافته مسألة رجال الثورة المسلحين الجاثمين بمدينة الرسول . وقد أمعن النظر فى الأمر وقلبه على وجوهه فوجد من الحكمة إرجاء البت فى شأنهم بقرار حاسم خشية أن تنقسم الأمة حيالهم إلى معسكرين : بين مؤيدين ومعارضين ، يجر تناحرهما إلى حرب أهلية قد تودى فى النهاية بقوة الدولة . وما من ريب فى أنه توخى بهذا الرأى الصالح العام ، وجنب الإسلام نيران فتنة عاتية كانت حرية بأن تندلع فى كل الأمصار ، بل كانت حرية بأن تجعل الطوائف الثائرة تقبض بيد من حديد على صولجان السلطة بالحاضرة الإسلامية فى بضعة أيام ما دامت تملك — دون الحكومة الشرعية —

السلاح والعتاد . فن هذا المصير المخوف كان يحذر طلحة والزبير ، ويدعوهما إلى الاصطبار حتى تهدأ النفوس المهلبلة ويقر اضطراب الخواطر فلا تستعصى الأزمة بعدها على الحلول . ولهذا جنح أيضاً إلى الغلو الشديد عند اختياره رجاله ، فلم يستعن فى شئونه بأحد من الثوار . وبالغ فى اجتنابهم توقياً لمظنات خصومه وأقاويلهم المجترئة التى أوشكت أن تنطلق فتسلكه ظلماً فى عقد أعداء عثمان .

وهكذا أوجس رجال الثورة خيفة من على ، وباتوا على حذر منه . وضاعف من خوفهم على سلامتهم أن الأنباء راحت تترى بالتنكر لهم فى كل مكان .. فى مكة ، وفى الشام ، وفى مصر أيضاً نبتت فيها نابتتهم وامتدت منها فروعها إلى بقية الأقاليم . حتى طلحة أيضاً تنكر لهم وقاب جلده الأملس .. ولو أن ثمة رجلا كان يجدر به أن يستمسك بهم ، ويوليهم من صفوه وتأييده لوجب أن يكون طلحة الرئيس المقنع لحركاتهم الثورية !.. ولكنه اليوم غيره بالأمس قد أفلته الهدف الذى ركبهم إليه ، فراح يلتمس مطية أخرى لعلها تصل به إلى أغراضه من طريق سوى الطريق !..

غير طلحة إذن إهابه ، وأبدى لأصدقائه القدامى ما كان يبديه من قبل لعثمان . فنى جوار الحرم الآن أصدقاء آخرون — مطايا أخرى تمدها له داعيته !.. هناك عائشة قد استبدلت بعلمها القديم آخر راحت تلف حوله الجموع ، وترفعه عالياً فوق رأسها يرفرف كألسنة النار .. وإذا كانت لا تهتف اليوم صراحة باسم طلحة ، ولا تدعو إلى تنصيبه خليفة للمسلمين يتبوأ مقعد غريمها الجديد كما دعت منذ قريب أن يتبوأ مقعد غريمها القديم .. إذا كانت قد أكسبت الآن صيحتها رنة تفجع على الأمير القتيل بعد أن كانت نداء مدوياً للخلاص منه ، فإن الغاية التى لا بد ستنتهى إليها هذه السياسة ذات الوجهين لن تعدو أن تكون ملكا لتيم يتسنم عرشه رجل لا تحس السيدة التيمية نحوه بمثل البغضاء التى تحسها حيال الإمام .

ولا تنى الأحداث تطالعنا بالأسانيد التى تثبت أن الطالب بدم عثمان

ما كان إلا أقصوصة اشترك فى صوغها كل منافس لعلى ، حاقد عليه قدره وسلطانه . . . فلم تكن قط دعوى جدية ، أو هى فى القليل لم تسر فى طريقها إلى هدفها الذى رمت إليه . بل نراها فى تبدل وتغير بين يوم ويوم حتى تفقد روحها ولا يبقى منها سوى ألفاظ جوفاء . وقد وسعت كل شىء ، ووصلت إلى كثير من الغايات إلا الثأر للشيخ المقتول . ولكنها فى عين خصوم الإمام كانت مبدأ أخاذاً يعينهم على حشد الأنصار ، وعلماً خفاقاً يستهوى بعض النفوس البريئة الكامنة بالمروءة ، وكل النفوس الزائفة المفتونة بنصرة الأباطيل !

ولم تبق دعوة عائشة محصورة بمكة ، بل سرت مع الركبان إلى بلدة الرسول ووجدت بها آذاناً صاغية . وكان أول من استجاب لها بنو أمية وأحلافهم ، فتسللوا واحداً فى أثر الآخر وهم يرجون أن يستردوا من ورائها ملكهم المفقود . وتبعتهم طوائف شتى من الأشراف القرشيين . أولئك الذين أضافت إمرة على إلى قلوبهم ضغناً جديداً يجاور الأحقاد القديمة . وكانت تدفعهم أيضاً إلى الخروج لمكة خشيتهم جموع الثوار الذين يمثلون على وجه من الوجوه سلطان الطبقة الفقيرة ، واليقظة القومية فى الشعوب الدخيلة .

وبدأت رقعة المتاعب تتسع أمام أمير المؤمنين . فقد كانت هذه الهجرة مشكلة لا بد سينجم عنها ضياع هيبة الدولة عند رجال الثورة . ولتوشك أن تكون لهم فى حاضرة الإسلام الكلمة المسموعة النافذة واليد المحركة للسياسة العامة إن خلا الميدان من العناصر العربية الصميمة التى تشد من أزره عند الحاجة ، وتضمن تكافؤ الأصلاء والدخلاء إلى حد معقول . ولو حدثت هذه الهجرة فى ظروف عادية لما تبرم بها ، ولوسعه أن يقبلها راضياً لأن جميع طبقات شعبه فى نظره سواء . ولكنها وقعت فى أعقاب فتنة ، وفى وقت يخشى فيه طغيان الثوار على النظام العام إن رأوا منه الميل إلى كبح جماحهم عند حد محدود ، وإلى بلدة تتهيأ هى الأخرى لفتنة إطلاق

حرية الهجرة إليها بغير قيود كأنه وقود جاف يلقيه فى قلب حريق .

لذلك بادر على إلى حسم الشر قبل استفحاله . فحرم على قريش الخروج وحبسها فى أسوار المدينة كما فعل قبله ابن الخطاب . واشتد فى هذا الأمر غاية الشدة حرصاً على سلامة الدولة ، وعلى وحدة أمته أن تتمزق . فكأنه إذ ذاك عمر قد عاد كرة ثانية إلى الوجود وراح يردد قوله المأثور :

« ... إنى قائم دون شعب الحرة . آخذ بحلاقيم قريش وحجزها أن يتهافتوا فى النار .. »

ولكن قريشاً أبت اليوم إلا أن تضمر الخلاف للامام، وتبديه كلما وجدت سبيلا إلى المجاهرة بالعداء . فما عادت تقف منه موقفها السالف من عمر ، ولا رأت فيه رجلا يجدر بها طاعته والحرص على إنفاذ مشيئاته ، وإنما ظلت تنظر إليه بنفس عيون أسلافها القدامى فترى فيه هاشمياً آخر أولى بها أن تحسده على سطوته الزمنية وقد حسدته من قبل على سطوته الأدبية . لذلك جهدت فى استنباط كل وسيلة تؤدى إلى عصيانه . وإلى إهدار هيبته بين رعاياه كحاكم يجب الائتمار بأوامره والانتهاء عند نواهيه . ولم يكن دورها الطبيعى فى الدولة الإسلامية كبقية أبناء الأمة من المحكومين . ولكنها كانت ذات كيان خاص له أثره فى توجيه السياسة العامة للدولة يكاد سادتها أن يكونوا نوعاً ما من مجلس نيابى أو هيئة استشارية تعاون الخليفة بما تبذل له من آراء كلما دعته الحاجة إلى التماس المشورة . فهى إذ تنتقض على هيبته فإنما يحمل انتقاضها معنى من معانى انتقاض بعض الهيئة الحاكمة على بعضها الآخر ، وتضرب للشعب أسوأ مثل للتمرد على السلطة الشرعية .

ومع ذلك فلم تر حرجاً فى إفساد الأمر على الامام بين كل يوم ويوم . ومضت تستحدث الأسباب التى تنتقض على هيبته فى نفوس أمته ، وتكيل الضربات إلى النظام الرسمى الذى كان يجدر بها معاونته والتمكين لسلطانه حرصاً على الصالح العام ، فأخذت تتسلل من المدينة وتلحق بأصحاب الفتنة

التي أرثتها عائشة في البلدة الحرام . ثم لا تني تبث في الطريق وفي الأسواق دعوة التأليب عليه . ومن مكة التي كانت مركزاً تتفرع الدروب منه إلى الشمال والجنوب انطلق بهتانها إلى بقية البلاد فبني في كل منها عشاً للفتنة .

أما الذين حالت الحوائل دون خروجهم عن الحاضرة الاسلامية فلم يقعدهم عن ثلبه قربهم منه ، بل ملأوا أوقات فراغهم بالطعن عليه والدس له بين الناس يحرفون كلمه ، ويفسرون مقاصده دائماً بالنقيض ، ويتربصون بأعماله عساهم يقعون فيها على هنة يجسمونها أمام العيون ، فإذا أعوزهم الكيد له في هذه الناحية راحوا يخالفونه جهرة في أمور جلية لا يختلف فيها إثنان . وما دام الناس لا يشهدون مجالس النقاش الذي يدور بينه وبين خصومه بل يسمعون فقط بنتائجه وهي في الصيغة التي تروق أولئك الخصوم ، فإن تواتر الخلافات إذن كفيل في نهاية الأمر بأن يشكك فيه الجماهير .

كان طلحة دائماً على رأس هذه الفئة التي أصبحت شوكة مسنونة تدمي جنب الامام . وكان الزبير يقفوه كظله ، ويتبعه إلى حيث يريد . فقد توحدت خطة الرجلين . واتجها معاً إلى غاية مشتركة لا يبلغانها إلا بعزل علي من الخلافة . وهل ثمة غاية هدفاً إليها سوى ابتزاز الحكم من بين يديه واحتجازه لهما معاً يتبوآن مقعده الأثير الخلاب ؟ .

ولكننا إذ نلقي البصر إلى الأحداث لا نشك لحظة واحدة في أن الزبير كان ضحية لأطماع طلحة . وكان أيضاً مطيته ... فما نحسب الصاحب التيمي كان مقاسماً زميله السلطان لو نجحت خططه وآلت إليه مقاليد الخلافة الاسلامية ، بل هو أقرب إلى التفرد بها دونه واحتجازها لنفسه لأن هذا أشكل بطبعه وأدنى لشغفه البالغ بامتلاك نواصي النفوذ . وهل تراه يكافح أعواماً طويلة لتحقيق أطماعه ثم يقتسم الثمرة الشهية وآخر في نهاية المطاف ؟ .
ونكاد أيضاً نرى الزبير مغلوبا على رأيه ، قد خرج حتف أنفه على ابن خاله ، وسار خلف طلحة على طريق الشغب وكأنه مسحور ، فما نحسبه نسي كلف صاحبه بالسلطان . ولئن نسيه فالعهد غير بعيد بكلمات عائشة ودعوتها السافرة

إلى عزل الخليفة القائم على الحكم إذ ذاك وتنصيب قريبها مكانه . وهل مضت سوى أيام قلائل على قولها لابن عباس :

« ... قد رأيت طلحة بن عبيد الله قد اتخذ على بيوت الأموال والخزائن مفاتيح ، فإن يل يسر بسيرة ابن عمه أبى بكر ... »

الزبير بلا ريب مغبون الصفقة . ضياعه فى مأدبة السطوة أمر محتوم .. وما تزال كلمات عائشة هذه تذكره بدوره . وترسم لنا صورة منه . ولكنه — فيما يبدو — رضى متهوراً بنصيبه فى الفتنة . وقنع ببوارق الآمال التى لوحوا بها أمام عينيه وإن أيقن فى صميم قلبه أن ليس له إلى تحقيقها سبيل . ثم انطلق فى ركاب طلحة ، مشدوداً إليه بأهواء آسرة! .

وتمضى الأيام والصاحبان يجهدان فى إثارة خلاف جديد مع الامام ، فلا تسعفهما الظروف به ، ولا تدع أعمال ابن أبى طالب ثغرة واحدة ينفذان منها إلى الطعن عليه . وقد لاح لهما فى البدء أن معارضتهما إياه فى التقسيم بالسوية كفيلة بأن تثير عليه العناصر العريقة ذات النفوذ فى الأمة . فاذا بهما اليوم قد رأيا قريشا تفر وتدعهما منفردين فى الميدان ... وكان حتما عليهما — فى شرعة الشغب — أن يبدلا من هذا الركود الذى ساد الجو السياسى بالحاضرة ، ويعدا الناس بمادة جديدة للخلاف بينهما وبين الامام تسبح فيها الشائعات والأقاويل فذهبا إليه يجادلانه فى أمر لم يتمخض الزمن بعد عن دواعيه ... ذهبا يعتبان عليه أنه لا يستعين بهما على مشكلاته ولا يشاورهما فى أموره وإن علما أن العون والمشورة كليهما رهينان بنشوء مسائل تقتضيهما ولم تنشأ بعد ، أو على الأقل نشأ منها ما لم تدع الحاجة عليها الى التماس معونة أحد أو رأيه فى علاجه .

وقد بدا من حديثهما أنهما لا يعنيان أمراً بعينه ولم يحددا مسألة واحدة وجب أن يطلب على رأيهما فيها ثم أهمل فى استنباطهما الرأى المطلوب . بل ألقيا إليه العتبى مطلقة بغير تحديد ، وبدون إشارة الى أمر واحد دفعهما إلى إزجاء هذا العتاب ... فما سمع مقالتهما حتى بادرهما

بالجواب الكفيل بأن يسد عليهما باب التعلات والجدال ... قال :

« ... ألا تخبرانى أى شىء لكما فيه حق دفعتكما عنه ؟ ... وأى قسم استأثرت عليكما به ؟ ... أم أى حق رفعه إلى أحد من المسلمين ضعفت عنه ؟ أم جهلته ؟ أم أخطأت به ؟ » .

فما أظنهما فى هذه اللحظة إلا أدارا الذهن فيما عرفاه من أعماله ثم عاد إليهما الذهن كليلا لا يحمل فى وفاضه أمراً واحداً يستطيعان به أن يردا عليه حجته الغلابة . ولعلهما آثرا الصمت ، ولعلهما قد أصاب كليهما الحصر أمامه فلم ينطقا بحرف . ولكنه قرأ من مكنون القلبين ماسترته قسمات وجهيهما الصامتة . فان هو إلا الهوى قد دفعهما لمثل هذا الموقف . وإن هى إلا المطامع والآراب فى ابتزاز الحكم من يديه تسوقهما دائما إلى معارضته والشغب عليه . وقد ألم حديثه بطرف من هذا ، ولمس لمسات خفيفة مشاعرهما نحوه حين عاد يستأنف الكلام :

« ... والله ما كانت لى فى الخلافة رغبة ، ولا فى الولاية أربة . ولكنكم دعوتمونى إليها وحملتمونى عليها . فلما أفضت إلى نظرت إلى كتاب الله وما وضع لنا وأمرنا بالحكم به فاتبعته ، وما استسن النبى فاقتديته . فلم أحتج فى ذلك إلى رأيكما ولا رأى غيركما . ولا وقع حكم جهلته فأستشيركما وإخوانى المسلمين . ولو كان ذلك لم أرغب عنكما ولا عن غيركما ... »

لم تكن له فى الخلافة رغبة ، أفما كانت لهما رغبة فيها دفعتهما إلى اعتساف كل هذه التعلات ؟ .

ستنجاب السجف . ويتهتك الستر . وتبدو خفايا النفوس واضحة للأعين بغير حجاب .

عمارة بن شهاب عامل على الجديد على الـكوفة ، ظهر ثانية بمدينة الرسول ولما تمض على خروجه منها إلا فترة وجيزة ، وصار يشق الطريق إلى دار الإمام وإن فى وجهه لوجوما ظلل قسماته بلون خذلانه ، وعلى ثوبه غبار رحلته الشاقة المزدوجة التي قطعها بين الحاضرة الاسلاميه وبين مقر إمارته دفعة واحـدة فى الذهاب والعودة ، فقد امتنعت عليه الـكوفة ، وحال بينه وبين دخولأرضها نفر رأوا أن ينقضوا أوامر الامام .

ويسير الرجل مهموماً إلى أمير المؤمنين ليحـدثه مما لقيه ، فما نسمع طرفا من حـديثه حتى نراها عودة كفيلة بإثارة التوجس فى الأنفس لأنها تنبىء عن بوادر الانقســام فى الدولة ، وبدء هبوط هيبة الخليفة فى عيون بعض رعاياه ، واجترائهم على مخالفته والتمرد عليه ... ثم مايتبع هذا كله من وجوب العمل الحاسم لخضد شوكة العصاة .

ولـكننا أيضاً لا نملك أن نمنع بسمة ســاخرة يطيب لها الطواف بثغر كل منصف يحاول أن يستقصى أسبــاب كل فتنة ، ويرد مظاهرها البادية إلى أصولها الخفية ... فاذا وسعنا هـذا الاستقصاء فانا نعجب لأصابع القدر ، التي نسجت شباك العصـيان حول الامام أثناء حـكمه ، كيف استطاعت ان تستمد كل خيوط هــذه الشباك من مادة واحدة — من غل الأنفس التي أكلتها الأحقاد ؟ . . . لم يعد عصياً على العين المتجردة من الهوى أن ترى فى باطن كل امرىء ناجز عليا ، ووقف منه موقف عداء ، قلبا مظلماً كليلة فى الشتاء غائرة النجم ! إنما الحســد هو الذى ناجزه ، والضغينة الجائعة والنقمة العمياء ... وتعدد الخصوم والأعداء ، فلا نراهم إلا صــوراً شتى لأصل واحــد فى مختلف الأوضاع ، خلفهم دوافع من الهوى الشخصى يسوقهم — قسراً أو طواعية — إلى محاربة رجــل كل جريرته أنه على :

الوريث الشرعى للأحقـاد والضغائن التي عاشت أزماناً فى صدور مقروحة ، ولفحت نيرانها هاشمات ذات يوم ، ثم محمداً من بعـده ، حتى حسمها عنه رحمة الله ! . .

لا أحـد ممن عادى الامام كان يبتغى من خصومته نصرة صالح عام ، بل كانوا يسيرون صفين يقود أحدهما الحسد ، وتقود الآخر ضمائر مدخولة ، وما منهم إلا من زخرت واعيته برواسب قديمة من مشاعر هوجاء لم يسعفه الزمن بالتنفيس عنهـا ولم يسعف آباءه ، أو من له تاريخ مشوب الصحيفة فاضت سطوره بالموجدة على رسول الله ، وقد جاء يوم على أولئك الواجـدين قهروا فيه على الخضوع للاسلام ، واضطرهم السيف أو اضطرتهم الحاجة إلى الدخول فيه فأسلسوا قياده لمحمد،ولـكن نفوسهم المدخولة لم تتطهر بل رسبت مواجدها زماناً فى القاع كأنها النار المخبوءة تحت الرماد .

وكان على هو الشخص الذى ادخروا له نيران الأحقاد . وإنه إذن لطعمة ميسورة ، فليست له قداسة كقداسة ابن عمه تحميه من حسد الصدور المقروحة أو غل الضمائر المدخولة ، ولـكن الصدفة وحدها أعجزمن أن تؤلب عليه هذه الصور المتشابهة من الخصوم ، وتصف جموعهم كلها جيشاً عابثاً يكيد له : بل هو التبييت والاتفـاق على الغدر ، فما من امرىء عاداه إلا نستطيع إذا رددنا الطرف أعواماً إلى الوراء أن نراه قد عادى الرسـول قبله وكاد له . . وعمارة ابن شهاب رأى هذا أيضاً ذلك اليوم وهو على باب الـكوفة يهم أن يدخلها عاملا من قبـل على ، ولمسه بنفسه حين برزت له حفنة من الرجال يحملون السيوف ويأبون عليه دخول مقر إمارته . مخالفين بهذا إنفاذ أوامر الامام .

ويرفع عمـارة بصره والبلدة بادية له من قريب ، فإذا على رأس القوم الذين قطعوا طريقه إليها رجـل هو الخزى بذاته لو كانت للخزى قدمان . ولا يستطيع عمارة أن يفعـل شيئاً فليس يملك عتاداً ولا رجالا يضرب بهم هؤلاء الخصوم ، ولـكنه يسمع صامتاً وعيد زعيم القوم إذ يقول :

« ارجــع . . . فإن القوم لا يريدون بأميرهم بدلا ، وإن أبيت ضربت عنقك ! . . . »

فيكظم العامل غيظه ، وينطلق راجعاً إلى الحاضرة الإســلامية ليخبر أمير المؤمنين . ولـكن الذكريات تنثال على مخيلته كما تراود الآن الخواطر النافذة إلى ما وراء ظواهر الأمور . إنه حقيق بألا يدهش من تصرف ذلك الزعيم ، ومن إعلانه العصيان والتمرد على الإمام لأن عصيانه حلقة تضاف إلى ما سبقها من حلقات ، فالرجل الذى تمرد على محمد إذ كانت فى يده رسالة السماء خليق بالتمرد على على وهو لا يملك برهاناً من السماء ، والنفس الآثمة التى سول لها البهتان أن تتحدث بلسان الله لايعجزها أن تتحدث بلسان أهل الـكوفة ! وليس ببعيد عن الأذهان موقف بالأمس لهذا الزعيم الزنيم ، وقفه فى حيــاة محمد ، مدعياً أنه نبى آخر من عند الله ! فإن لم يكن حسده مكانة رسول الله بين الناس ، وتوسله بكافة الأساليب التى قد ترفعه فى العيون ، وإن كان أسلوبه هو الافتراء على الله ، وزيغ قلبه عن جادة الحق الإلهى إلى الهوى النفسى الممعن فى الضلال حتى غاية الحـدود . إن لم يكن هذا كله هو المشاعر المقيتة التى دفعته إلى ذلك الموقف البعيد عن كرامة العربى العادى فضلا عن كرامة مسلم مثله أقر ذات يوم بالإيمان ، فأى المشاعر إذن كانت توجه فيه خطاه ؟ . .

إنها لعاطفــة انبعثت عن أحط الانفعالات فى نفس ذلك النبى المزعوم ! فى نفس طليحة بن خويلد متنبىء بنى أسد ، الذى ارتد عن الإســلام فى حيــاة محمد وادعى نبوة جديدة حين أبى عليه حسده أن ينفرد محمد دونه برسالة السماء ! . . فذلك الرجــل الذى تصدى بسيفه لإمارة بن شهاب ومنعه من دخول قاعدة حكمه ، كان يتحدث بلسان أهــل الـكوفة بغير تحرج ، وفى يسر عجيب لا مثيل له إلا تحدثه من قبل بلسان الله ! . . وقد نم هذان الموقفان عن حقيقة قلب طليحة وقدر الإيمــان الذى يعيش فيه . كان أشبه شىء بالتربة القاحلة الصلبة ، لا تطلع زرعاً وإن بولغ فى تعهدها أزماناً طويلة

بالسقيا . وإذا كان التاريخ ينبئنا أنه ادعى النبوة وارتد بعد إسلامه ، فإن الأولى بنا أن نقول إنه ادعى الإسلام من البدء ، ولم يعرف قلبه طعم الإيمان . ولا نخالف بهذا القول حقيقة الحال ! ..

لقد ذهب طليحة وأشباهه من المتنبئين أمثلة خالدة فى تاريخ الافتراء ، ورسمت نبوءاتهم صوراً من الغدر بالغة الضخامة لأنهم غدروا بالله وناموسه ورسوله فضلا عن غدرهم بأحلام الناس . ولقد عاد الرجل ثانية إلى الإسلام فما نراه دخله إلا مقهوراً بسيف أبى بكر الذى سله على عنق الردة ، وما زالت بنفسه بقية من الشك فى الدين المنتصر وبقية من التمرد مدخرة إلى حين — هو يحدثنا عنهما بذات لسانه حين يجىء إلى عمر مبايعاً بعد وفاة الصديق . . .

يقول له ابن الخطاب وهو لا ينسى بهتانه القديم :

— يا خدع ! . . ما بقى من كهانتك ؟

— نفخة أو نفختان بالكير ! . .

ولا يكاد ينطلق الزمن فى أبراجه حتى نرى الكذوب طليحة صادقا هذه المرة ، يختص ببقايا إفكه وحسده على ابن أبى طالب وخلافته بعد أن فشل بالأمس فى الكيد لمحمد ورسالته . وإذا هو حين تجيئه الأنباء بقيام حزب الثأر لعثمان يرى الفرصة مواتية لينفخ بكيره — نفخة أو نفختين ! — فى رماد الفتنة عساه يؤجج النار على وريث الرسول . .

عاد عمارة بن شهاب إلى المدينة مردوداً عن إمارته . ولكنه لم يكن آخر عامل للإمام دفعه الناس عن دخول قاعدة حكمه بل نرى على أثره سهل بن حنيف قد رده أيضاً فريق من أهل الشام . وتبدو علائم التمرد سافرة لعينى أمير المؤمنين . وتبدو معها سمات الانقسام فى صرح الدولة واضحة كأنها الصدوع فى البنيان . . فهذه بغير شك الثمار المرة التى أطلعتها صيحة عائشة فى وديان البلد الحرام .

تكاد أن تتفق الآراء الصائبة الرشيدة على الحل الوحيد الذى ليس ثمة

سواء لأمثال هذه المحنة وهو قمع الفتنة وقتلها فى المهد قبل أن يتم لها النضج . وإنه للرأى الذى جال بخاطر على إذ ذاك غير أن الامام كان كعهدنا به رجلا لا يسارع إلى إذكاء نار العداء ، بل يؤثر المهوادة كخطوة أولى فيمهل ولا يهمل. ويمد فى حبل اللين ما وسعه عسى أن يتبين مناوئوه سواء السبيل . كان دائماً لا يبادر بالضربة حتى ينذر . وقد عزم من البدء على معالجة الحال كما تملى عليه مصلحة أمته التى أصبحت أمانة فى عنقه ، ووفق ماتوجبه عليه مسئوليته أمام الله وأمام الأجيال كرئيس دينى وزمنى للدولة . ولكنه رأى لزاما عليه أن يعمل بحذر وحيطة حتى لا يدع فى قراره أية ثغرة قد تنفذ منها عناصر الشغب من النهازين وأصحاب المطامع والغايات .

وكان اول من حسب حسابهما طلحة ورديفة الزبير ، فأحب أن يشاركاه فى القرار الذى يتخذه . ذلك لأنه عرفهما لا يرضيهما الرضا ولا يقران حياله على حال . بل هما دائماً أقرب إلى الشغب عليه من سواهما وأدنى السادة إلى أفئدة الجمهور المفتون عادة بالشخصيات البراقة وهما بدأ بهما أبدا على الشكوى منه والضيق بكل تصرفاته دون موجب ، أدعى الى مخالفته وإثارة الاعتراض عليه إن حزم أمره وعالج الموقف الجديد دون أن يشاورهما فيه . ثم لعل أول مادفعه إلى إشراكهما فى الرأى رغبته فى تنقية جو المدينة من الشغب الذى لا بد سيثيرانه لو أنه أغفل شأنهما حتى يستطيع أن يجابه مناوئيه فى الخارج وهو مطمئن الى التفاف الجبهة الداخلية حوله فى حاضرة الدولة .

لذلك أرسل اليهما ليعرض أمامهما المحنة الناشبة كيلا تكون لهما عليه حجة . وليسألهما الرأى المدخر الذى يستطيعان بذله . فلما حضرا مجلسه ، راح يبسط لهما الموقف لا يدع صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ووصفها بما كاد أن يجعلها مرئية رأى العين ... ثم أردف فقال :

« ... ان الذى كنت حذرتكم قد وقع ياقوم ... وإن الأمر الذى وقع لا يدرك إلا بأماتته. وإنها فتنة كالنار ، كلما سعرت ازدادت واستنارت »

فأى الردود كان حقيقاً بأن تنفرج عنه شفاه الصاحبين ... وبأى لسان ينطلقان ؟ ..

أحسبهما لم يجدا القدرة على الجواب بعد أن تحدثت قبلهما الأحداث . ولعل خواطرهما جرت سراعا إلى خارج نطاق الدار ... ثم بعيدا عن أسوار المدينة .. ثم إلى بلدة الحرم حيث نزلت عائشة ولحق بها كلُ مناوىء للإمام من بنى أمية وأحلافهم ومن تعلق بأذيالهم من ولاة عثمان ... كانت هناك مسلحة تامة الجهاز فيها أموال ورجال وسلاح ، قد أخذت أهبتها للانطلاق عبر الصحراء على بريق السيوف ، بل سبقتها دعوة التمرد على الحاكم الشرعى للبلاد مجللة بنقاب الثأر للخليفة المقتول ، تمهد الطريق أمامها للجيوش المجهزة ، وتقتحم على الرعايا الوادعين ثقتهم بالإمام قبل أن تقتحم بلادهم صفوف الجنود .

أفأسف الرجلان وقد شهدا الآن نتائج هذه الدعوة الهدامة ، أم رأيا فيها أولى خطواتهما الى إدراك مايبغيان ؟ ... إنهما على أى حال قد آمنا بصدق فراسة علي ونفاذ نظره إلى عواقب الأمور ، فتكشف لهما اليوم الى أى مدى كان محقاً فى مخاوفه حين جاءاه يريدان قهره على الاقتصاص من قتلة عثمان .. فى ذلك اليوم حذرهما مغبة التسرع . وأهاب بهما أن يصبرا حتى يهدأ الناس ، وألا يجاهرا بدعوة ، الخطر الجاثم وراء بثها لن يصطلى منه الثوار بقدر ما تصطلى الأمة كافة ويصطلى نظام الاسلام ، وهل فاتهما إذ ذاك أنها دعوة فرقة ، حرية أن تتشعب حيالها الآراء وتتمزق وحدة الأمة ، ثم تنجاب آخر الأمر عن حرب أهلية بين أبناء الشعب الواحد تندلع نيرانها فى كل إقليم ؟

على أنهما الآن لم يدليا إليه بجديد ، ولم يسعفاه بالرأى السديد الذى ثارا من قبل لأنه لم يلتمسه ... بل قالا له :

« فأذن لنا أن نخرج من المدينة . فإما أن نكابر ، وإما أن تدعنا . . »

فإلى أى مكان أرادا الخروج ؟ ... قد يقف المرء وقفة تفكير طويلة

عند هذا الجواب الذى لايحدد الغرض منه تحديداً واضحاً يكشف عن نواياها للاذهان ، ولكنه حين يزن الألفاظ التى ألبست ثوب غموض يراها أدنى إلى ذلك الغرض القديم الذى انطوى على رغبتهما فى ولاية العراقين وأباه عليهما الإمام . ولعل هذا هو ماعلق بذهن على إذ ذاك ورأى معه أن يكفيهما مشقته، لأنه مالبث أن قال :

« . . . سأمسك الأمر ما استمسك . فإذا لم أجد بدا فآخر الدواء الكى . . . »

وكذلك آثر أن يمهل العصاة الذين ردوا عماله عن الكوفة والشام . واختار اللجوء إلى الوسائل السلمية فكتب إلى أبى موسى وإلى معاوية عسى أن يظفر منهما بجواب يتضمن نزوعهما إلى سبيل السلام .

ولم يلبث أن جاءه الرد المرقوب من أبى موسى يعلن فيه طاعتــه وطاعة أهل الكوفة — أولئك الذين تحدث بلسانهم منذ أيام طليحة بن خويلد وأعلن تمردهم . . . ولكن ابن أبى سفيان لم يرســـل حرفا . وظل ضاربا فى صمته حتى يتبين أى الطريقين أجدى على مطامعه : طريق الوفاق أم طريق الشقاق .

ثم حانت أخيرا ساعة البت ذات يوم خلال الشهر الثالث لمقتل عثمان . . . فى غرة ربيع الأول اخترق دروب المدينة راكب جذب إليه أنظار الناس . فقد كان معتدلا على راحلته ، ممدود الرأس إلى أقصى مايستطيعه عنقه المطوط ، لاينزل بصره إلى المارة أو الجالسين . وكانت يده مرفوعة إلى أعلى ، بها طومار مختوم يلوح به بين لحظة وأخرى كأنه يشير به انتباه كل متطلع إليه . . . وقد كان حقاً خليقاً بأن تتعلق به العيون ثم تهمس على أثرها الشفاة فى دهشة واستنكار ، ناطقة بالكلمات القليلة المكتوبة عليه :

« من معاوية إلى على » .

من معاوية ؟ . . . بغير هذا اعتاد العمال أن يكتبوا إلى الخلفاء . . . بغير هذه القحة وهذا الاستعلاء . . . ولكن ابن أبى سفيان لا يضيره

أن يدهش الناس ويغضب عليا ، لأنه قد اختار طريقه وأعلن العصيان . .

وأدخل رسول المتمرد إلى الإمام . وتقدم إليه بالطومار المختوم ففضه ، فإن هى إلا نظرة واحدة حتى رفع بصره إلى الشامى يستوضحه الأمر .

كانت الرسالة فى جوفها بيضاء لا تحمل كلمة واحدة . . .

— ماوراءك يا رجل ؟ ...

فتلفت الرجل حوله فى حذر ثم قال:

— آمن أنا ؟ . . .

— نعم إن الرسل آمنة لا تقتل .

- ورائى أنى تركت قوماً لا يرضون إلا بالقود ..

— ممن ؟

— من خيط نفسك !

فلم يغضب الإمام لهذا الاتهام الظالم ، بل تدرع بالهدوء والتريث ليسمع بقية الحديث وأردف الرجل يقول :

— .. وتركت ستين ألف شيخ يبكون تحت قميص عثمان وهو منصوب لهم قد ألبسوه منبر دمشق .

— منى يطلبون دم عثمان ؟

— نعم .

— ألست موتورا كترة عثمان ؟ .. اللهم إنى أبرأ إليك من دم عثمان .

ولم تعد ثمة بقية فى الكلام ، فأشار للرسول :

— اخرج .

— وأنا آمن ؟

— وأنت آمن .

ومضى عائدا يجتاز دروب البلدة وإن الناس ليهمون به لولا أن سبقت له كلمة الإمام بالأمان ..

١١

معاوية أسفر عن دخيلته ، وسدد أولى ضرباته . ولكننا نراها ضربة أصابت الإسلام قبل أن تصيب الإمام . وقضت في النهاية على السلطان الروحي الذي مكنت له العقيدة في القلوب والخواطر . أما الصرح الشامخ الذي وضع محمد نواته ، ورعاه من بعده خلفاؤه الذين ترسموا خطاه ، فقد أوشك أن يصبح ظلا للماضي ، يطوف به الذهن كما يطوف بالطلل الدارس .

بهذه الضربة انفتح السبيل أمام الأهواء والمطامع ، وكسر القيد الذي كان يحبسها في نطاق ضيق من خشية الله ومبادىء الأخلاق القويمة . وانطلقت الأنانية بغير حاكم تسود النفوس والضمائر ، ويتحكم ناموسها في الأفراد الذين وهنت فيهم سطوة الإيثار والتضحية وحب الحق . فإن هي إلا أعوام حتى نرى الدولة الإسلامية تستند إلى قوى ظاهرية بين مال وعتاد وإرهاب ، بعد أن كانت تستند إلى الإيمان بحقها في هذه الحياة ، وبواجبها الذي يفرض عليها نشر رسالة ترفع البشر من وهدة الظلام ، وبقدرتها الكامنة في قلب كل مواطن — لا في سيفه — على سيادة العالم . ولئن ظلت لها زمانا رقعة الأرض التي أظلتها أعلامها الخفاقة ، فإن بقية من القوة الدافعة التي انبعثت عن قوة الدين في عهده الزاهر هي التي حفظت لها هذه الأرض . وما نلبث كلما تقدم الزمن أن نجد الوهن يسير في عظامها بقدر ابتعادها عن جوهر العقيدة وخضوعها لأهواء النفس . ذلك أن سلطان الروح بدأ يفتر في القلوب حتى دالت أخيرا دولته وأخلى عرشه لسلطان المادة . وما كان لنظام سياسي أن يعيش ويأخذ في النماء إذا لم توطد المثل العليا أركانه ، وتمسك ما بينها كما يمسك الملاط ما بين أحجار البنيان . .

إن جريرة معاوية لا تقاس بنتائج عصيانه للإمام وتمرده على خلافته ،

وإنما تقاس بالنتائج البعيدة التى أصابت صرح الإسلام حتى اليوم . ولسنا نشك فى أن الأقدار هى التى شاءت لهذا الدعى أن يشق طريقه • ولكنا نؤمن بأن الدولة الإسلامية كانت حقيقة بأن تبقى على الزمن خالدة ، تنشر أجنحتها حيثما أشرقت الشمس لو أتيح لها أن تعيش كحالتها الأولى خاضعة لناموس الروح • على أن ابن أبى سفيان كان لا يستطيع أن يعيش إلا فى جو أطماعه • وقد علم أن عليا رجل مستقيم المنهج ، لا يدين بغير شرعة الله ، ولا يقر للأنانية بالحق فى الحياة • بل قد خبره يأخذ نفسه قبل إمرته بتسويد المثل العليا وجعلها الهدف الذى يجب أن يلتزمه كل إنسان مؤمن بإنسانيته ، فهو إذن بعد أن انتهت إليه مقاليد الحكم أحرص على هدفه وأقدر على نصرته • وما دام هذا طابع عهده فليس ثمة اختيار لمن يدين بغير هذه المثل إلا أن يختفى أو يعمل على اختفاء هذا المثالى من الميدان •

كان الطومار الفارغ الذى قطع الصحراء من الشام هو الدعوة السافرة لأصحاب الفتنة المتآمرين ليبرزوا من أوكارهم ويعملوا علانية • فقد اطمأنت به خواطرهم ، وعرفوا أنه عنوان قوة من الرجال والعتاد تربض فى الشمال يستطيعون أن يركنوا إليها فى شد أزرهم إذا أعلنوا هم أيضاً العصيان ، وقد تقووا فعلا بتمرد معاوية ، واستشعروا شجاعة ، كانت تخونهم قبل اليوم تتدفق ثانية فى عروقهم كما تتدفق الدماء • واهل المدينة لم تسمع لغطاً من قبل للائتمار بالنظام القائم كما سمعته فى هذه الفترة وكما همست به ألسنة الحاقدين على الإمام • ولعلها لم تشهد هجرة كهجرتهم من جنباتها إذ ذاك وفرارهم منها كلما استطاعوا الفرار • كان أولئك النفعيون عباد الذات ينظرون إلى تمرد ابن أبى سفيان كفاتحة عهد جديد ، آن أن يظفروا فيه بتحقيق الأوطار وبلوغ أجدى الغايات •

• • • ثم نرى طلحة بن عبيد الله يبرز ثانية على رأس الصفوف هذه المرة لا يسير جدلا جديدا بغير طائل ، ولا يتصدى لمعارضة كلامية تخونه فيها حجته أمام منطق الإمام • إن الظروف قد تغيرت والريح تسير له رخاء كما يلوح ودوره

اليوم أصبح غيره بالأمس ، حين كان لا يعدو تجسيم الهنات ثم الانتظار . لم تعد به الآن حاجة للتربص ولا للمكوث قاعداً يشهد موكب الحوادث الذى أخذ يسير ، ووجب عليه أن يكون فى ركابه أو يضيع .

وجب أن يلحق بموكب النضال ويعمل لجده ، وهاهى عائشة بمكة قد انتشرت دعوتها ونمت الحركة التى بدأتها منذ أربعة شهور ، وزاد أتباعها حتى ليسهل أن يكون منهم جيش مرهوب . أما ميلها السياسى فمعروف . وأما الخليفة المرجو الذى لن تدعو لسواه فليس سواه . فمن البدء كانت داعيته ، أو ستظل كذلك فى قرارتها حتى يتبين لها أن تعاود النداء باسمه مقرونا بلفظ الخلافة الجليل ؟ .

على أنه لم يعدم شعوراً خفياً يزحف إلى صدره كزحف الحية الرقطاء وهو يتجه بعينه صوب الشام . هو حقاً فرح بتمرد معاوية على الإمام وعده خطوة واسعة نحو النصر ، ولكنه مع ذلك كان قلق الخاطر وخياله تطوف به صورة سليل الأمويين . . فهذا الأمير منافس خطر بغير شك يجب أن يحسب له ألف حساب . إنه فضلا عن حسن تأهبه بالعتاد والرجال وامتلاكه ناصية رعاياه ، له فى السيادة مطمع قديم . وهو أيضاً ولى دم عثمان الناهض الآن لأخذ الثأر من كل امرىء شرك فيه . فاذا ذكر دم القتيل لم ينس القاتل ، ولم ينس أعوانه وإخوانه ، ولم ينس قبلهم من دفعهم بتحريضه إلى ارتكاب الجرم . فهل يستطيع طلحة أن يخفى عنه كفه الحمراء ؟

بحسبه جاهد ليبعد هــــذا الخاطر عن ذهنه حتى لا يفسد عليه أمره ، واكتفى بالفرصة التى أحسها حين علم بتمرد معاوية وإعلانه العصيان على الإمام . . . إن قوة عاتية فى الشمال تؤيد إذن خطته ، وتهب لذات الدعوة التى استحدثتها عائشة بمكة . . . تهب لمناجزة الخصم المشترك وإدالة سلطانه ، وتهيأ لضربه الضربة التى ينتظرها هذا التطلع إلى مقعد الحكم وكل متطلع مثله إلى النفوذ أو إلى إشباع هواه . ويوم يتحقق لطلحة أمله ويخلو الميدان من خصمه المرهوب ، يهون عليه بعده أمر كل خصم سواه !

أما الآن فقد وجب أن يلحق بموكب النضال ويعمل لمجده ! • • وإذا كانت نفسه أكبر عنده من أن يحملها على الفرار فإنه لا يعدم وسيلة أخرى يخرج بها من المدينة ولا تنقص من قدر كبريائه . وأيسر هذه الوسائل ما كان يتعلق بالدين ، لأنه به يستطيع الفوز برضاء الخليفة وإقراره . . . كذلك صحب رديفه الزبير ، وانطلقا معا إلى على يطلبان منه الإذن بالخروج .

قال له :

« إيذن لنا يا أمير المؤمنين • • »

ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى طلبا فيها السماح بمغادرة المدينة ، منذ جاء طومار ابن أبى سفيان ! •

— نريد العمرة .

فرمقهما هنيهة بنظرة نفاذة ، ثم قال برنة المستريب :

— والله ما العمرة تريدان ! •

— والله مانريد إلا العمرة .

— بل الغدرة ونكث البيعة ! •

انكشفت له مغاليق القلبين كما ينكشف عن الصحائف غلاف كتاب ، فأى شعور يا ترى اجتاحهما وقد نزلت كلماته عليهما كلسان السوط ؟ .

لوددنا لو كان الزمن لم يطلع على الصاحبين تلك اللحظة ، أو جنبهما الهوان الذى زخرت به ، ولكنها كانت مشيئة نافذة جرت بها يد القدر فى سجله ، وكتبت على الزبير وطلحة مايرجو كل عارف لقدر أمثالهما من قادة الإسلام لو تنزها عنه . فقد مضى الشيخان يؤيدان قولهما ، ويدفعان عنهما تهمة أمير المؤمنين بأيمان مغلظة هما يعلمان بغير شك أنها قسم حانث . . ولكن الحلف وحده كان الوسيلة التى تبلغهما ما يريدان .

وقال على وما زالت نفسه مترعة بالشك والريبة :

— فأعيدا البيعة لى ثانية • • •

فهلا دون تردد ؟ وبايعاه كرة أخرى وهما يعقدان له المواثيق والعهود بأيمان جديدة ... ثم مضيا عنه خفيفين كأنما أتيح لهما الخلاص من نار ، وانطلقا إلى درب مكة ، وإن بصدر كل منهما آمالا مبسوطة الرقعة كامتداد الفضاء الفسيح ..

وكانت المدينة إذ ذاك صامتة ترقب سير الحوادث ، وتنتظر القرار الذى لا بد سيتخذه الإمام حيال متمرد الشام . لقد جاءت الأخبار بطاعة أبى موسى فى الكوفة وببيعته وبيعة أهل إقليمه لأمير المؤمنين ، وها هو الزمن يمر ولا جواب يأتى من قبل معاوية رغم ترفق على به ، ورغم إرساله إليه يعظه ويبصره ويهيب به أن يستجيب لمشيئة جماعة المسلمين ... انقضى الزمن وابن أبى سفيان موغل فى صمته وموغل فى عصيانه ، فدل بهذا على إضماره العداء ، وانطوائه على نية الخلاف . وإن الناظر إلى سياسة على حيال ولاة عثمان ليعلم الآن مدى صوابه حين أبى إلا اخلاءهم وتولية سواهم ممن يؤمنون بمبادئه ومثله ، ويعلم أيضاً أنه كان نفاذ البصيرة ، مؤمناً باستجابة البلاد كلها له لأنه لم يعمل إلا ما أملاه عليه شعور أهل الأمصار نحو أولئك الولاة . وها هو الزمن قد أثبت فراسته ، فجاءته الطاعة من كل إقليم . أما الشام فلها وحدها شأن تنفرد به لأنها فى قبضة رجل مفتون بالسلطان ، إقراره عليها — كعزله سواء بسواء — لن يسفر إلا عن عردة لأنه لا يرضى بغير احتلاب السلطان الذى وقع فى كف غريمه القديم . ولعله لو أثبته الإمام فى حكم الشام لوسعه أن يبدو فى أنظار الجماهير أقوى منه فى حالة العزل ، لأنه يستطيع حينئذ أن يقول للناس إنه يأبى البيعة لمن ولاه ، ولا يعتبرها إلا ثمناً يشترى به أمير المؤمنين صمته عن اتهامه بمقتل عثمان ! ..

ولم يبق ثمة أمل فى إصلاح الحال برد معاوية عن غيه بوسائل الترفق . فقد كشف عن وجه الغدر وأسفر عن دخيلة نفسه . وكانت الأخبار تطالع المدينة بين كل يوم وآخر بتأهبه واستعداده . وكان أنصار على يترقبون

أمره وينتظرون ما ينجساب عنه تقريره ، والحدس يتراوح بهم بين انتصار سياسة الإمهال أو سياسة القتال . فلما أن انقضى الزمان فى ركود ، وملكتهم الحيرة ، دسوا إليه زياد بن حنظلة عسى أن يعرف لهم حقيقة الخطة التى سينتهجونها فى النهاية . فما هو إلا أن دخل عليه زياد وراح يحاول الطواف بحديثه حول الموضوع ، حتى بادره الإمام :

— يا زياد تيسر ...

— لأى شىء يا أمير المؤمنين ؟

— لغزو الشام !

— بل الرفق والأناءة أمثل ...

« ومن لم يصانع فى أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم »

فماجله أمير المؤمنين بقوله :

« متى تجمع القلب الذكى وصارما وأنفا حميا تجتنبك المظالم ! »

ووضح بهذا ما خفى هنيهة عن الأذهان . بانت الخطة التى لم يبق اليوم معدى عن اتخاذها حيال متمرد الشام .

وخرج زياد فاستقبله الناس بالباب:

— ما وراءك ؟

— السيف ياقوم ؟

على أن ابن أبى سفيان حالفه زمنه ، فيسر له أمره ، وفرش طريقه أمامه بالورود ! .. فلم يكد على يطالع أصحابه بما عزم عليه ، حتى امتدت أصابع القدر إلى ذلك العزم فطوته ، وإلى الضربة القاصمة التى كان وشيكا أن يوجهها إلى خصمه فأرجأتها ... ذلك أن القسم الغليظ الذى حلفه طلحة والزبير كان خدعة ، وكان سترا أريد به حجب الغدر الذى بيتاه ... فقد جاءته أخبار مكة تحمل إليه بداءة « العمرة » التى انتواها الشيخان ! ... إن النبأ قد صورهما يدعوان الناس إلى الإصلاح .

وقال لأعوانه الذين سألوه :

« ... ألا إن طلحة والزبير وأم المؤمنين قد تمالأوا على سخط إمارتى ،

ودعوا الناس إلى الإصلاح ، وسأصبر ما لم أخف على جماعتكم ، وأ كف إن كفوا ، وأقتصر على ما بلغني عنهم . . . »

ولكنه في قراراته كان لا يسلم من الشك . ولا يستطيع أن يقسر نفسه على الهدوء ، والاطمئنان . وقد صدق شعوره . فقد جاءته الحقيقة الواضحة بعد قليل ، وعلم أن حزبهم بمكة قد تعبأ للقتال ، وهم بالسير إلى البصرة . . . فإلى أي شيء يسيران إن لم يكونا قد اعتزما أمورا أهونها حمل أهلها — مثلهم — على نقض إمرة الإمام ؟ . . .

وهتف علي وهو يكاد أن يرى بعينيه لهيب الفتنة يعم أقطار الدولة :
« إن فعلوا هذا فقد انقطع نظام المسلمين . . . »

وقد فعلوه . وتواترت الكتب والأخبار بما عزموا عليه . ولم يعد في نفسه ظل ريبة من حقيقة الموقف الذي اختارته عائشة وصاحباها ، ومسارعتهم إلى تقويض بنيان الدولة بهذه الدعوة التي خرجوا بها من حيز القول باللسان إلى المناجزة المسلحة بالسيف والسنان . علم علي كل هذا وأيقنه ، ولكن أمراً واحداً لم يكن قد علمه بعد ، وكان إذ ذاك بعيداً عن ظنه .. ولو استطاع أن ينفذ ببصره إلى مغاليق السر عند الشيخين ، لعرف السبب الحقيقي الذي دفعهما إلى تعجل حربه ، ولرآه ممثلا في كتاب صغير قطع الصحراء من الشام إلى مكة حتى صار إلى يد الزبير يقرأ فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« لعبد الله الزبير أمير المؤمنين . من معاوية بن أبي سفيان .

سلام عليك ، أما بعد فإني قد بايعت لك أهل الشام فأجابوا واستوسقوا كما يستوسق الجلب . فدونك الكوفة والبصرة لا يسبقك إليهما ابن أبي طالب ، فإنه لا شيء بعد هذين المصرين ، وقد بايعت لطلحة بن عبد الله من بعدك . فأظهروا الطلب بدم عثمان ، وادعوا الناس إلى ذلك . وليكن منكما الجد والتشمير . . أظفركما الله وخذل مناوئكما ، والسلام . . »

(تم الجزء الثاني ويليه الجزء الثالث)

مطبعة الحرية - بيروت
تلفون : ٣٢٠٤٤٠